فلسفة

سينيكا

رسائل من المنفى

ترجمة: الطّيب الحصني



صفحة 7

SENECA

سينكا

رسائل من المنفى

ترجمة: الطيب الحصني



الكتاب

رسائل من المنفى

المؤلف

مينكا

الطبعة

الأولى : 2019

الترقيم الدولي :

978-603-91266-8-3

رقم الإيداع:

1441/95



E-mail: info@page-7.com
Website: www.page-7.com
Tel.: (00966)583210696

العنوان : الجبيل ، شارع مشهور
المملكة العربية السعودية

الفهرس

ملاحظات حول الترجمة العربية	7
تقديم :«حياة سينيكا»	9
سينيكا والفلسفة	21
سينيكا والأدب: «رسائله وكتاباته الأخرى»	29
أسلوبه	33
تأثيره وجاذبيته	37
ملاحظة عن الترجمة والنص	41
ملحق بالمقدمة	45
الرسالة I :«القراءة المُمعنة والفقر السعيد»	49
الرسالة II :«الصداقة والاعتدال»	52
الرسالة III :«مشابهة الناس، والخوف والأمل»	55
الرسالة IV :«التعلّمُ بالرؤية لا بالكلام»	58
الرسالة V :«تجنب الحشد، وحشية الأرينا»	61
الرسالة VI : «الكتابة للمستقبل، ما يُمنح يُمنع»	66
الرسالة VII :«الحكيم بين الوحدة والصداقة»	70
الرسالة VIII :«علامات التأثر والقدوة المُراقِبة»	79

الرسالة IX :«تقدم العمر، وسهولة التحرر» 82
الرسالة X : «تمرين الجسد، وترويض الرغبة» 86
الرسالة XI :«القدرُ الإلهي والصدفة، وترسيخ الحكمة» 90
الرسالة XII :«تجربة الفقر» 94
الرسالة XIII :«تقدم العمر والتمرّن على الموت» 99
الرسالة XIV :«شراء العقول» 103
الرسالة XV :«الترحال علاجاً للكآبة» 107
الرسالة XVI :«الحِكَم المقتطعة، والخروج من ظل المعلمين» 111
الرسالة XVII :«نَبْرُ الكلام كزرع البذور» 116
الرسالة XVIII :«سرعة الكلام والتمهُّل فيه» 118
الرسالة XIX :«الألوهة والطبيعة» 123
الرسالة XX :«كتاب لوكيليوس الجديد» 127
الرسالة XXI :«العبيد والسادة» 129
الرسالة XXII :«المغالطات المنطقية ومماحكات الفلاسفة» 137
الرسالة XXIII :«حطام البحر ومكر الأمراض والفلسفة المتطلبة» 142
الرسالة XXIV :«الربو والموت» 147
الرسالة XXV :«فيللا فاتيا والانعزال» 150
الرسالة XXVI :«الضوضاء» 155
الرسالة XXVII : «الحداد وتوقع الموت» 161
الرسالة XXVIII :«السبب الأول، والعقل الخلاق» 166

الرسالة XXIX: «الانتحار والخوف من الموت» 174

الرسالة XXX: «قدرة العقل على تخفيف المرض» 181

الرسالة XXXI: «عن الشكر» 191

الرسالة XXXII: «فيللا سكيبيو» 197

الرسالة XXXIII: «الدراسات الحرّة» 205

الرسالة XXXIV: «الفلسفة والثقافة في تطور البشرية» 219

الرسالة XXV: «حريق ليون، وتقبل الفناء» 237

الرسالة XXXVI: «العناية بالصحة والسفر» 245

الرسالة XXXVII: «نصائح للحياة الآمنة» 257

الرسالة XXXVIII: «تقبل الخيانة وإطاعة الرغبة الإلهية» 260

الرسالة XXXIX: «الفيلسوف، والمعلّق، وعالم اللغة» 264

الرسالة XL: «تنوع الأساليب الأدبية في العصور» 278

الرسالة XLI: «الحياة في الليل» 287

الرسالة XLII: «صراع الفضيلة والمتعة» 294

ملحق موت سينيكا برواية تاسيتوس 301

ملاحظات حول الترجمة العربية

ترجمتُ النص إلى العربية بشكلٍ رئيسي عن ترجمة روبين كامبل الإنكليزية (2004)، واستفدت جداً من ترجمة جومير (1925)، وكانت لتستغلق عليَّ مقاطع كثيرة من الرسائل لولا الجهود العظيمة لهذه الأخيرة التي تضع النصين اللاتيني والإنكليزي جنباً إلى جنب: فساعدتني معرفتي البسيطة جداً بقواعد اللاتينية أن أصوغ بعض الجمل (التي اضطُرت الترجمة الإنكليزية إلى مضاعفة عدد كلماتها بسبب فرق اللغتين) بشكل أقرب إلى الاختصار البليغ الذي يشتهر به سينيكا. وساعدتني أيضاً في تغيير بعض المصلحات التي 'عصرنتها' الترجمة الإنكليزية من دون وجه حق كترجمة:

(A Qua Professione Dissimilitudo Nos Separabit)

(Being Different Will Mean The Abandoning Of That Manifesto.)

والأصح القول: (وأن نكون مختلفين عنهم يعني أن نُخلفَ هذا الوعد)، لأن (المانفستو) فكرة تبعد قروناً عن سينيكا.

وأني بعيدٌ جداً عن أن أزعم أن هذه المقارنة والتعديلات التي قمت بها ترفع عن ترجمتي كلَّ مشكلات الترجمة عن لغة وسيطة، ولكنني

آملُ حقاً في أنها تتخلصُ من نوع الأخطاء الشنيعة التي تحصل عادةً عندما تجري الترجمة بتصرف كبير عن ترجمة وسيطة هي أصلاً بتصرف كبير، فيكاد لا يبقى من النص سوى التصرف على التصرف وحدهما.

اعتمدت تقليل الحواشي، وضمنتها ما تفيد إضافته في فهم فحوى الرسائل، ونبذاتٍ عمن يجب التعريف بهم لاستيعاب مقصد سينيكا وسياقه، وأهملت التعريف بالمشهورين كالإسكندر وهوميروس وكليوبترا وهزيود ونحوهم، وأهملت أيضاً من يحتوي متن سينيكا أصلاً على كلامٍ مطول عنهم يغني عن الحاشية.

وما أضفته - في المتن وفي الحواشي - محتوىً بين قوسين مربعين [كذا] لتفريقه عن المتن أو عن حواشي المترجم الإنكليزي.

الطيب الحصني

تقديم

«حياة سينيكا»

وُلد لوكيوس أنايوس سينيكا في وقت ولادة المسيح تقريباً[1] في قرطبة وهي آنذاك المدينة الرائدة في إسبانيا الخاضعة للحكم الروماني. كان أبوه، ماركوس أنايوس سينيكا، جابياً[2] إمبراطورياً أصبح مرجعاً في الجدل، وهو فن التحدث إلى الجموع والمناظرة[3]. ولم يكن سينيكا ابنه الوحيد (الذي يتحدث عن قسوة أبيه عتيقة الطراز)[4] بل أنجب أيضاً نوفاتوس، والذي عُرف لاحقاً باسم جاليو، وهو حاكم أكايا[5] الذي رفض ممارسة صلاحيته ضد بولس الرسول (سفر الأعمال XVIII, 11-17)، وأنجب

---

1. تاريخ ميلاد سينيكا غير معروف. والدارسون يميلون إلى تقديره في 4 أو 5 قبل الميلاد، على أن بعضهم قدره حتى 8 قبل الميلاد أو 4 بعد الميلاد.
2. الجابي كان نوعاً من المفوض أو العميل، وعمله في الأساس هو جمع الإيرادات، مع أنه قد يحتل رتبة إدارية عليا، فبعض المقاطعات كان جابيها هو حاكمها أيضاً.
3. كتب كتيبين تعليميين حول هذا الموضوع لأبنائه. وهذان الكتيبان، Suasoriae و Controversiae، حظيا بسمعةٍ واسعة وعاشا حتى اليوم.
4. Antiquus rigor -، كما دعاها، كاتباً إلى أمه (ad Helviam Matrem, 17.3).
5. أكايا (أو أخايا) (Achaea)، جزء جنوبي من اليونان ومقاطعة من الإمبراطورية الرومانية، وحكمها جاليو بين عامي 50-51 م.

أيضاً «ميلا»، وهو أقل طموحاً من أخويه ولكنه مدير قدير للأموال (وهو والد الشاعر المبدع لوكان).

عانى سينيكا من صحة معتلة وخصوصاً من الربو طوال حياته، ويكتب لنا في مرةٍ أن السبب الوحيد الذي منعه من الانتحار كان فكرة عدم قدرة أبيه على تحمل خسارته[6].

قضى مدة من حياته في مصر (حيث كان زوج عمته «مارسيا» نائباً للإمبراطور تيبيريوس من 16 إلى 31 م)، وهناك اكتسب خبرةً في الإدارة والأموال. درس أيضاً جغرافية مصر والهند وإثنولوجيتهما[7] وتنمى عنده اهتمام دؤوب بالعلم الطبيعي، التوقعيّ وليس الإمبريقي (مع أن بلينيوس يعتبره مرجعاً في الجيولوجيا والحياة البحرية والمناخ، وأبدى آخرون إعجابهم بملاحظاته حول التطور، مثلاً، أو تفسير وجود الحلقات حول الشمس). انجذب اهتمامه منذ عمرٍ مبكر للميستيكية (الصوفية) الفيثاغورثية، وإلى الجماعات الدينية المتعددة ذات الأصل الشرقي التي كانت وقتها تكسب مؤيدين في روما، وذلك قبل أن يقبل أخيراً، إلى حدٍ كبير، الفلسفة الرواقية.

بعد أن تدرب على المحاماة، دخل إطار الحياة العامة بنجاح وحاز منصب «كويستور» الإداري على الرغم من إعاقته الصحية، وعلى الرغم من خلفيته الأجنبية وقلة صلاته العائلية ومعارفه نسبياً.

---

6. الرسالة LXXVIII.2.
7. Pliny (Natural History, VI:60) يتحدث عن كتابة سينيكا عن الهند بأنها تصف نهراً و118 عرقاً – وهذا دلالة على قوة مؤسسات البحث في الإسكندرية آنذاك.

عندما أصبح كاليغولا خليفة تيبريوس في 37 م، كان سينيكا قد أصبح متحدثاً فذاً في مجلس السناتورات، وأثار ذلك غيرة[8] الإمبراطور الجديد بحيث أنه أمر، حسب رواية ديو كاسيوس، بإعدامه، ولم يقتنع بإطلاق سراحه إلا عبر امرأة مقربة من العرش الإمبراطوري قالت أن سينيكا «يعاني من السل المتقدم ولن يعيش طويلاً».[9] ويبدو أن هذه الحادثة كانت سبب تقاعده المؤقت من الحياة السياسية.

في 41 م، السنة الأولى من حكم كلاوديوس، خليفة كاليغولا، حُكم على سينيكا بالإعدام مجدداً – جرى تخفيض الحكم إلى النفي – لأسباب لا نعلمها. وكانت الذريعة تهمة الزنا مع جوليا ليفيلا، وهي أخت الإمبراطور الراحل، والتفسير الأكثر احتمالاً[10] هو أن خليلة الحاكم الجديد، ميسالينا، اعتبرته خطراً. ولا يبدو أنه تحمل نفيه في جزيرة كورسيكا بالتسليم الرواقي المتوقع منه، فالروح العالية الشداعة التي تظهر في خطابه إلى أمه العزيزة هيلفيا غائبة تماماً في رسالة أخرى أرسلها إلى بوليبيوس، وهو عبدٌ سابق أصبح خادماً موثوقاً لدى الإمبراطور، إذ تحتوي هذه الرسالة على إطراءٍ متذللٍ، وأغلبُ الظن أنها لم تُكتب للنشر. بحلول ذلك الوقت كان قد خسر أباه، وأحد أبنائه أيضاً، وماتت زوجته

8. Suetonius (Caligula, 53) يقول أن الإمبراطور استخف به قائلاً أنه ليس إلا 'خطيبا مدرسياً'، وأن أسلوبه 'رمل بلا إسمنت' (arena sine calce)
9. Dio, Roman Hiistory, LIX: 19.
10. يقول سوتونيوس (كما هو مقتبسٌ لدى جوفينال Juvenal, Satires, V:109) أن سينيكا نُفي بذريعة (ارتباطه) بفضيحة علاقةٍ حصلت مع جوليا لوفيلا (quasi conscious adulteriorum Juliae). Dio (Roman History, LX:8)، وديو كاسيوس يتحدث أيضاً كما لو أن سينيكا مجرد ضحية عرضية، وأن الاتهام سببه غيرة ميسالينا من جوليا (أخت أجريبينا، وهي على ما يبدو امرأة جميلة وذات تربية راقية).

الأولى خلال غيابه. وكان عزاؤه الوحيد في السنوات الثماني الطوال هذه من العزلة التي تصل حد اليأس هو الترحيب الذي لاقته القصائد والتراجيديات والمقالات التي استمر بكتابتها لأصدقائه من منفاه.

تغيرت حظوظه دراماتيكياً في 49م، حيث أُعدمت ميسالينا وطلبت زوجة الإمبراطور الجديدة، أجريبينا، عودة سينيكا إلى روما، وعينته في منصب «بريتور» الرفيع، وجعلتهُ معلمَ ابنها ذي الاثني عشر عاماً لوكيوس دوميتيوس أهينوبربوس (وهو الطفل الذي أصبح لاحقاً الإمبراطور نيرون). كانت دوافع أجريبينا حسب رواية تاسيتوس، إلى جانب تعليم ابنها، هي ثقتها بأن استقدام «شهرة سينيكا الأدبية» سوف تزيد من شعبيتهم، وإيماناً منها بأنه سيكون حليفاً يُعتمد عليه ومستشاراً مفيداً لها ولنيرون في السلطة التي يخططان لها.[11]

ليس ثمة دليل على تورط سينيكا في تسميم كلاوديوس في 54 م، ولكنه كتب الخطب التي ألقاها نيرون ذي السبعة عشر عاماً بعد صعوده إلى العرش، وكان هو على الأغلب من كتب هجوماً ذكياً – ولو وجدناه اليوم قليل الذوق – على ذكرى الحاكم الراحل بعنوان (Apocolocyntosis)، وهي حكاية خيالية عن الرفض الذي يتلقاه الإمبراطور المتوفى حديثاً عندما يقدمُ نفسه إلى بوابات السماء وتجادله الآلهة في طلب الدخول. ألقى نيرون خطاباً رسمياً تكريماً لسلفه، وقيل أن الخطاب يحتوي «كثيراً من التنميق» وأنه مثالٌ جيد على «أسلوب سينيكا الجذاب، والموجه بدقة إلى آذان المستمعين في زمانه».[12]

11. Tacitus, Annals, XIII:8

12. المرجع نفسه: XIII: 3.

افتتح النظام الجديد عهده جيداً، وزُوي عن «سنوات نيرون الخمس الأولى» لاحقاً أنها فترة من الحكم السديد غير المسبوق، حتى إن الإمبراطور تراجان دعاها الفترة الأفضل في تاريخ الإمبراطورية الرومانية.[13] وفي ما يخص هذه الفترة، فإن روما تدين بالفضل لسينيكا ولضابط في الجيش يدعي بورروس. كان هذان الاثنان «الأكثر نفوذاً والأكثر تنوراً من بين الرجال الذين أحاطوا بنيرون» (حسب قول ديو كاسيوس)[14]، ومنعت «خبرتهما الواسعة ومعرفتهما العامة» (تاسيتوس)[15] الشابَ اليافع سريع الغضب من تنفيذ كثيرٍ من القتل عندما اعتلى العرش، ووجهته نحو تحويل بعض طاقاته إلى «المُتع المقبولة».[16] لم يفاجئهما تسميم بريتانيكوس إلا قليلاً، وتعاونا على طول الخط بتناغم تام، فنجحا في الحفاظ على التجارة المحلية من الوصول إلى يد أجريبينا وإبقائها في يدهما. يعزو تاسيتوس سر نفوذ سينيكا إلى «تلقينه لنيرون فن الخطابة، وخلقه الجذاب ومبادئه العالية، وأما نفوذ بورروس فيعزوه إلى مسؤولياته العسكرية وصرامة شخصيته».[17]

13. «الخمسِ سنواتٍ كان نيرون حاكماً عظيماً، من حيث نمو روما وتطويرها، بحيث إن ادعاء تراجان بأن ليس هنالك إمبراطور يناهزُ نيرون في هذه السنوات الخمس ادعاءٌ مبرر بالكامل». هذا مع بعض التصرف قول أوريليوس فيكتور، (Aurelius Victor, de Caesaribus, 4, ii).

14. (Nero… quenquennium tamen tantus fuit, agenda urbe maxima, uti merito Trajanus Saepius testaretur procul Differe cunctos principes Neronis quinquennio).
ويجب ملاحظة أن ليس كل المؤرخين يتفقون على أن quenquennium Neronis تشير إلى السنوات الخمس الأولى من حكمه.

15. Roman History, LXL:3

16. Annals, XIII:6

17. Voluptatibus concessis والتي قد يعني بها تاسيتوس الفنون، والمتع، والأفعال الوحشية غير المرتبطة بالسياسة. Annals, XIII:2.

هذان الاثنان «استحوذا على السلطة كاملة، ومارساها، على أفضل ما يستطيعان، بأسلم الطرق الممكنة وأكثرها عدلاً، ولذلك فقد حاز كل منهما رضا جميع الرجال» (ديو كاسيوس).[18] وبينما كان نيرون يُمتِّعُ نفسه، عملَ الاثنان على مشكلات الحكم، فنلاحظ مثلاً من ضمن أنشطتهما إصلاحات قانونية ومالية تتضمن تخفيض الضرائب غير المباشرة، وخطواتٍ لمنع حُكام المقاطعات من الاختلاس والابتزاز، وتنفيذ حرب ناجحة في أرمينيا لتثبيت حدود الإمبراطورية على الجبهة الشرقية. وتظهر اهتمامات سينيكا الجغرافية في إرساله بعثة للـ'تحقيق في مصدر النيل'. ولكن أحد اهتماماته الأخرى كان الكتابة المختزلة، وهي نظام الإملاء الروماني المختصر الذي يُقال أن سينيكا أعاد إصلاحه بالكامل.

على ما يبدو، لم يتخذ هو أو بورروس منصباً قانونياً أو دستورياً يمكن أن يقال عنه أنه يمنحهما السلطة التي مارساها في تلك السنوات. بل بدا أن سينيكا «السيدُ الحقيقي للعالم»[19] يحرك القوى ببساطة من خلف العرش. من الآمن القول بأن نيرون (على عكس تلميذ أرسطو المُحتفى به في العمر نفسه، الإسكندر العظيم) كان لا يزال تحت نفوذ معلمٍ ذي سحرٍ شخصي لا شك فيه، وكان راضياً جداً بأن يترك له إدارة الشؤون

18. Roman History, LXi: 4.

19. Grimal, The Civilization of Rome. جومير، وهو مترجم سينيكا الأميركي، يقترح أن هذه الحالة الغريبة للأمور قد تكون محاولة لتجريب مثال أفلاطون عن الفيلسوف الحاكم، وانما أخذت بعين الاعتبار ظروفَ زمانها، فأوجدت توازناً بين أخطار حكم الرجل الواحد (التي كان حكم كاليغولا حديث العهد دليلاً فاقعاً عليها) ومن جانب آخر، استحالةَ العودة إلى الانتخابات الحرة وشبه الفوضوية التي سادت عهد الجمهورية. وهو يصف النتيجة بأنها شيء يشبه نظام الوزارات حيث سينيكا برأسها.

التي لا يجد فيها اهتماماً حقيقياً. ولكن ما إن بدأ الإمبراطور اليافع بالاستماع إلى مستشارين آخرين وإشباع رغباته الأكثر عنفاً وانتقاماً حتى باتت هذه الحالة محتومة بالانتهاء.

في 58 م كان سينيكا يتعرض للهجوم من قبل أشخاص مثل بوبليوس سوليوس روفوس.[20] ويبدو أن الاتهامات تنوعت في فظاعتها، فمن النوم مع أم الإمبراطور (من الواضح أن الرجل أخفق في تعلم درسه من عقوبة النفي «المستحقة بالكامل لإغوائه أميرة إمبراطورية»)، إلى تقديم الإمبراطور لممارسة البيدارستيا[21]، إلى عدم فائدة دراساته وتأثير أسلوبه الخطابي. ولكن الحملة ضده تمركزت بشكل عام حول التضارب الظاهر بين تعاليمه الفلسفية وبين ممارساته – وهذا كان نقداً شائعاً لسينيكا على مر القرون. ومن الأمثلة التي ساقها سوليوس على نفاق سينيكا: استنكاره للطغيان الذي لم يمنعه من أن يكون أستاذاً لطاغية، وتملّقه – الذي يتعارض مع الموقف الذي تبناه، خصوصاً من منفاه – للعبيد السابقين الذين ترأسوا أقساماً من إدارة كلاوديوس، واستنكاره للبذخ مع أنه – حسب الادعاء – أقام مأدباتٍ على 500 طاولة متماثلة مصنوعة من خشب الليمون وأرجل عاجية، وفوق كل شيء: الثروة. يسأل سوليوس: «أي نوع من الحكمة؟ أي تعاليم فلسفية؟ هي تلك التي قادته إلى امتلاك ثلاثة ملايين سسترس في أربعة أعوام من وجوده في البلاط الإمبراطوري؟ إن الرجال الذين لا أولاد لهم يسقطون مع

---

20. Tacitus, Annals, XIII:42 و Dio, Roman History, LXL:10 هما المرجعان اللذان نملكهما عن الإشاعات.

21. [نمط معين من العلاقة الجنسية بين رجل بالغ وآخر يافع، وُجد بكثرة في اليونان القديم وأحد أشكاله علاقة الأستاذ بتلميذه.]

ميراثهم في شبكة سينيكا، بينما إيطاليا كلها والمقاطعات تستنزف حتى الجفاف تحت وطأة إقراضه المال بفوائد غير محدودة».

كان سينيكا مشهوراً بثروته فعلاً. يكتب جوفينال عن «الحدائق الواسعة التي يملكها سينيكا فاحش الثراء».[22] وقد حصلت له أجريبينا، كما يقول ديو كاسيوس، على «ثروات لا تحصى من كل المصادر».[23] الكاتب الزراعي كولوميلا يذكر الإنتاجية المذهلة لعرائش العنب التي يملكها من النبيذ، الأفضل في إيطاليا، في ميتتانا.[24] والإجابة التي قدمها سينيكا لمهاجميه، إن كان أجاب، هي على الأغلب تلك الموجودة في رسالته عن الحياة السعيدة التي أرسلها إلى أخيه جاليو. ما يهم، حسب قوله، هو موقف المرء من الثروة التي هي خادمة الحكيم ومُستعبِدة الأحمق، وهو مثلُ أي رواقي جيد، قد يخسر كل أملاكه في أي لحظة من دون أن تنقص سعادته مقدار ذرة. هذا هو جوهر الجواب الطويل للتهمة، والتي يقولها بصراحة تامة: «الفلاسفة لا يمارسون ما يعظون». حياته اليومية لم تشابه ما اتُهم به (لدينا على الأقل كتاباته هو نفسه[25] عن طعامه العادي وامتناعه

---

22. Satires, X:16. وتاسيتوس أيضاً (Annals,XV:64) يستعمل الكلمة نفسها praedives (فاحش الثراء) ليصف سينيكا، والذي كان مليونيراً، من حيث الفضة يملك أربعة أو خمسة ملايين.

23. Roman History, LX:32 يقول هذا المؤرخ أن تحصيل سينيكا للفاحئ، وبالإجبار، للمبالغ الضخمة من المال التي أقرضها للسكان الأصليين في مقاطعة بريطانيا المحتلة حديثاً كان سبب ثورة بودوشيا، Boudicea، في 61م.

24. Res Rustica, III:3.3.

25. في الرسائل CVIII و LXXXIII، على سبيل المثال. في LXXXIII يصف حملة قام بها بنفسه مع صديق مقرب (كاسونيوس ماكسيموس، وهو الآخر رجل ذو حياة مهنية فذة) في عربة تجرها البغال مع أبسط معدات النوم ولا شيء من الطعام سوى خمس تيناتٍ وخبز. ويتحدثُ عن 'يومين مُنعمَين'، ولكنه يندم على أنه لم يتمكن من أن يتمالك نفسه من ألا يحمرَّ خجلاً حين يلتقيان بأناس يسافرون في فخامة أرقى. قارن ذلك مع انتقاده لخجل المرء من السفر من دون أن يحمل معه مقتنيات ثمينة في الرسالة CXXIII.

من المسكرات طوال حياته، وسريره القاسي وحماماته الباردة وجريه اليومي). ولم يلحق به أذى جراء هذا الهجوم.

في 59م قتل نيرون والدته، ونُفذت عملية القتل بدم بارد بعد إخفاق ذريع لمحاولة اغتيالها في البحر لإظهار الأمر كحادث. هنالك ما يدفعنا إلى الاعتقاد بأن سينيكا وبوروس ما كان لهما دور في التخطيط لهذه الجريمة، ولكن لما ظهرت الوقائع على العلن فقد اجتهدا في تخفيف تأثير الواقعة على الرأي العام. من المؤكد أن سينيكا كتب الرسالة التي بُعثت إلى مجلس السناتورات «لتشرح» كيف أن موتها نتيجةٌ لانكشاف مؤامرة خطرة لقتل الإمبراطور. وحسب ما يطالبنا ديو كاسيوس أن نصدق، فقد حال سينيكا دون حصول مجزرة جماعية عندما قال لنيرون: «مهما كان عدد الذين ستذبحهم فإنك لن تقتل خليفتك».[26]

تاسيتوس[27] يخبرنا أن موتَ – «غالباً قتلَ» – بوروس في 62 م «حطَّمَ سلطة سينيكا». واستطاع أعداؤه إقناع نيرون بالإنصات إليهم بحكايات عن شعبية سينيكا وثروته المتنامية، فالأولى منهما قيلَ له أنها خطرٌ على العرش، والثانية أنها ثروةٌ تتجاوز أملاك الإمبراطور نفسه (الذي، كما قيلَ أيضاً، كانت قدراته كفنان ومتحدث تطمسها قدراتُ أستاذه العجوز). نيرون، كما قالوا، بات ناضجاً وصار من الضروري له أن «يخرج من تحت عباءة أستاذه». استوعب سينيكا الخطر، إذ حذره أصدقاؤه مما يحصل،

---

26. Roman History, LXI:18. يروي ديو، وهو في العادة معادٍ لسينيكا، أن 'الكثير من المصادر للوثوقة' تقول أن سينيكا ساعد على تشجيع نيرو على تصفية والدته أجريبينا (Roman History, LXI:12)
P.J. Bicknell, S.J. Batomsky يناقشان جريمة القتل وأهميتها كما تناقش احتمال تورطه 'البعيد' فيها في:.pp.42-45 (1963) 21 . (Unversity of Natal Press).
27. Annals, XIV, 52f.

وقرر أن يطلبَ من الإمبراطور اعتزال الحياة العامة، وقُبِلَ الطلب وحصل الافتراق على نحو ودّي.

كرس سينيكا نفسه في السنوات الثلاث الأخيرة من حياته للفلسفة والكتابة، من ضمن ذلك Epistuales Morales (الرسائل الأخلاقية والتي هي بين يدي القارئ) التي كتبها إلى لوكيليوس جونيور («بوركرياتور» صقلية في ذلك الوقت [Procurator، المسؤول عن إدارة الأموال في المقاطعة]) الذي يبدو أنه تعاطى الأدب والفلسفة. وقضى سينيكا وقته متنقلاً في جنوب إيطاليا مع باولينا، زوجته الثانية، وصار نادراً ما يزورُ روما، حتى إنه – حسب رواية ديو كاسيوس – من أجل طمأنة الشكوك، أو للحصول على أمان أكبر، قدَّمَ ثروته كاملةً للإمبراطور. يذكرُ تاسيتوس قصةً عن محاولة لاغتياله بالسم، وأنه تجنبها إما عبر عبدٍ كشفَ له المؤامرة أو لأن الفيلسوف كان مُحتسباً لمثل ذلك فاقتات على حميةٍ «مفرطة في البساطة من الفاكهة البرية والماء الجاري».[28]

ومن ثم في عام 65 م قامت المؤامرة الكارثية ضد الإمبراطور من قبل السناتور «بيسو» وآخرين، ومن الممكن جداً أن سينيكا كان ضالعاً بها. وهناك رواية عن مؤامرة فرعية تتضمن قتل بيسو وجعل سينيكا إمبراطوراً «كونه رجلاً تبدو عليه ملامح السلطة المطلقة من خلال الصفات الحميدة التي كان مشهوراً جداً بها».[29] خسر الكثيرون حياتهم عند اكتشاف المؤامرة. وطُلب من سينيكا، كالكثيرين غيره، أن ينتحر، وهي في ذلك الوقت الطريقة السائدة للإعدام الإمبراطوري. الوصف

28. المرجع نفسه XV:45.
29. المرجع نفسه XV:65.

الذي كتبه تاسيتوس مؤثرٌ يصعب نسيانه.[30] وتبعه إخوته ولوكان، أيضاً بالانتحار، وذلك في سياق التطهير المذعور الذي قام به نيرون ضد أعدائه الحقيقيين والمتخيلين.

يرى بعضهم أن رواقياً حقيقياً، مثل كاتو أيام الجمهورية، كان سيبقى في الحياة السياسية حتى اللحظة الأخيرة. ولكن بعد أن خسر سينيكا كل نفوذه على نيرون، ولما يعد لدى الإسباني أملٌ في أن يكون ذا فائدة للعالم الروماني، وفي زمنٍ يعيشُ فيه الكثيرون في خوف دائم من رسالة نزويّة من الإمبراطور تطالبهم، مجازاً أو صراحة، بالانتحار، لم يكن لديه بديلٌ عن التقاعد سوى الموتِ المؤكد. من الصحيح أن رواقيين آخرين وقفوا في وجه الأباطرة، وحصلوا على الشهادة جزاءَ معارضتهم للحكم الجائر، بينما اختار سينيكا أن يقضي الوقت المتبقي لديه في الفلسفة، وللقارئ هنا أن يكون الحَكَم – ويجب أن يتضمن ذلك للعدالة صحته المتدهورة – في ما إذا كانت 'قلة شجاعته خارج مكتبته' في هذا الموضع أو مواضع سابقة تنتقصُ من إنجازاته. وعلى نحو مفاجئ ربما فإن جوفينال، كاتب القرن الساخر، لا يهزأ من الفارق بين سلوك هذه الشخصية المشهورة وبين معتقداتها الفلسفية، وهو فارقٌ كثيراً ما تندَّرَ به كُتَّابٌ لاحقون.[31] يسأل

30. المرجع نفسه، XV:60-64. نجدُ في رواية تاسيتوس (كما نجد في بداية الرسالة CIV) تعبيراً عن المحبة للمقربة بينه بين زوجته الثانية. ونجد في أطروحته المسماة (الغضب) كلاماً رقيقاً يذكر فيه كيف كانت زوجته الأولى، بعد إطفاء للصابيح للنوم، تحافظ على الهدوء بينما يراجع مع نفسه كعادته ما فعله أو قاله على مر اليوم. (De Ira, III: 36).

31. Augustine (De Civitate Dei, VI:10) يقول أن سينيكا 'يعبدُ الأشياء ذاتها التي ينقدها' (quod culpabat adorabat). وميلتون يقول عنه أنه 'في كتبه، فيلسوف'، فرانسوا دي لا روشفوكولد، وضعه في كاريكاتور على غلاف كتابه Réflexions ou sentences et maximes morales، حيثُ يظهر سينيكا بملامح شريرة وجشعة ويقوم 'كيوبيد' (الذي يمثل هنا للسرحية المزلية L'Amour de la Vérité) بانتزاع قناع اللطف والفضيلة عن وجهه.

الدكتور صمويل جونسون: «يا سيدي، هل أنت مغرقٌ في جهلك بحيث لا تعرف أن الرجل قد يكون صادقاً جداً في مبادئه الأخلاقية دون أن يمارسها على نحو جيد؟» من الممكن فعلاً أن يكون سينيكا المثال الأكثر بروزاً في التاريخ لرجلٍ أخفق في أن يعيش حسب مبادئه.

لا يمنعه هذا من أن يكون القامة الكبرى في عصره. يقول معاصره بلينيوس: «كان سينيكا لا يضاهى في مجالي أدب الرسائل والسلطة (سلطةٌ أصبحت أكبر من اللازم وارتدت على رأسه)، كان آخر رجلٍ يُعجبُ بما لا فائدة منه».[32] المالُ والسلطة والإنجازات في مجال الحياة العامة أو الرسائل (على الرغم من أهمية القليل الذي نعرفه عن مسيرته المهنية) لم تكن الأشياء التي يريد سينيكا أن يقترن بها في عقول من يقرؤونه اليوم. نحن نعرف أنه كان متوقعاً أنه لن يُنسى: بل يصل به الأمر في إحدى رسائله إلى درجة أن يَعِدَ لوكيليوس بالخلود عبر مراسلاته معه)، ولكن الذكرى التي أراد لها البقاء هي قيمةُ الأفكار التي، كما يقول للوكيليوس في الرسالة الثامنة، كان يضعها على الورق أملاً في أن تكون «ذات فائدة للأجيال القادمة».

---

32. Natural History, XIV:51.

سينيكا والفلسفة

للرواقية تاريخ طويل قبل سينيكا، فقد كانت الفلسفة الأكثر نفوذاً في العالم الإغريقي-الروماني قروناً من الزمان. أسسها زينون (المولود من أصلٍ فينيقي في قبرص حوالي 336/ 335م) والذي درّس أو حاضر في «ستوا» (شرفة، أو رواق ذو أعمدة ومن هنا يأتي الاسم) معروفة جيداً في أثينا، وطوّرها وعدّلَ فيها عددٌ من المفكرين المتتالين والذين يظهر تباينٌ معقول في آرائهم حول الأسئلة المنطقية والأخلاقية والكونية. ولكن من حيث هي عقيدة أخلاقية فقد تأسست على مدى فكرهم على الهيكل التالي من الاعتقاد:

رأى الرواقيون العالم مجتمعاً واحداً ضخماً، الناس فيه كلهم إخوة، ويحكمهم تدبيرٌ أعلى يمكن الحديثُ عنه – حسب الاختيار أو السياق تقريباً – بأسماء متنوعة أو أوصافٍ تتضمن: السبب الإلهي، السبب الخلاق، الطبيعة، روح الغاية في الكون، القدر، إلهٌ شخصي، وحتى (كنوع من التنازل للأديان التقليدية) باسم «الآلهة». إن واجب الإنسان هو أن يعيش بتوافق مع الرغبة الإلهية، ويعني هذا أولاً أن يناغم حياته مع «قوانين الطبيعة»، وثانياً، أن يسلّم نفسه تماماً وبلا تذمر لأي شيء يرميه القدرُ في طريقه. وحدها هذه الطريقة من الحياة، وعدمُ وضع قيمة زائدة

على الأشياء التي يمكن أن تُسلب في أي لحظة من الإنسان، هي التي تُمَكِّنُ الرواقي من أن يكتشفَ السلام والرضا الحقيقيين الراسخين، واللذين تحول دونهما عقباتٌ كبرى من بينها الطموحُ والبذخ وفوق كل شيءٍ الجشع.

«الحياة المتناغمة مع الطبيعة» لا تعني مجرد التشكيك بالأعراف وتدريب أنفسنا على الغنى عن كل شيء سوى الحاجات الرئيسية (الطعام البسيط، الماء، الثياب البسيطة، والمسكن) بل تعني تنمية ملكة العقل الفريدة التي تميزنا عن عالم الحيوان. علينا أن نحرر أو نتمم هذا العنصر العقلاني، هذه الشذرة من العقل الكوني، هذه «البارقة الإلهية» في بنيتنا الإنسانية، بحيثُ تواجه الألم والحزن والخرافة وخوف الموت، وتقهرها. سوف ترينا أن لا شيء سيئ أو جيد بل التفكيرُ يجعله كذلك، وتهذب مُتعنا وشغفنا، وعلى نحوٍ عام، تضعُ الجسدَ والمشاعر تحت سلطة العقل والروح.

بهذه الطريقة يمكننا أن نصل إلى غاية الإنسان الحقيقية: السعادة، عبر الحصول على الشيء الوحيد الجيد في الحياة: المثل أو الهدف المسمى arête في اليونانية وvirtus في اللاتينية – والذي لا تفيه الكلمة المتحدرة منه بالانكليزية virtue [فضيلة] حقه من الترجمة. هذا الـ Summum Bonum أو «المثل الأرقى»، يُختصر عادة في الفلسفة القديمة في مجموعة من أربع صفات: الحكمة (أو البصيرة الأخلاقية)، والشجاعة، والتحكم بالنفس، والعدل (أو التعامل القويم). يمكّن هذا المثل الإنسان من أن يكون «مكتفياً بذاته»، منيعاً من المعاناة، متفوقاً على جروح الحياة

وإزعاجاتها (والتي غالباً ما يتم تشخيصها على هيئة «فورتونا»، آلهة الحظ[33]). وحتى العبد إذا تسلّحَ بهذه الصفات يستطيع أن يكون «حراً»، بل أن يُدعى «ملكاً»، لأن الملك نفسه لا يستطيع أن يلمسه. أحد الأمثلة الأخرى على هذه الـ«بارادوكسات» [التناقضات] التي كان الرواقيون مُشتهَرين بها يتعلق بخواء الممتلكات الدنيوية: «إن الطريق الأقصر إلى الثروة هو احتقار الثروة».[34]

تشكّلَ هذا النظام الأخلاقي، جنباً إلى جنب مع نظام داعم له من الفيزياء والمنطق في عقول مفكرين ذوي أصول غير أوروبية، على الرغم من أنهم ينطقون باليونانية، ويتحدرونَ من مناطق مثل آسيا الصغرى أو المشرق مثل طرسوس وقبرص وبابل. ولا يبدو أن هذا أثّر في جاذبية النظام الأخلاقي عند الرومان المتعلمين عندما وصل أول مرة إلى انتباههم في حوالى القرن الثاني ق.م. فالواجبات التي يُلقنها هذا النظام – الشجاعة والتحمل وضبط النفس والاعتماد عليها والسلوك القويم والتعامل العادل، والعادات البسيطة وغير البذخة، والعقلانية، والطاعة للدولة – كلها كانت أشياء بديهية لدى الرومان، وتتواءم على نحو وثيق مع فكرة الـ virtus التقليدية عندهم. ومن ثم جاء تطوير الـ jus naturae [القانون الطبيعي] من قبل المُشرّعين الرومان ومساواة بوسيدونيوس بين مجتمع العالم الرواقي أو الـcosmopolis وبين الإمبراطورية الرومانية، فجعل تقبلها أسهل بكثير. وفي زمن لاحق، أدت

33. [تمر آلهة الحظ أو (الحظ متجسداً) في رسائل سينيكا كثيراً، واعتمدت في ترجمتها إلى اللغة العربية كلمة 'الأقدار' في أكثر للمواضع التي ترد فيها، وفي بضع جمل قليلة بدت فيها ركيكة ترجمتها: 'الحظ'.]
34. الرسالة LXII.

وجهة النظر الرواقية للحاكم (ويتضمن هذا اللقب الملوك والممثلين المنتخبين والموظفين الإداريين)[35] التي تعتبره رجلاً يمكن انتقاد أفعاله، او حتى اعتباره وزيراً أو خادماً... ادت إلى امتعاض الأباطرة، واستجاب بعضهم بنفي «الفلاسفة». ولكن الرواقيين كانوا بعيدين عن العداء للمَلكية بحد ذاتها، على الرغم من إعلانهم صراحةً أن الرتبة لا تعني شيئاً بمقارنتها مع واجب كل البشر، أياً كان موقعهم، الذي يجب أن يؤدوه في الحياة على نحوٍ جيد.

على الرغم من قبول الرواقية على نحو واسع في الأوساط المتعلمة، إلا أن الرواقية المبكرة كان لها جانب منفرٌ يفسرُ إلى حدٍ كبير إخفاقها في الوصول إلى الجماهير. فقد كان هنالك ما يبدو غير حقيقي أو خيالي في الـsapiens، الرجل الحكيم أو الفيلسوف. إذ تبدو هذه الشخصية المثالية، كما تصفها المحاضرات الرواقية، وكأنها قد أصبحت مثالية بفعل تحولٍ ما حصل منذ زمن بعيد، والتطورُ التدريجي للنفس بالكاد كان مطروقاً، ولذلك بدا أن الهدف الذي وضعته الرواقية نصبَ عينيها بعيدٌ عن منال الناس العاديين. لقد خنقت وكبتت المشاعر الإنسانية العادية في سعيها وراء الـapatheia: المناعة من الشعور. فكاتو مثلاً، وهو قديس الرواقية العظيم، يُقال إنه ندم على تقبيله زوجته في لحظة خطر. ومن ضمن تعاليم الرواقية أن احترام المرء لنفسه في ظروف معينة قد يدعوه –

---

35. كان الكثيرون يعتبرون الرواقيين 'معادين للسلطة ومقاومين للانضباط، ومحتقرين للملوك، والإداريين للتحبين وللوظفين الحكوميين'. (contumaces... ac refractarios, contemptores magistratuum aut regum eorumve per quos publica administrantur). (الرسالة LXXIII). وثمة عدد من الحالات التي كانت فيها قلة احترام الرواقيين للأباطرة سبباً للشهادة.

في لحظة من النبل الأرقى – إلى الانتحار. وفي سعيها لخلق مبدأ autarkeia (الاكتفاء بالذات)، جعلت الرواقيةُ الإنسانَ المثالي إنساناً منفكاً ومنعزلاً عن صحبه، متفوقاً على العالم الذي يعيش فيه. وفي مجمل الأمر قدمت انطباعاً – على الرغم من مثاليته وصدقه – يبدو بارداً ودوجماتياً وغير واقعي. إسهامُ سينيكا في الفلسفة القديمة كان أنسنة هذه العقيدة، مُكملاً مسيرةً بدأت قبل وقت طويل في رودس وروما على يدي بانياتوس وبوسيدونيوس.

على الرغم من أن سينيكا وجّهَ كتاباته إلى حلقة ضيقة نسبياً من الناس المتعلمين (موجهاً خطابه في غالب الأمر إلى صديقٍ معين أو أحد أقربائه كما لو أنه المستشار الروحي الشخصي له) فإن رسائله ومقالاته تعرضُ رواقيةً أكثر تصالحاً مع حقائق الطبيعة البشرية وضعفها. فمَثَلُ الـ«apatheia» مُعدَّلٌ جداً: إذ على الرغم من أن الـ sapiens [الحكيم] مكتفٍ بذاته، فإن سينيكا يجعله منفتحاً على الصداقة، وله أن يحزنَ، ضمن حدود، على خسارة أحدهم. وباتت وظيفته أن يكون لطيفاً وغفوراً مع الآخرين، بل إن عليه «أن يعيش من أجل الشخص الآخر».[36] وعليه أن يتجنب أسلوب الحياة المتباهي باختلافه عن الآخرين الذين يحاولُ انتشالهم من جهلهم الأخلاقي. وعليه أن يصارع كما كل الناس ضد إخفاقاته، في عملية طويلة ومؤلمة نحو الكمال، يستطيع خلالها الاستفادة ممن هم أعلى منه في كل أمر، أو من الإلهام الذي يقدمه مثال الآخرين. ويمكن لنا أن نلاحظ أن سينيكا نفسه يستخدم تعابير غير متواضعة عن

36. الرسالة XLVIII.

نموه الشخصي، ولكنه قادر على التواضع كما نرى في أحد أوصافه لنفسه: «بعيدٌ عن أن أكون قابلاً للاحتمال، ناهيك عن أن أكون إنساناً مثالياً».[37]

وفي أقواله عن رابطة الإنسان مع إله حميد، وحتى إلهٍ محب، وعن إيماني بالوعي بصفته «النور الداخلي للروح» المُلهم إلهياً، فإن مواقفه أكثر دينية من أي شيء يرِدُ في دين الدولة الرومانية، والتي كانت في زمانه لا تعدو كونها بواقيَ مهلهلة من العبادة الرسمية التي تقدمُ الفروض لمجموعة من الآلهة الذكور والإناث. ولم يتوانَ الكتاب المسيحيون عن الانتباه إلى التناظرات المذهلة بين جمل معزولة من كتابات سينيكا وبين أجزاء من الكتاب المقدس.[38] من جانب آخر الفلاسفة استعملوا كلمة «إله» أو «الآلهة» بصفتها تعبيراً تقليدياً وملائماً أكثر من أنها تمثل مكوناً جوهرياً أو حتى مُحَدَداً بدقة في النظام الرواقي. ولطالما كان ميلُ الرواقية نحو تبجيل أهمية الإنسان في الكون، بدلاً من تصغيره أمام سلطةٍ أعلى. إن أمل الخلود شيءٌ طُرح أحياناً ولكن سينيكا لم يتعاطه. ففي رأيه، ورأي أكثر الرواقيين، علينا أن ننظر إلى الفضيلة على أنها مكافأةُ نفسها، والخطيئةُ على

37. الرسالة LVII. قارن مع الرسالة VI.

38. بعض الأمثلة على الأقوال أو الأفكار للمتناظرة هي الموجودة في الكورنثيين 3: 16 ('هيكل' 'مكان وجود' الإله- قارن ذلك مع الرسالة XLI)
تيموثاوس، 6:10، 'لأن محبة المال أصل الشرور'. ايوب، 1:21 'عرياناً خرجتُ من بطن أمي، وعرياناً اعودُ إلى هناك. الربُّ اعطى والربُّ اخذ'. الرومانيين، 12: 5و10 ('هكذا نحن الكثيرين جسدٌ واحدٌ' و'وادّين بعضكم بعضاً بالمحبة الأخوية'... الخ). الأعمال 17:29 (لا ينبغي أن نظن أن اللاهوت شبيه بذهب او فضة). العبرانيين، 4:13 (وهي مميزةٌ افكار قلب المرء ونياته... وليست خليقةٌ غير ظاهرة أمامه) قارن مع الرسالة LXXXIII). متى، 5:45 (يُشرقُ شمسهُ على الأشرار [أيضاً]). و أفسس، 5:1 (كما هي مترجمة في New English Bible): (قلّدوا، حاولوا أن تكونوا كالإله). وهذه التشابهات لا تقدم في واقع الأمر ادلة حقيقية على أن سينيكا تأثر ببولس الرسول أو بالعبيد المسيحيين في منزله.

أنها عطات نفسها. والجوع الذهني لدى الجماهير في عصره لم تشبعه الفلسفة، بل طوائف إيزيس وميثرا والمسيحية.

في العالم القديم، إذاً، وبمعزلٍ عن إحياء سينيكا للفلسفة في الأدب اللاتيني، فقد «رَوحَنَ وأنسَنَ»[39] الرواقية. ماذا عن سينيكا والفلسفة الحديثة؟ هذه الأخيرة – على أقل تقدير في جامعاتنا الناطقة بالإنكليزية – تندفعُ منذ زمن في اتجاهٍ كان سينيكا سيستنكره بالتأكيد، إذ ما كان سيفهمُ الانتباه الذي توليه هذه الفلسفة إلى اللغة العادية، وبعض رسائله (مثلاً الرسالة XLVIII) توضحُ أن كُتبت جراءَ نفاد صبره من الفلاسفة (والرواقيون غير مستثنين منهم) الذين يراهم يحطّون من قدر الفلسفة عبر إهدار الوقت في الأحاجي اللغوية والمناكفة المنطقية الفارغة. ولكن علاوة على ذلك، فقد كان سيستنكرُ الرأي الذي قبله معظم الفلاسفة، صراحة أو ضمنياً، في النصف الأخير من القرن، وهو الرأي القائل أنْ ليس من شأن الفلسفة تحويلُ الناس إلى أشخاص أفضل، وسيعتبره بمثابة هروب أو خيانة. إن إيمانه الضخم بالفلسفة كسيدة للحياة متجذرٌ في اعتقاده بأن هدفها هدفٌ عملي هو علاج الأرواح، لإحلال السلام والنظام في عقول الناس المحمومة التي تطاردُ الأهداف الخطأ في الحياة. «ما نقوله يجب أن يكون ذا فائدة، وليس ممتعاً وحسب».[40] حتى التبصّرُ حول طبيعة الكون ومعناه شيئان ثانويان في أهميتهما، فهما شيئان قد يعمل عليهما الفيلسوف، أو لا يعمل فالأمر عائد له، في أوقات الراحة. على كلمات الفيلسوف (كما يقول في زماننا معتنقو مبادئ كنيسة الأصدقاء

39. حسب تعبير احد مترجمي سينيكا الدكتور JOHN W. BASORE.
40. الرسالة LXXV. قارن 'الفلسفة تعلمنا أن نفعل لا أن نتكلم' (الرسالة XX).

«كوايكر» (Quaker) أن «تتحدث عن حالتنا». وإن ملاحظة هنري فيلدنغ (بأن ليس هنالك الكثير من الناس الذين وضعهم «مفرطٌ في الرخاء، أو في البؤس»، بحيث أنهم أكثر حكمة، أو أكثر حماقة، من أن يستفيدوا من قراءة سينيكا) لهي مديحٌ يتجاوز اعتبارَ كتاباته «ذات فائدة» للأجيال اللاحقة، بل إنه يرى أيضاً أن الفيلسوف لا يزال يعتبرُ شخصاً من المفيد الرجوع إليه من أجل النصح أو المواساة. بالنسبة إلى سينيكا، كما تظهر الرسالة XC وغيرها بوضوح، فهو يرى أن الفيلسوف والحكيم هما الشخص نفسه.

وسواءٌ أما زال من الممكن الاستفادة من رسائله كمرشد نحو الحياة الراضية أم لا، فمن المستحيل قراءتها دون الانتباه إلى كثرة الأفكار السابقة لأوانها فيها – عن العروض في الأرينا على سبيل المثال [الحلبة الرومانية، حيث القتال حتى الموت من أجل المتعة]، أو عن معاملة العبيد. إن إيمانه الضمني بمساواة البشر وأخوَّتهم بغض النظر عن حواجز العرف والطبقة والرتبة، هو إيمانٌ أعاد إحياءه من الأيام القديمة للرواقيين الأوائل، وقد أدّى إلى تحسنٍ عظيمٍ في الوضع القانوني للعبيد. وإلى جانب شرحه موقفه المذهل – حسب معايير زمنه – نحو العبيد المذكور في الرسالة XLVII، فإن هذا الإيمان كان أيضاً جذمور فكرة القانون الطبيعي، القانون الذي كان يُعتَقَدُ أنه يتجاوز كل الحدود القومية، ويشكل أساساً لشرعية القانون الدولي. هذه العوامل من الرواقية قدمت إسهامات ليست صغيرة ولا هي غير مباشرة للثورتين الفرنسية والأميركية.

سينيكا والأدب

«رسائله وكتاباته الأخرى»

«سينيكا» كما يقول لنا كوينتيليان[41]، «أعملَ قلمه في كل ما يمكن أن يكون موضوعاً للدراسة: خطابات، قصائد، رسائل، حوارات، وكلها عاشت». أكثر هذا قد ضاع منا، ومن ضمنه خطبه (السياسية والتحقيقية)، وسيرةُ والده، ومقالات أو أطروحات عن الزواج والخرافات ومواضيع أخرى متعددة، معظمها عِلمي.

الأعمال التي بقيت (إلى جانب قصائد قصيرة أو «إبيجرامات» [قصائد قصيرة تحتوي حكماً طريفة، وأحياناً ملاحظات ساخرة] يُشك في نسبتها إلى سينيكا أحياناً) هي على نوعين: أولاً الرسائل والمقالات الفلسفية، ومن ضمنها أطروحات مثل عن «الحياة السعيدة» و«عن قصر الحياة» و«الغضب» و«الرحمة» و«مشكلات في العلم الطبيعي»، و«التعزيات» الأدبية التي كتبها إلى أشخاص في حِداد على موتاهم. وثانياً

41. [Marcus Fabius Quintilianus (35-100 م)، كاتب ومعلم روماني عُني بدراسة فن الجدل. بلغ تأثيره أوجه في أوروبا عصر النهضة]

التراجيديات، والتي هي على الأغلب لم تُعرَض على الإطلاق وكُتبت كي تُقرأ أو تتلى على حلقة صغيرة نسبياً.»[42]

وتشكلُ المئة وأربع وعشرون رسالة التي كتبها إلى لوكيليوس شيئاً جديداً تماماً في الأدب. لأن هذه الرسائل، وهي عمله الأكثر بروزا ونجاحاً، تجعل سينيكا مؤسس المقال، إن كان يصحُّ منحُ هذا اللقب لأي كان. فكما قال فارنسيس بيكون للأمير هنري في إهدائه لمقالاته الخاصة: «الكلمة متأخرة، ولكن الشيء قديم. لأن رسائل سينيكا إلى لوكيليوس، إن فهمها المرء جيداً، ليست إلا مقالات، أي: تأملات متفرقة، على رغم اتخاذها هيئة رسائل». إن الرسائل الأخلاقية هذه مقالاتٌ متنكرة، وقد قيل عنها[43] أنها رسائل حقيقية جرى تحريرها للنشر. والأرجح أنها كانت معدة للنشر منذ البداية، وجرى توزيعها فردياً قبل النشر بفترة. ولم تصل إلينا أي إجابات على رسائله.

يتراوح طابعها بين النقاش الحيوي، ولكن ليس السوقي، إلى الأطروحات الأكثر جدية، وأحياناً ما ترتفع إلى درجاتٍ أعلى،[44] ولكنها تبقى غير رسمية بشكل عام. و«التعاليم» فيها كريمة في اختياراتها، فالرسائل الثلاثون الأولى تحتوي جميعاً على اقتباساتٍ من، أو إشارة إلى، كتابات مدرسة فلسفية منافسة، الأبيقورية. إن الاستفسارت أو

---

42. ثمة مناقشة عامة لعيوب سينيكا الدرامية ومسألة قابلية أدائها في مقدمة الترجمة التالية: Four Tragedies and Octavia, E. F. Watling (Penguin Classics).

43. انظر على سبيل المثال: Duff, J. Wight, Literary History of Rome in the Silver Age.

44. هنالك مقاطع معزولة تظهر كتابة مذهلة، شاعرية أو لاذعة، على سبيل المثال الرسالتان XC و CIV.

الاعتراضات الخيالية (وهي غالباً لاذعة في نبرتها) والتي ترد على لسان المُرسل إليه أو أحد آخر يخصه، والوعظُ الملحّ المتكرر لتحسين النفس، يقترحان أن الجو العام جو نقدي. بينما البوحُ عن شخصية الكاتب نفسها، واختيار المواساة والصداقة ثيماتٍ متكررة، يخدمان في المحافظة على بنية الرسالة. كثيراً ما تُستخدم الحوادث الشخصية أو المحيطة مناسبةً لافتتاح التأمل الجدي في الشؤون المجردة، أو مقدمةً لها. ثمة أيضاً استنكارات شرسة لأساليب الحياة المحيطة بالكاتب، خصوصاً بين الأرستقراطية الرومانية الضجرة والباحثة عن المتعة. ثمة مكان للثقافة – بأسلوبٍ من المداخلة – في نقاشات موزونة عن مشكلات فلسفية أو أخلاقية تقليدية،[45] أو في تطور المفاهيم حول الشعر مثلاً، أوالظواهر الفيزيائية، والأسلوب الأدبي.

45. على سبيل المثال في الرسائل: XC، XCIV، XCV. والاثنتان الأخيرتان – اللتان تناقشان سؤال ما إذا كان الناس، من أجل التمكن من معرفة ما الصحيح فعله في موقف معين، يحتاجونَ 'عقيدة' عامة أو عدداً كافياً من 'المعتقدات'، أو الاثنين – تكفيان، في الواقع، للإجابة بذاتهما على النقاد الذين قالوا أن سينيكا عاجزٌ عن متابعة نقاشٍ مستمر ومتصل ومتناسق. وقد يقتبس المرء هنا صمويل كولريدج: 'تجد عنده شعاراً من كل طائفة في الدين، ولكن سينيكا لا يُمعن تفكيره في شيء'. ويقول كوينتيليان: 'كفيلسوف، هو رثٌّ إلى حد بعيد، على الرغم من أنه ناقدٌ بليغٌ للأخطاء الأخلاقية'. (in philosophia parum diligens, egregius tamen vitiorum insectator, Institutio Oratoria, X:I.I29)

أسلوبه

للأسلوب أهمية كبرى لدى سينيكا، وذلك على الرغم من إدانته[46] للذين يهتمون بطريقة كلامهم أكثر مما يهتمون بمعاني قولهم، فسينيكا مثالٌ صريح على الكاتب الذي يعنيه الشكل بقدر المضمون. وعند الكتّاب أمثاله (الذين نسميهم عادة العصر الفضي من الأدب اللاتيني)، فقد أدى سعيُهم المستمر خلف رصانة التعبير وأصالته إلى نشوء أسلوب آسرٍ، ولا يسهل استيعابه.

هنالك أسباب وراء نشوء هذا الأسلوب «المدبب». مع انتهاء الجمهورية، وتوالي أباطرة شكوكين، فقد تناقصت كمية المواضيع التي يمكن الحديث عنها بدون الخوف من بطشهم، كما لم يعد للجدل قيمة فعلية بصفته ضرورياً للحصول على وظيفة في الحياة العامة. ووجّهَ الرومانيُ المرتاح (الذي بات مفرطاً في رخائه) تدريبَه نحو الأهداف الأدبية أكثر من السياسية، والوسيلة إلى الروعة الأسلوبية الجديدة كانت الجدل. كل هذا شجعته موضةُ إلقاء قراءات علنية لأعمال المرء، والتي كان النجاح محكوماً فيها بقدرة كل جملة من النص على استفزاز تصفيق

46. في الرسالة CXV (مثلاً quaere quid scribas, non quemadmodum) 'فكر في ما تكتبه وليس في كيف'، وفي الرسالة C وغيرهما.

المعاصرين ومعاصري معاصراً من مدارس الجدل كان الإعجاب بالكلمات المرنة في شاعريتها أحياناً، خصوصاً لدى فرجيل، وصياغات تعبيرية شعبية تشبه الشعر أكثر من النثر.

وإلى جانب التوجه الجارف نحو البلاغة والاختزال 'الإبيجرامائي' (بالتضاد جداً مع أسلوب سيسرو في القرن الذي سبقه) ظهر أيضاً انغماسٌ في التعبيرات العامية. فسينيكا يستعمل عبارات شعبية وتعابير يومية (وهي ممارسة نادرة لدى الكتاب الرومان، إلا عندما يكتبون للمسرح الهزلي أو عن المواضيع التقنية)، كما طوّر عن قصد أسلوباً نقاشياً بسيطاً، وهو يوائمُها بشكل ما مع لوازم الأدب، حتى في الرسائل، والتي تبدو لنا مكتوبة بعناية منمقة. إن استغلاله للتضاد والجناس والتناغم وكافة أنواع اللعب على الكلمات و«الباردوكسات» والتناقضات والتقابل، والاستغناء عن حروف العطف، واستخدام حروف الجر في مواضع غير اعتيادية، كل ذلك يسهم في الهدفين المترافقين: الاختصار والبريق.

تبدو نتيجة هذا الأسلوب طبيعيةً في النص اللاتيني أكثر بكثير من الإنكليزي، ولكنها تبقى قادرةً على ترك القارئ «مرتبكاً ومتعباً».(47) كل ثراء الإبيجرام وبراعة التصوير لا يمنعاننا من الإحساس بأن الجمل كثيراً ما «تكرر الفكرة نفسها بأثواب متغيرة باستمرار، مرةً تلو الأخرى»، كما يقول فرونتو(48) منتقداً إياه بعد قرن. وهذا النفور، على ما يبدو، من قول ما

---

47. Duff, J. Wight, Literary History of Rome in the Silver Age.

48. [Marcus Cornelius Fronto (100-؟16 م)، دارس للنحو وعلم الجدل، كان مدرس الإمبراطور الرواقي ماركوس أوريليوس في طفولته]

لديه والانتهاء من أمره بدلاً من الكتابة بلا كلل لتصنيع جُمل أو حكَم، يدفع أحياناً بالقارئين الأكثر حداثة نحو نفاد الصبر. هنالك قول مأثور لتوماس ماكولي في رسالة إلى صديقه: «لا أستطيع تحمل سينيكا... أعماله مبنية من الشعارات. بالكاد ثمة جملة لا يمكن اقتباسها، ولكن قراءته بشكل مباشر كأن تشرب «صلصة» سمك الأنشوفة الكثيف وحدها». كوينتيليان[49] يعتبر أن سينيكا، الذي يحترمه ويقدره في المجمل، قد أضعفَ من قوة تعاليمه بسبب أسلوبه في الكتابة، وتساءلَ آخرون إن كان أسلوبه غير لائق بموضوعه.

من المثير للاهتمام الاستماع لحديث كوينتيليان عن صراعه لإبعاد طلابه عن نماذج مثل سينيكا (الذي حسب تعبيره: «وحده من بين كل المؤلفين كان موجوداً على رف كل يافع في ذلك الوقت»). إذ بصفته أكاديمياً يمثل الأورثوذكسية وعودةً إلى أسلوب سيسرو القديم، لم يستطع كوينتيليان أن يضعَ ختم القبول على كاتبٍ تُظهر كتاباته حسب رأيه «درجةً من الفساد تزيدُ من حدة خطورتها جاذبيةُ الأخطاء التي تملؤها»، وهو أيضاً أقدم على الهرطقة القائلة بأنه «ليس ثمة قواعد ثابتة للأسلوب».[50]

49. Institutio Oratoria, X:1.125-131 تشكل تقييماً شاملاً ومثيراً للاهتمام عن سينيكا، وذلك من قبل مُعلم ودارس مشهور ونشيط مات بعده بثلاثين عاماً وحسب. ويمكن أن نجد تعليقاً قصيراً من أواخر القرن السابع عشر على أسلوب سينيكا في كتاب جون أوبري (Brief Lives): 'اعتاد الدكتور [رالف] كيتل [Ralph Kettel: رئيس كلية الثالوث الأقدس في أوكسفورد عام في عام 1599] أن يقول: "سينيكا يكتب كما يتبول خنزير" أي باندفاع'.

50. Oratio certam regulam non habet، لأن للوضة أو الاستعمال (consuetudo) تُغير قواعد الأسلوب باستمرار (الرسالة CXIV).

تأثيره وجاذبيته

بينما استمر الدارسون ومعلمو المدارس في استنكار سينيكا[51] في القرن التالي، فقد انجذب المسيحيون المبكرون إلى هذه الروح الرقيقة بين الكتاب الوثنيين، والتي شعروا أنهم يستطيعون تبني الكثير من آرائها وأفكارها. جُمعت كتاباته واقتبس عنها كثيرٌ من المسيحيين المبكرين أمثال جيروم ولاكتانتيوس وأوغستين. وترتليان يقول عنه Saepe Noster (واحد منا في معظم الأحيان) والرسائل الموجودة المزعومة بين سينيكا وبولس الرسول (التي كتبها أحد المسيحيين على الأغلب، ولكن ساد الاعتقاد بأنها حقيقية حتى عهدٍ قريب) جعلت جيروم يضمه إلى فهرست القديسين الذي كتبه، ولا شك في أن هذه الرسائل تفسر سمعته في القرون الوسطى، بالضبط كما ترسَّخَ اسم فرجيل في العالم المسيحي بسبب النبوءة المزعومة لولادة المسيح في قصيدته الرعوية [Ecologues] الرابعة.

وحده سيسرو لربما حظي بصيت أكبر في القرون الوسطى، وإلى حين إعادة اكتشاف أرسطو في أوروبا الغربية، بقي عمل سينيكا «العلمي» الأساسي، Naturales Quaestiones ، هو المرجع الذي لا طعن فيه في

51. كمثال آخر: أولوس جيليوس، الذي وصف لغته بأنها 'مبتذلة وعامية' (vulgaria et protrita)، وتعليمه بأنه ' ذو طبيعة عادية جداً وشعبية' (vernacula et plebeia).

أي من موضوعاته. دانتي وتشاوسر وبترارك كلهم كانوا معجبين جداً به واقتبسوا من كتاباته.[52] ونشرت الطباعة تأثيره، وطُبعت النسخة الأولى من الرسائل حوالى عام 1475 في روما وباريس وستراسبورغ. وكان إراسموس[53] أول من أصدر نسخة محققة (في 1515) وكان عمل جان كالفين الأول هو نسخة صدرت عام 1532 من De Clementia، وهو مقال كتب في الأساس لتشجيع نيرون على الرأفة، وهو في الحقيقة الإلهام وراء الكثير من خطاب 'قيمة الرحمة' في مسرحية تاجر البندقية.

ميشيل دي مونتين[54] كان أول كاتب من القامات الأدبية الحديثة الكبرى التي استعارت من سينيكا، وهو أوضحهم في استعارته، فيقول إيتيان باسكويه في سياق إعجابه بمونتان: «أما مقالاته، والتي أعتبرها من الروائع، فلست أملكُ كتاباً أعزه أكثر منها. دائماً ما أجد فيها ما يسعدني. إنه سينيكا فرنسي».

ويمكن لنا أن نقتبس المديح في أخلاقيات سينيكا من مصادر متعددة. فينسب إلى جون ساليزبري قوله عنه: «مع الاعتذار من كونتيليان، فليس

52. يقتبس عنه دانتي باستمرار ويصنفه (مع سيسرو) بعد فرجيل وحسب في جحيم الكوميديا الإلهية. وشاوسر، في Parson's Tale، يصنفه مع بولس الرسول، وسليمان، والقديس أوغستين. بترارك نمذج رسائله على رسائل سينيكا، والتي كان يعرفها عن كثب. وأسّسَ كُرسي بروفيسارية لسينيكا في جامعة ياتشنزا في إيطالية.

53. إراسموس جمع العديد من الاقتباسات من أعمال سينيكا النثرية في كتاب عُرف باسم Adagia والذي يُعتقد أنه مصدر معظم التقليد والاستعارات الموجودة لدى الكتاب الإليزابيثيين.

54. (Essays, I:26) Montaigne مونتين يقول: 'لم أمسك في حياتي كتاباً واحداً حقيقياً لكاتب باستثناء بلوتارش وسينيكا استقي منه بلا نهاية، فأغرف إلى الأبد وأفرغ جرتي مثل بنات دانوس (للمعاقبات في العالم السفلي 'هاديس' بأن يملأن جرة تُسربُ).

ومارك أنتوان موريت Marc Antoine Muret، أستاذُ مونتين، كان أيضاً معجباً مخلصاً بسينيكا ومحرراً لكتاباته. وصهر مونتين، جفري دي لا شازان Geofrey de la Chassaigne ترجم له. وليبسيوس Justus Lispius، الذي حاضر عن سينيكا وحرر له في عام 1605، كان من مراسلي مونتين.

ثمة سوى القليل من الكتاب غير المسيحيين، إن كان ثمة غيره أصلاً، الذين يمكن تطبيق كلماتهم وأفكارهم على كل ضروب المسائل العملية». وإميرسون يقول: «اصنع كتابك المقدس الخاص. اختر واجمع كل الكلمات والجمل التي وجدتها في كل قراءاتك بليغةً كنفير الانتصار من شكسبير وسينيكا وموسى ويوحنا وبولس». وأما بودلير فهو يضعه في صحبة أعلى شأناً في مقاله De l'essence du Rire [عن جوهر الضحك] حيث يبدو أنه في أحد المقاطع ينسب القيم الحضارية الحديثة إلى [مجيء يسوع، وبمساعدة أفلاطون وسينيكا] « la venue de Jesus, platon et seneque aidant». ونجد إراسموس يكتب في رسائله إلى بيتر جيليس (بكلمات جيمس أنثوني فرودي): «بلطفٍ أخوي، ناصحاً إياه بأن الحياة قصيرة، وأن يدرس أفلاطون وسينيكا، وأن يحب زوجته، وألا يكترث برأي العالم». ويقول جون هارينجتون الابن الروحي للملكة إليزابيث الأولى: «كانت معجبة جداً بنصح سينيكا السليم» و«كنتِ أرى فيها ترجمةً لنصائحه».[55] وعلى الرغم من أن الأدباء الكبار وقع جلُّ إعجابهم على رسائله، فإن مسرحياته، على كل علاتها، هي التي كانت صاحبة التأثير

الأكبر في الأدب الأوروبي. «إن شئت أن تزور ذكرى سينيكا، فابحث في خشبات المسرح التراجيدي في انجلترا وفرنسا وإيطاليا».

العصر الإليزابيثي المتأخر إلى أوائل القرن السابع عشر كان ذروة نفوذ سينيكا ككاتبٍ مشهورٍ ومُقَّلدٍ بين الشعراء الغنائيين وكتاب المقالات

55. «كانت ترغب بتهدئة مزاجها المتعكر بالقراءة في الصباح، بعد أن يكون الاجتماع مع المستشارين قد أثار أعصابها، أو أثرت مسائل أخرى في حضورها النبيل. كانت معجبة جداً بنصح سينيكا المفيد عندما تغرب سكينة الروح، وكنت أرى فيها كثيراً مما هو ترجمةٌ لنصائحه».

وبين كتاب الدراما أيضاً.[55] ودامت شعبيته بعض الوقت في فرنسا، حيث
كان من معجبيه: ديكارت بيير كورني، جان لا فونتين، نيكولا بوسان،
روسو، دينيس ديدرو، بلزاك، شارل سانت-بوف. ولكن اسمه اختفى
في بريطانيا، ومرَّ زمانٌ طويل بقيت فيه الآراء التي تشابه رأي توماس دي
كوينزي استثناءً: «لم تلد الوثنية أستاذاً أنبل في الفكر، ولا أستاذاً أبرع في
التأليف- حتى بعد أن تفعل فيه فذلكة النقد أسوأ ما عندها». وحديثاً
وحسب أعيد إلقاء الضوء عليه مجدداً كمفكر أو درامي.

والشمس تطلع اليوم على تمثال رائع له بُني في قرطبة عام 1965،
ووصلت مسرحياته مرة اخرى إلى خشبة البلدان الغربية.

---

56. بين عامي 1595 و1602 تعاظمت شعبيته حتى فاق شعبية سيسرو، ونفوذه يمكن رؤيته لدى جون ليلي [John Lyly 1553-1606 كاتب وشاعر إنجليزي]، وتوماس ناش [Thomas Nashe (1567-1601) مسرحي وشاعر، وكاتب ساخر إنكليزي]،وصمويل دانيال [Samuel Daniel (1562-1619) شاعر ومؤرخ إنكليزي]، وتوماس لودج [Thomas Lodge 1558-1625] (مُترجمةُ إلى الانجليزية)، وفرانسيس بيكون[(1617-1621 فيلسوف ورجل دولة إنكليزي من اهم أعلام فلسفة العلم الحديث]، وروبرت هيريك [Robert Herrick (1591-1674) شاعر ورجل دين إنكليزي] ، وجون دون [John Donne (1572-1631) من أهم الشعراء الميتافيزيقيين] (الذي يدعوه 'الأخلاقي العظيم سينيكا')، وبين جونسون [Benjamin Jonson (1572-1637) شاعر ومن أهم المسرحيين الإنكليزيين] وهنري فون [Henry Vaughan (1621-1695) شاعر ومترجم وطبيب من ويلز]، وابراهام كاولي [Abraham Cowley (1618-1667) شاعر إنكليزي]، وروبرت بورتون [Robert Burton (1577-1640) عالم إنكليزي يشتهر باطروحته عن الميلانخوليا]، وبول بيتر روبنز [(1577-1640) رسام فلمنكي]، وجون درايدن [(1631-1700) الشاعر والناقد والمترجم المشهور. كان أكبر قامات عصره الأدبية في إنكلترا]، وصمويل بيبس [Samuel Pepys (1633-1703) سياسي وبرلماني إنكليزي]، واليكساندر بوب [Alexander Pope (1688-1744) من أهم شعراء عصره إن لم يكن اهمهم ومترجم، أعماله الشعرية الساخرة لم تزل تلقى شعبية حتى اليوم]. ومن الأمثلة التي توضح تأثير سينيكا العملاق للمغيب في الأدب البريطاني الإليزابيثي، لدينا الكتابان:
G. Williamson's The Senecan Amble (Chicago, 1951)
R. G. Palmer's: Seneca's De Remediis Fortuitorum and the Elizabethans (Chicago, 1953)

ملاحظة عن الترجمة والنص

الترجمات، وأهدافها ومنهجيتها (إذا ما كانتا مغامِرَتين إلى حد الإفصاح عن نفسيهما) نادراً ما تكون أهدافاً صعبة للنقد. ولكن مهما اختلف أهل الأدب في ترجمة كاتب كلاسيكي، فإن القارئ ما عاد يستطيع أن يرضى بالنقل الحرفي – على الطريقة القديمة المملة المتبعة على مقاعد الدراسة – ولا بإعادة الصياغة المُلهمة – مهما كانت النتائج جذابةً أحياناً عندما يترجم شاعرٌ شاعراً. في مكان ما بين هاتين الطريقتين تقع الترجمة المثالية، والتي أعرِّفُ هدفها بأنه إعادة الإنتاج الدقيق للأصل دون حذف أو إضافة، والاحتفاظ بصوته (شكله، أسلوبه) كما أيضاً بمعناه (محتواه، مغزاه).

تواجه إعادة الإنتاج مشكلات صعبة، إلا في حالة النثر الكلامي أو العامي. فالمترجم يشعر بأن محاولته يجب أن تأخذ حقها من التجربة، حتى في حالة الشعر، مع مزاياه الصعبة جداً كالوزن العروضي. ولكن النتيجة لا يصح أن تكون إنكليزية غير طبيعية أو مختلقة إلى حد أن القارئ لا يستطيع هضمها (إلا إن كان الأصل نفسه يحاول بوضوح الوصول إلى

ذلك). وهذا الاعتبار قد لطَّفَ من شعوري بأن الاختصار أو الجدل أو عناصر أخرى من أسلوب سينيكا يجب أن تُقلد بدقة.

فعندما نصل إلى آخر المطاف، الترجمة عملٌ أدبي ينبغي أن يكون قابلاً للقراءة. وكي نجنّب القارئ شعوره بأنه يقرأ ترجمة، فإننا نعيد مراجعة كل الكلاسيكيات الخالدة مرة كل نصف قرن تقريباً. إن المبدأ نفسه يقترح أن الغوامض (التلميحات، مثلاً، التي لا ينتبه إليها ويفهمها إلا عارف باللاتينية) نستطيع توضيحها أو إزالتها عبر توسعٍ بسيطٍ في النص، وقد اعتمدت هذه الممارسة كثيراً بديلاً عن وضع حاشية وملاحظة تشتت اهتمام القارئ.

حذفت الافتتاحية والخاتمة الرسميتين لكل رسالة (Seneca Lucilio Suo Salute وVale).

وإن كان مترجمٌ سابق قد صاغ عبارةً تُقنع المرء (رغماً عنه) بأنها لا يمكن تحسينها، فمن السخف اختراع عبارة أخرى أقل دقةً لمجرد التجديد، خصوصاً إذا كان المرء يؤمن بأن هنالك دوماً ترجمة واحدة فضلى للغة المترجم وزمنه. وأنا مدين في هذا الشأن وفي عدد من الجمل لجومير وباركر، المترجمين اللذين أنتجا نسخة مطبعة لويب (1917-1925) وكلارندون بريس (1932) على التوالي.

وقمتُ بمواءمة الترجمة، التي هي مبنية في الأساس على نص بيلترامي (1931)، مع نص (Oxford Classical Text) (1965) الذي هو عمل السيد إل. دي. رينولدز، وأنا ممتن له لمساعدته في عدة نقاط صعبة. وأتوجه بالشكر أيضاً لأصدقاء كثر قد لا يتذكرون مساعدتهم لي أو

اهتمامهم أو تشجيعهم في أوقات مختلفة، ومن بينهم مدرسيّ السابقين تي. سي. ستينتون والسيد جي. دي. بالسدون، اللذين أنقذاني بنباهتهما من عدد من الهرطقات في أجزاء من هذا العمل. والشكرُ واجبٌ أيضاً للدكتور ميشيل جرانت لسماحه بإعادة طباعة ترجمته لرواية موت سينيكا التي كتبها تاسيتوس من كتابه The Annals of Imperial Rome (Penguin books, 1956).

من بين رسائله الـ124 إلى لوكيليوس يجد القارئ حوالي 40 في هذا الكتاب. ومن يرغب في الإطلاع على الرسائل كاملة يستطيع أن يجدها مطبوعة (مع النص اللاتيني) في ثلاثة مجلدات في سلسلة Loeb lassical library بترجمة ار. ام. جومير القديمة لرسائل سينيكا (London and Cambridge, Mass., 1917 -1925).

قد يُسأل ما هي المعايير التي اتبعتها في اختيار الرسائل أو حذفها. الأول كان إثارتها للاهتمام: من حيث تبوح بفلسفةٍ وتسهم في رسم صورة للرجل في عصره. والثاني كان تجنب التكرار غير الضروري لمواضيع أو ثيمات معينة، وذلك لدى كاتب أخلاقي يميل نحو التكرار. ولأسباب مشابهة فقد قصّرتُ من رسالة أو رسالتين عبر حذف بضعة مقاطع (في مواضع أشرت إليها). دفاعي الأخير الذي أقدمه هو دفاع الأنثولوجيا، أو اعترافها بالأحرى، بأن الاختيار كان شخصياً.

ملحق بالمقدمة

من الصعب هنا مقاومة الاقتباس من الملحق بالإصدار الذي طبعه السير روجر لسترانج في 1673، بعنوان Seneca's Morals by Way of Abstract، (وليس ذلك بالطبع محاولة لإسكات النقد!):

إن رجلاً آخر في مكاني لربما يقدم لك عشرين اعتذاراً، عن نقص مهارته، وضعف مقاربته، في إنتاج هذا الكتاب، ولكن هذه حماقات رسمية ومدرسية، ومن يحسبُ نفسه غبياً في نفسه سوف يثبت غباءه ولاشك في المطبعة أيضاً. إن هذا المختصر، في طبعته على حالها، مقدمٌ إليك مع الترحيب والسعة، وإني لآسف أنه ليس أفضلَ حالاً، وأسفي من أجلك، ومن أجلي أيضاً: لأنه لو كان مكتوباً بروعة الروح الأصل لكان إحدى أعظم الهدايا قيمة التي يستطيع فردٌ أن يمنحها للمجتمع:

الكتب والأطباق تتشارك في هذا المصير نفسه، فلا واحدٌ منها يرضي كل الأذواق. وفي الواقع هذا شيءٌ لا يجب أن نتمناه أصلاً أو نتوقعه، لأن التصفيق بالإجماع الكوني ثلثاهُ على الأقل فضيحة. ولذلك، وعلى الرغم من أنني أسلم هذه الأوراق إلى المطبعة، فإنني لا أدعو أحداً إلى قراءتها، ومن يقرأ ويستنكر فهذا ذنبه. ختاماً، وكوني كتبتُ العمل لنفسي بشكل

رئيسي، فهو يتفق جداً مع تفكيري وبنيتي، ومع ذلك إنني أسعدُ بأي احدٍ يودُّ أن يشاركني فيه، وهو على الرحب والسعة. ولكن فليحمل معه، عندما يدخل، الاعتبار التالي: وحده الضيف غير المهذب هو الذي يجلسُ إلى مائدة أحدهم ومن ثم يناكفه في طعامه.



الرسائل

الرسالة (I)

«القراءة المُمعنة والفقر السعيد»

حسب ما تقوله وما أسمعه، أرى أنك تبشِّرُ بما هو عظيم. أنت لا تُهرَعُ من مكان إلى آخر وتقلقُ نفسك بنقلةٍ بعد أخرى. إن انعدام السكون من عوارض العقل المريض. لا أرى برهاناً أفضل على العقل المنظم جيداً أكثر من قدرة الرجل على التمهّل في مكانه وقضاء بعض الوقت بصحبة نفسه.

ولكن كُن حذراً من ألا يوجد أي عنصر مناكفة أو تفكُّك في طريقة القراءة التي تصفها: هذه القراءة لعدد كبير من المؤلفين المتنوعين والكتب من كل صنف. إذْ يجبُ أن تُقيمَ طويلاً في صُحبة الكُتّاب ذوي العبقرية غير المشكوك فيها، وأن تستقيَ منهم التغذية إن كنت تريدُ فائدةً تدومُ في عقلك. أن تكون في كل مكان يعني ألا تكون في أي مكان. إن الذين يمضون حياتهم مسافرين في الخارج ينتهي بهم الحالُ بأن يجدوا الضيافة في الكثير من الأماكن، ولكن لا يجدون فيها الصداقة الحقيقية. والشيء نفسه صحيحٌ ولا بد في حالة الذين لا يقْدِمون على التعرف الوثيق إلى كاتب

عظيمٍ واحد، بل يتنقلون من واحدٍ إلى آخر في زيارات عابرة للجميع. إن الطعامَ الذي يُتقيأ فورَ أكله لا يُصبح جزءاً من الجسد ولا يفيدُ في شيء، ولا شيءَ يعيقُ التعافي مثل تغيير العلاج باستمرار، فالجرحُ الذي يصبح عيّنةً لتجربة أنواع المراهم لا يندمل أبداً، والنبتة التي تُنقل باستمرار لا تستوثق جذورها. ليس ثمة ما هو مفيدٌ إلى حد أنه يخدمك بمجرد المرور فيه. كثرة الكتب تعرقل طريقَ المرء. لذلك، وإن كنت عاجزاً عن قراءة كل ما تملك من الكتب، فاكتفِ بأن تملك كل الكتب التي تستطيع قراءتها. وإن قلت: «لكنني أرغب في تصفح كتب مختلفة في أوقاتٍ مختلفة»، فإنّي أجيبك بأن تذوقَ طبقٍ تلو الآخر دلالةٌ على معدة مفذلكة، وحيثُ يكون الطعام متعدداً ومختلفاً في أصنافه يؤدي إلى فساد النظام، لا إلى تغذيته. فاقرأ على الدوام، إذاً، الكُتّابَ المُجرَّبين، وإذا شعرتَ في أي لحظةٍ بأنك تحتاج إلى أن تغيّرَ كاتباً ما، فارجع إلى الكُتَّاب الذين قرأتهم من قبل.

كلَّ يومٍ، أيضاً، اسعَ نحو ما يساعدك على مواجهة الفقر أو الموت أو العلل الأخرى. بعد أن تمر على أفكارٍ عديدة، اخترْ واحدةً تهضمها بعمق على مدى اليوم. وهذا ما أفعله أنا نفسي، فمن كل الأجزاء التي أقرؤها أتمسَّكُ بواحدة. فكرتي اليوم هي شيءٌ وجدته لدى أبيقور[57] (أجل، إنني

57. فيلسوف يوناني مشهور (حوالى 342-271 ق.م)، مؤسس للمدرسة الأبيقورية وهي المنافسة الأكبر للرواقيين [ومنا هنا مزاح سنيكا بأنه حول 'معكسر الأعداء']، اتبع أبيقور في الفيزياء رأي ديموقريطس القائل بالذرات، واعتبر الإدراك بالحس أساس للمعرفة الوحيد. رفض الخرافات، وكل أنواع الخوف من الآلهة أو الموت، بشّر بحياة متقاعدة هادئة، والخير الأكبر في نظره ونظر تلامذة مدرسته هو المتعة (باليونانية hedone) والتي لم يقصد بها الانغماس في اللذات، بل حرية مستقلة من كل الاكتراث. أسس مجتمعه في أثينا يعيش تحت رعايته أبسط أنواع الحياة (فطعامهم مثلاً الخبز والماء) وأكثرها سلميّةً.

معتادٌ على الترحال في معكسرات الأعداء – ولكن من أجل الاستطلاع وليس الانشقاق!). يقول أبيقور: **«الفقرُ السعيد حالةٌ مشرِّفة»**. ولكنه إذا كان سعيداً فهو ليس فقراً على الإطلاق. **ليس الفقيرُ من يملك القليل بل من يلهثُ خلف المزيد**. ما الفرق في كم يقبعُ في خزينة المرء أو في حظائره؟ كم رأساً من الماشية يملك؟ أو كم من المال يستثمرُ بالفائدة؟ إذا كان دوماً يركض خلف ما يملكهُ غيره، ولا يحسبُ إلا ما ينقُصه الحصول عليه حتى الآن؟ وينسى ما يملكه أصلاً؟ أتسألُ: ما هي الحدود القويمة لثروة الفرد؟ أولاً: ما هو ضروريٌ، ثانياً: ما هو كافٍ.

الرسالة (II)

«الصداقة والاعتدال»

لقد أرسلت لي رسالة مع «صديق» من أصدقائك، على حد تعبيرك، وفي الجملة التالية حذرتني من مناقشة شؤونك بأريحيةٍ معه، لأنك لم تعتد مفاتحته فيها بنفسك أصلاً. أي بكلمات أخرى: لقد وصفته بأنه صديق، وأنكرت عليه ذلك في الرسالة نفسها. حسنٌ، إذا كنت تستخدم الكلمة بنوع من المعنى الشائع، وليس حسب معناها الدقيق عندنا [نحن الرواقيين]، أي أنك تقول عنه «صديقي» بنفس المعنى الذي نقول فيه عن المرشحين في الانتخابات أنهم «سادة محترمون»، أو نخاطبُ من صادفناه ونسينا اسمه فنحييه بقولنا: «يا صديقي العزيز»، فلا حرج عليك في ذلك. ولكن إنْ كنت ترى في أي شخصٍ صديقاً ولا تثق به كما تثق بنفسك فأنتَ تقعُ في خطأ فادح، وقد أخفقت في أن تفهم حقاً القوة الكاملة للصداقة الحقيقية.

طبعاً يجب أن تستطيع مناقشة أي شأن مع الصديق، ولكن قبل أن تفعل ذلك ناقشْ عقلكَ في شأنِ الرجل نفسه، فبعد أن تتشكّل الصداقة

يجب أن تثق، ولكن قبلها يجب أن تحكم، وأولئك الذين يخالفون نصيحة ثيوفراستوس[58]، فيحكمون على الرجل بعد أن يصادقوه بدلاً من العكس، يضعونَ الحصان خلف العربة بالتأكيد. فكر ملياً قبل قبولِ صداقة شخصٍ ما، ولكن عندما تقرر أن تقبل، فرحِّبْ به قلباً وروحاً، وتحدث إليه بلا تحفظ كما تتحدث مع نفسك. ولستُ مضطراً أن أخبرك أن عليك أن تحيا بأسلوب لا تملك فيه شيئاً تقوله لنفسك ولا تستطيع أن تقوله بالسهولة نفسها لعدوك. ولكن بما أن الأعراف تقتضي الكتمانَ في مسائل معينة، فإن الأشياء التي تشارك فيها صديقك يجب أن تكون همومك وتدابيرك. اعتبره وفياً، وستجعله وفياً: إن خوف بعض الرجال من الخداع قد علَّمَ الناس أن يخدعوهم، فهم يمنحونهم حق الغلط معهم بفعل تشكيكهم. لماذا عليَّ أن أتحفظ على شيء عن صديق؟ لماذا لا أستطيع أن أتخيل أنني وحدي عندما أكون في صحبته؟

بعض الناس يخبرون أي شخصٍ يلتقونه بأشياء يجب ألا تقال إلا للأصدقاء، فيرمونَ بالهموم من عقولهم على أي أذنٍ تسمع. وغيرهم يَنْفُرونَ من ائتمان أقرب الأصدقاء، بل يمنعونَ حتى أنفسهم – إن استطاعوا – من الوصول إلى الأسرار التي يبقونها عميقاً داخلهم. يجب أن لا نقلّد أياً من هذين. الثقة بالجميع خطأ كما انعدام الثقة بأي أحد (مع أنني أعتبر السلوك الأول هو الأجدر، والثاني الآمَن).

على نحوٍ مشابه، فإن الذين لا يسترخون أبداً، والذين هم دوماً في مزاجٍ مسترخٍ، يستحقون استنكارك على قدم المساواة. لأن المتعة في الهرع

58. Theophrastus فيلسوف يوناني من القرن الرابع ق.م وتلميذ أرسطو.

من مكان إلى آخر ليست صنعة، بل هي ليست إلا طاقةً قلقة في عقلٍ ممسوس. وحالة العقل التي ترى في كل الأنشطة تعباً ليست راحةً حقيقية، بل خمولٌ خَوَّاف. إن هذا يذكرني بشيء قرأته عند بومبونيوس: «بعض الرجال انكمشوا بعيداً في الزوايا المظلمة، حدَّ أن الأشياء التي تلمع في نور الشمس الساطع تبدو لهم غائمة في غشاوة». ما نريده مزيجٌ متوازن من النظرتين: يجب على الرجل النشيط أن يستطيع التروِّي في الأمور، وعلى الرجل الذي يميلُ إلى الاسترخاء أن يكون قادراً على النشاط. **اسألِ الطبيعة، ستقول لك أنها صنعت النهار والليل كليهما.**

الرسالة (III)

«مشابهة الناس، والخوف والأمل»

إني أنظر بسعادة وقبول إلى الطريقة التي تواظب فيها على دراساتك، وتضحي بكل شيء من أجل جهودك الموحَّدة لتجعل من نفسك رجلاً أفضل كل يوم. وأنا لا أحثك وحسب على الاجتهاد في ذلك، بل إنني في الواقع أتوسلك. ولكن دعني أقدم لك هذه النصيحة: امتنع عن تقليد من يشْتَهُونَ إثارة الانتباه - وليس تحسين أنفسهم - عبر أفعال محسوبة لتستثير التعليق على مظهرك أو طريقتك في الحياة عامةً. تجنب اللبس الرثَّ، والشعر الطويل، واللحية الشعثاء، والمقت الصريح للفضة، والنوم على الأرض وكل الأساليب الأخرى لتسويق النفس. إن اسم الفلسفة وحده، مهما كان دربنا فيها متواضعاً، غير محبوبٍ بما يكفي من الأساس: تخيلْ ردة الفعل إذا بدأنا بفصل أنفسنا عن أعراف المجتمع. من الداخل يجب أن يكون كل شيء مختلفاً، ولكن وجهنا الخارجي يجب أن يتواءم مع الحشد. لا يجوز أن تكون ثيابنا مبهرجة، ولك لا يصح أن تكون مهلهلة أيضاً. لا يصح أن نقتني أواني الفضة المزركشة بالذهب، ولكن علينا ألا

نتوهَّمَ أنَّ التخلي عن الذهب والفضة يعني أننا نعيش الحياة البسيطة. فليكن هدفنا طريقةً من الحياة ليست متعاكسة كلياً مع الغوغاء، ولكنها أفضل منها. وإلا فإننا سنُنفِّرُ ونبعد الناس الذين نرغب في إصلاحهم، وسنجعلهم فوق ذلك كارهين لتقليدنا في أي شيء خوفاً من أنهم سيضطرون لتقليدنا في كل شيء. إنّ **أول شيءٍ تعدُنا به الفلسفةُ هو الشعور بالرفقة، بالانتماء إلى الإنسانية وبأن نكون أعضاء في مجتمع**. وأن نكون مختلفين عنهم يعني أن نُخلفَ هذا الوعد. علينا أن نكون حذرين من الأشياء التي نأمل في أن نحظى عبرها بإعجاب الناس، لئلا تجلب علينا السخرية والعداء. شعارنا، كما يعرف الجميع، الحياةُ المنسجمة مع الطبيعة، ومن المنافي للطبيعة أن يُعذِّب المرءُ جسده، وأن يرفضَ معايير النظافة البسيطة ويتعمّدَ أن يكون وسخاً، وأن يتَّبع حمية ليست بسيطة وحسب بل بشعةً ومقرفة. اشتهاءُ الملذات من سمات الحياة البذخة، وبالطريقة نفسها، فإن تجنُّبَ الأطباقِ المعروفة وغير المكلفة من سمات الجنون. الفلسفة تدعو إلى الحياة ببساطة، وليس إلى التوبة عن الدنيا، وليسَ ضرورياً أن تكون الحياة البسيطةُ جلفة. المعيارُ الذي أقبله هو التالي: ينبغي أن تكون حياة المرء مساومة بين الأخلاق المثالية والشائعة. يجب أن يُعجب الناس بطريقة حياتنا، ولكنها يجب أن تبدو لهم معقولةً في الوقت نفسه.

«هل يعني ذلك أن نتصرف مثل الآخرين؟ ألا يكون هناك ما يميزنا عنهم؟» بكل تأكيد ثمة ما يميزنا، وأي مراقب عن كثب يجب أن ينتبه إلى اختلافنا عن الغوغاء. كلُّ من يدخلُ بيوتنا يجب أن يُعجَب بنا لا بأثاثنا. إنه رجلٌ عظيمٌ ذاك الذي يستطيع أن يعامل أوعيته الفخارية وكأنها فضة،

والذي يعامل فضيَّاته وكأنها فخارٌ ليس أقلَّ عظمة. اعتبارُ الثروة عبثاً لا يُطاق دلالةٌ على عقل غير مستقر.

ولكن دعني أشاركك كالعادة في لُقيتي اليومية الصغيرة (وهي اليوم شيءٌ لاحظته لدى الكاتب الرواقي هيكاتو). إن الحدَّ من رغبات المرء يساعده على التقليل من خوفه. «**توقف عن الأمل**» يقول لنا، «**وستتوقف عن الخوف**». تسألني: «ولكن كيف؟ هل يمكن لشيئين متباعدين كهذين أن يكونا مرتبطين؟» حسنٌ، في الواقع يا **لوكيليوس** أنهما متلازمان مع بعضهما بعضاً، مهما بدا عليهما الانفصال. فمع أنهما مختلفان جداً، إلا أنهما يسيران معاً كما السجين والأغلال التي تقيده: الخوفُ يجاري الأمل. ولا يفاجئني تحركهما سوياً، فالاثنان ينتميان إلى عقلٍ في تشوُّق: إلى عقلٍ في حالة من القلق بسبب توقُّعِ المستقبل. والاثنان سببهما أننا ندفعُ أفكارنا نحو الأمام بدلاً من تكييف أنفسنا مع الواقع. ولذلك فإن البصيرة – أعظم نعمة مُنحتها البشرية – تتحول إلى لعنة. الحيوانات البرية تهرب من الأخطار التي تراها أمامها، وما إن تَفلِت منها حتى تتوقف عن القلق. بينما نحن نتعذبُ بما مضى وما سيأتي. بعضُ نعمنا تؤذينا، فالذاكرةُ تسترجع عذاب الخوف، والبصيرة تستقدمه قبل وقته: ما من أحد يعاني في حاضره وحسب.

الرسالة (IV)

«التعلّمُ بالرؤية لا بالكلام»

لا أرى في نفسي تحسناً وحسب يا لوكيليوس، بل تحولاً، بيدَ أني لن أغامر بعدُ فأؤكد لك – أو حتى آملَ في – أنه لم يبق بداخلي حاجةٌ للتغير. من الطبيعي أنَّ فيَّ الكثيرُ من الأشياء التي يجب أن تُبنى، وأخرى يجب نحتُها أو هدمها. وحتى هذه: رؤيةُ النفسُ في ذاتها لإخفاقاتها التي كانت غير واعية لها من قبل، هي دليلٌ على التحسن في شخصية المرء. في حالة بعض المرضى يجبُ تهنئتهم عندما يستوعبون أنهم مرضى.

سيسعدني جداً إذاً أن أشاركك هذا التحول المفاجئ الذي طرأ عليّ. وفعلُ ذلك سيمنحني إيماناً أكبر بالصداقة التي بيننا، تلك الصداقة الحقة، التي لا يقدر أملٌ ولا خوفٌ ولا قلقٌ من منفعة شخصية على تمزيقها، تلك الصداقةُ التي فيها ومن أجلها يكون الناسُ مستعدّينَ للموت. أستطيعُ أن أعطيك أمثلة كثيرة على أشخاصٍ لم ينقصهم الأصدقاء، بل الصداقة، وهي شيءٌ لا يمكن أن يحصل عندما يجذبُ ميلٌ مشترك شخصيتين إلى بعضهما بعضاً، فيترافقانِ في الرغبة بما هو مشرّف. لذا لا

يمكن أن تحصل؟ لأنهما يعرفان أنَّ كلّ شيء مشتركٌ بينهما – وخصوصاً عقباتهما.

لا يمكنك أن تتخيل كمَّ التغيّر الذي يحمله كلُّ يوم جديد في نفسي. سوف تقول: «أرسل إلي أنا أيضاً تلك الأشياء التي وجدتها نافعةً إلى هذا الحد». فعلاً إني أرغب في أن أرسل لك كلَّ واحدةٍ منها، فجزءٌ من متعتي في التعلُّمِ هو أنه يمُكِّنُني من التعليم. ما من شيءٍ، بالغاً ما بلغ من الروعة والفائدة، سيمنحني المتعةَ إن كانت المعرفةُ ستكون لي وحدي. لو أن الحكمةَ عُرضت علي شرطَ أن أحبسها ولا أبوح بها لأحدٍ لرفضتها. لا متعة في امتلاك الثمائنِ إلا إن كان للإنسان من يشاركه فيها. وبناءً على ذلك سأرسل لك الكتبَ نفسها، وكي أوفرَ عليك تَصيُّدَ المقاطع التي من المرجح أن تفيدك سوف أضعُ عليها علاماتٍ بحيث تستطيع أن تتجه فوراً إلى الكلمات التي أتفق معها وأعجب بها.

ولكن النقاش الشخصي والحميمية اليومية مع شخص ما سوف تفيدك أكثر من أي حوار. يجب فعلاً أن تكون هنا على الأرض، أولاً لأن الناس تتعلم بأعينها أكثر من آذانها، وثانياً لأن الطريق طويلة إذا قطعها المرء عبر التعاليم، ولكنها قصيرة وفعالة إذا قطعها عبر المثال الشخصي. ما كان كليانسز[59] ليكون صورةً عن زينون لو أنه سمعهُ يحاضرُ وحسب: لقد عاش معه، ودرس حياته الخاصة، وراقبه ليرى إن كان يعيش حسبَ مبادئه. أفلاطون وأرسطو وكوكبةٌ من الفلاسفة الآخرين الذينَ قُدِّر لهم

---

59. Cleanthes فيلسوف يوناني، تلميذ زينون ووريثه في صدارة الرواقيين، أدخل جوانب دينية إلى الفلسفة، فمن بين كتاباته قصيدة محفوظة لـ'زيوس'، والتي تبدو وكأنما كتبها مسيحي إذا ما استبدلنا كلمة 'زيوس' بكلمة 'الرب'.

الذهاب في طرق مختلفة: كلهم تعلموا من شخصية سقراط أكثر من كلماته. لم تكن مدرسة أبيقور، بل العيشُ مع أبيقور تحت سقف واحد هو الذي جعل ميترودوروس وهيرماركوس وبوليانوس(60) رجالاً عظيمين. وعلى الرغم من ذلك فإنني لا أدعوك إلى جانبي من أجل تطوُّركَ أنتَ وحسب، بل من أجل تطوُّري أنا أيضاً، لأننا سنكون أكبر منفعةٍ لبعضنا بعضاً.

حتى ذلك الحين، وبما أني أدين لك بالمصروف اليومي، سأقولُ لك ما الذي أثار إعجابي من كتابات هيكاتو اليوم. «أي تطورٍ أنجزتُه؟ لقد بدأت أصيرُ صديقاً لي». إن هذا تطورٌ فعلاً. ومثل هذا الشخص لن يكون وحيداً أبداً، وكن واثقاً من أنه سيكون صديقاً للجميع.

60. [Metrodorus, Hermarchus, Polyaenus: ثلاثة فلاسفة تتلمذوا على يدي أبيقور.]

الرسالة (٧)

«تجنب الحشد، وحشية الأرينا»

إنك تسألني ما الذي عليك اعتبار تجنبه ضرورة؟ جوابي هو التالي: الحشد الكبير. إنه شيء لا تستطيع أن تدخل فيه بلا مخاطرة. وأنا على أي حال مستعدٌ للاعتراف بضعفي في هذا المجال، فأنا لا أرجع إلى البيت بنفس الشخصية الأخلاقية التي خرجت بها، إذْ يتقلقلُ شيءٌ ما لديّ حيثُ كنت سابقاً قد توصلت إلى سلامٍ داخلي، ويعاودني مجدداً شيءٌ ما من الأشياء التي كنت قد تخلصت منها. نحن الذين نتعافى من مرض روحي مطوَّل نماثلُ حالة الخاملين الذين تأثروا جداً بخمولهم الطويل بحيث لا يمكن إخراجهم من أبواب البيوت ولو مرة من دون تأثيرات سيئة. إن مصاحبة الناس ضمن أعداد كبيرة شيءٌ مؤذٍ بحق: ليس بينهم واحدٌ لن يُزيِّنَ رذيلةً ما في أعيننا، أو يتركنا حاملين انطباعاً من رذيلته أو ملوثين بها من دون أن نعي ذلك، ولا شكَّ أنه كلما زاد حجم الحشد زاد الخطر. ولكن لا شيء مدمرٌ للشخصية كإمضاء الوقت في الفرجة على عروض الأرينا، إذْ هناك، عبر وسيط التسلية، تتسللُ الرذائل إلى المرء بسهولة لا تضاهى. ما الذي تفهمه من كلامي؟ أنني أعودُ إلى بيتي أكثر

أنانيةً وأكثر اتباعاً لنفسي وتساهلاً معها؟ أجل، وأكثر من ذلك، أعود شخصاً أكثر وحشية وأقل إنسانية لأنني كنت على تواصلٍ مع البشر. ذهبتُ مرةً إلى إحدى تلك العروض في استراحة الغداء، متوقعاً أن يكون هنالك تسلية خفيفة وذكية في ذلك الوقت، وبعض التروّي والرأفة لإراحة عيون الناس من سيلان الدم البشري. ولكن الأمر كان عكس ذلك، فكل ما سبق ذلك العرض لا يعدو كونه عملاً خيرياً إذا ما قورنَ بما شاهدت فيه. فالكلام الفارغ قد انتهى وقته الآن: والآن أمامنا القتل صرفاً وببساطة. المقاتلون لا يلبسون ما يحميهم، وأجسادهم كلها عاريةٌ أمام الضربات، وكل طعنة يلقونها تُصيبُ الهدف. والكثير من المشاهدين يفضلون ذلك على المباريات العادية، وحتى على المباريات الخاصة التي تُنظَّم لإرضاء الطلب الجماهيري. وهذا طبيعي جداً، إذ ليس ثمة خوذ أو دروعٌ تصد الأسلحة. ما المغزى من الدرع؟ أو من المهارة؟ كل هذه الأشياء لا تفيد سوى في تأخير الموت. في الصباح يُرمى الرجالُ إلى الأسود والدببة: أما في ساعة الغداء فيُرمون إلى المشاهدين. المشاهدون يصرُّون على أن كل من ينجح في قتلِ غريمه يجبُ أن يُلقى إلى آخرَ غيره ليُقتل هو بدوره، ويحتفظونَ للمنتصر الأخير بنوع آخر من الجزارة. المَخرَجُ الوحيد للمتنافسين هو الموت. والنار والحديد يبقيان الذبح مستمراً، وكل هذا يحصل بينما الأرينا فارغة فعلياً.

«ولكنه قاطعُ طريق، لقد قتل رجلاً». وإن كان؟ لو فرضنا أنه قاتلٌ، ويستحق هذا العقاب، فما الذي فعلته أنت أيها الملعون حتى تستحق مشاهدته؟

«اقتله! اجلده! احرقه! لمَ يهربُ من سلاح غريمه كالجبان؟ لماذا ينفرُ من القتل؟ لماذا ليس متحمساً أكثر بقليلٍ للموت؟ اجلده حتى يندفع إلى الأمام ويتحمس! اجعلهما يواجهان بعضهما بعضاً بصدرين عاريين ويتبادلان الطعنات». وعندما يحين موعد فاصلٍ في العرض: «فلنقطع بعض الأعناق حالياً، لكي يكون هناك شيءٌ يحصلُ!» إني أقول لهؤلاء الناس: اسمعوا، لا بد أنكم تستوعبون – حتى لو لم تستوعبوا أي شيء آخر – أن الأمثلة السيئة تميلُ إلى الارتداد على الذين يضربونها؟ اشكروا الآلهة الخالدة أن الرجال الذين تلقنونهم هذا الدرس في الوحشية ليسوا في موقع يستطيعون فيه استغلاله ضدكم.

عندما يكون العقل قابلاً للتأثر، ولا يملكُ استيعاباً محكماً لما هو صحيح، يجب إنقاذه من الحشد: من السهل عليه جداً أن يذهب إلى الأغلبية. إن سقراط، أو كاتو، أو جايوس لايليوس، لربما اهتزت مبادئهم لو أحيطوا بكل هؤلاء المختلفين عنهم: إلى هذا القدر نحنُ قليلو الحيلة – حتى ونحن نعمل على إتمام بنية شخصيتنا – أمام تحمل الرذائل عندما تأتي مصطحبةً أعداداً ضخمةً من مُريديها. مثالٌ واحدٌ على البذخ أو الجشع يفعل الكثير من الأذى: شخصٌ مقربٌ يعيشُ حياةً بذخة سوف يدفع برفيقه تدريجياً إلى الرخاوة والترهل، والجارُ الثري يستفزُّ شهوات آخر غيره، ورفيقٌ ذو طبيعة مؤذية يبثُّ بعض سوئه حتى في شخصٍ بريءٍ ومنفتح القلب بطبيعته، فأي تأثير تظنهُ سيكون على شخصية الفرد حين يأتي الهجومُ من العالم بأسره؟ إنك في آخر المطاف ستكرهُ العالم، أو تتشبّهُ به. ولكن الصحيح هو ترك الطريقين: فيجب ألا تصير السيئ لأن السيئين كُثر، ولا أن تُعادي الكثيرين لأنهم مختلفون عنك. اعتزل مع

نفسك قدر ما تستطيع، وصاحب الذين ربما يستطيعون تحسين حالك، ورحّب بمن تستطيع تحسين حالهم، والعملية متبادلة: فالبشر يتعلمون عندما يُعلِّمون. وليس عندك سبب وجيه لأن تترك الفخر بمواهبك في الخارج يجرُّكَ نحو نشرها أمام نظر العامة، فيجعلك تقدمُ قراءات لأعمالك ومحاضرات. سأسعدُ برؤيتك تفعل ذلك لو أن ما ستعرضه يلائمُ الحشد الذي كنت أتحدث عنه، ولكن واقعَ الحال أن أحدهم ليس قادراً حقاً على استيعابك. قد تمر هنا وهناك بأحدهم، ولكن حتى هم يحتاجون تدريبك وتنميتك لهم حتى يصلوا إلى النقطة التي يستوعبون فيها تعليمك. 'ومن أجل من إذاً تعلمت أنا كل هذا؟' إن كنت قد تعلمته من أجل منفعتك أنت فليس عندك سببٌ لتخاف من أن جهدك قد ضاع.

ودعني أثبتُ لك أنني لم أكن أتعلم من أجل منفعتي أنا وحدي اليوم، دعني أشاركك ثلاثة اقتباسات ممتازة مررت بها، كل منها يتعلق بما يشبه الفكرة نفسها. واحدٌ منها أدفعُ به ديني المعتاد لهذه الرسالة، والاثنان الآخران اعتبرهما دفعةً على الحساب. يقول **ديموقريطس**: «بالنسبة إلي، الرجل الواحد حشد، والحشد رجلٌ واحد». وبالجودة نفسها الإجابة التي قدمها أحدهم أياً كان (فهويته غير معروفة) عندما سُئل: ما الغرضُ من كلِّ الجهد الذي أودعه في قطعة مصنوعة لن يراها إلا بضعة أشخاص؟ فأجاب: «بضعة الأشخاص يكفونني، وكذلك الواحد، وكذلك اللا أحد». والثالث تعبيرٌ جميل استخدمه أبيقور في رسالة لأحد زملائه. يقول: «إنني لا أكتب هذا لأعين الكثيرين، بل لعينيك وحدهما، لأن كلاً مِنّا جمهورٌ كافٍ للآخر». ضع هذه الكلمات في قلبك يا لوكيليوس، حتى تزدري التلذذ بثناء الأكثرية. الكثيرون يتحدثون عنك

مادحين، ولكن هل عندك ما يدفعُك إلى الرضا عن نفسك إذا كنت من نوع الرجال الذي يفهمه الكثيرون؟ إن شمائلك لا يصح أن تكون متوجهةً إلى الخارج.

الرسالة (VI)

«الكتابة للمستقبل، ما يُمنح يُمنع»

كتبت إلي: «أأنت من بين كل الناس تطلب مني حقاً أن أتجنب الحشد، أن اعتزل العالم وأجد الرضا، وتنصحني بذلك بصدق؟ أين قواعدك الرواقية التي تدعو الإنسان للموتِ في غمرة عمله؟»

مهلك الآن، هل يبدو لك مني أنني أشجع على حياة من الخمول؟ إني لم أدفن نفسي وراء الأبواب المغلقة إلا لأكون ذا فائدة للآخرين. لا يمر علي يوم من الراحة، وجزءٌ غير قليل من لياليَّ أقضيها في الدراسة، وليس عندي وقتٌ للنوم بل أستسلم له بعد أن أبقي عينيَّ تعملان بجفونٍ مثقلة ومرهقة. لقد انسحبت من الأعمال كما من المجتمع، خصوصاً شؤون أعمالي الخاصة: إنني أعمل نيابةً عن أجيال قادمة. إنني أكتب بعض الأشياء التي قد تفيدهم، أضعُ على الورق بعض التوصيات المفيدة، التي يمكنُ أن تُشبَّه بوصفات الأدوية الناجحة، ولقد اختبرت فاعليتها في حالة آلامي الخاصة، والتي إن لم تشفَ بالكامل فقد توقفت على الأقل عن الاستشراء. إنني أشير إلى الطريق الصحيح للآخرين، والذي

استوعبته متأخراً في حياتي، عندما أرهقني تجوالي. أقول: «تجنبوا كلّ ما يتقبله الغوغاء، والأشياءَ التي تأتي هدايا من الصدفة. ومتى ما جاءت الظروف بشيءٍ مرحب به في طريقكم توقفوا في شكٍ وانتباه: الحيوانات والأسماك تُصطادُ بمثل هذا الجذّابِ المتاح أمامها. أتظنون هذه الأمور هدايا لكم من الأقدار؟ إنها صنّارات. ومن شاء منكم أن يعيش حياة آمنة فليفعل كل ما بوسعه للابتعاد عن هذه الجوائز المفخخة، التي هي نوعٌ آخر من الأخطاء التي نقع فيها نحن الكائنات التعسة: نظن أن هذه الأشياء لنا بينما في الواقع نحن الذين نُصطَادُ بها. الطريقُ تؤدي إلى هاوية، والحياة على هذا المنحى المفرط في فرحه تنتهي بسقوط. وعلاوةً على ذلك، ما إن يبدأ الازدهارُ بحرفنا عن المسار حتى نعجزَ عن إيقاف السفينة كعجزنا عن النجاة من الغرق معها، مُعزِّين أنفسنا بأنها غرقت على طريقها الصحيح، أو أنها غرقت إلى الأبد وانتهى الأمر. الأقدار لا تقلب القارب وحسب، بل تدفعه مباشرة نحو الصخور وتحطمه إلى قطع. لذلك، تمسّكوا بهذه الخطة السليمة والصحيحة للحياة: أشبعوا الجسد بقدر ما يكفي للصحة الجيدة. ويحتاج الجسد إلى التعامل معه بعض الصرامة لمنعه من التمرّد على الروح. طعامكم يجب أن يُشبع الجوع، وشرابكم أن يطفئ العطش، وثيابكم أن تقيكم البرد، وبيوتكم أن تحميكم من الطقس المتوحش. لا فرق إن بُنيت من العشب أو من الرخام الملون المستورد من بلاد أخرى: ما يجبُ أن تفهموه هو أن القشّ يمنح الإنسان سقفاً كما يفعل الذهب. أحجموا عن كل ما يُضاف للتزيين والزخرفة مستهلكاً جهدكم بلا لزوم. وتأملوا أن لا شيء يستحقُّ الإعجاب إلا الروح، فروعتها تمنعها من أن تتعجَّبَ من أي شيء».

إن كانت هذه هي الأشياء التي أقولها لنفسي، إن كانت هي الأشياء التي أقولها للأجيال المستقبلية، ألا تظن أنني أفعل خيراً أكثر من أن أذهب إلى المحكمة لأشهد على تعهدٍ بالنيابة عن أحد ما، أو أضع ختمي على وصية، أو أساعد بالكلام أو الفعل مرشحاً للفوز بمنصب في مجلس السناتورات؟ إن الذين يبدون خاملين، صدقني، منشغلون في عملٍ أهم بكثير، إنهم يتعاملون مع مسائل إلهية وبشرية في آن واحد.

ولكن الوقت قد حان لإنهي الرسالة، والتزم بالممارسة التي بدأتها في الإنفاق على هذه الرسالة. وهنا لن أنفق من مصادري الخاصة، فأنا ما زلت أقلب صفحات أبيقور، والقول التالي الذي قرأته اليوم يأتيكَ من عنده: «كي تكسب الحرية الحقيقية ينبغي أن تكون عبداً للفلسفة». إن الشخص الذي يُسلِّمُ نفسه ويخضعها لها لا تؤجَّل إضبارتهُ من يوم إلى آخر، بل يتحررُ في لحظتها، فخدمةُ الفلسفة بحد ذاتها هي أن تكون حراً.

قد تتساءل لماذا اقتبس كثيراً من أقوال أبيقور الجيدة بدلاً من أقوال مدرستنا. لكن لماذا يجب أن نعتبرها لأبيقور وليست ملكيةً عامة؟ تأمل كم من الشعراء قالوا أشياء قالها الفلاسفة – بل كانَ يجب أن يقولوها! وعلاوةً على كُتَّاب التراجيديا، أو الدراما على مسرحنا الروماني (والتي فيها عنصر جديٌّ أيضاً وتقف في منتصف الطريق بين الكوميديا والتراجيديا)، فانظر إلى كمية السطور العظيمة التي تجدها ملقاة في الملهاة وحدها! فكر في عدد أبيات بوبليوس التي يجب فعلاً أن يقولها ممثلون يرتدون الجزمات التراجيدية[61] بدلاً من الممثلين الإيمائيين الحفاة!

61. [buskins] الجزمات الطويلة علامة ممثلي التراجيديا، ولم تزل حتى اليوم مستعملة في بعض ... حيث رمز الجزمة والجورب في للمسرح يرمز على التوالي إلى التراجيديا والكوميديا.]

سأقتبس لك واحداً من أبياته التي تنتمي إلى الفلسفة، وتنتمي إلى الفلسفة ذاتها التي ناقشتُها تواً، وهو بيتٌ يقول فيه أن الهدايا التي ترميها الصدفة في طريقنا يجب الا تُعتبرَ مُمتلكاتنا:

إن كنت تصلي لشيء أن يصير

والشيء حضرَ إليك يطير

فإنه بعيدٌ جداً عن أن يكون لك

إني أتذكر تعبيركَ عن الفكرة نفسها بأسلوب أكثر سعادة وبلاغة:

«ما جعله القدرُ لك ليس لك».

ولا أستطيع تجاوز تعبيرك الأكثر سعادة منه:

الخير الذي يُمكن منحه يمكنُ منعه.

(ونظراً إلى أن هذا [الاقتباس] قد استعرتهُ من رصيدك، فلن أخصمه من حسابك!)

الرسالة (VII)

«الحكيم بين الوحدة والصداقة»

تودُّ أن تعلم إذا ما كان أبيقور محقاً عندما انتقد، في إحدى رسائله، من يدَّعون أن الرجل الحكيم راضٍ ومكتفٍ بنفسه وبالتالي لا يحتاج صديقاً. هذا ما يعترضُ عليه أبيقور لدى ستيلبو[62] ومن[63] يؤمنون بأن المثل الأرقى في الحياة هو العقل الخالي من أي شعورٍ أو بتعبيرنا نحن: impatiens. إننا سننزلق إلى الغموض إذا ما حاولنا التعبير بكلمة واحدة عن التعبير الإغريقي apatheia عبر تحويله إلى كلمتنا impatientia، لأنها قد تُفهم بعكس المعنى الذي نريده، فيعتبرها الناس تعبر عن الشخص العاجز عن تحمل أي شيء سيئ يحصل له، بينما ما نعنيه بالكلمة شخصٌ يرفضُ أن يسمح لأي شيء سيئ يحصلُ أن يؤثر فيه. تأمل إذاً، فلعله من الأفضل أن ندعوه عقلاً «منيعاً» أو «فوق كل المعاناة».

الفرق بين المدرسة الأبيقورية ومدرستنا هو التالي: إن حكيمنا يشعر بمصاعبه ولكنه يتجاوزها، بينما حكيمهم لا يشعر بها. نشاركهم المعتقد

62. Stilbo فيلسوف يوناني ورأس للمدرسة الميجارية [نسبة إلى مؤسسها إقليدس الميجاري، ومدينة ميجارا في أتيكا الغربية من اليونان] عاش في القرن الرابع قبل الميلاد. وافق الكلبيين في سعيهم نحو الـ apatheia أو (المناعة من الشعور).

63. يقصد فلاسفة للمدرسة الكلبية (Cynic school)

بأن الحكيم راضٍ بنفسه. لكن على الرغم من ذلك، ومع أنه مكتفٍ بذاته، فإنه لا يزال يرغب في صديق وجار ورفقة. لاحظ كم هو راضٍ بنفسه: فأحياناً يكون راضياً بجزء وحسب من نفسه: إذا خسر يده في الحرب أو المرض، أو إحدى عينيه أو الاثنتين، في حادث، فهو يبقى راضياً بما يبقى من نفسه، ولا يكون أقل سعادة بجسده الآن - بعد أن تشوه ونقص - من سعادته به لما كان سليماً. ولكنه على الرغم من أنه لا يتحسر على ما خسر، فهو يفضِّلُ ألا يخسره. وهذا ما نعنيه بقولنا أن الرجل الحكيم راض بنفسه، إنه كذلك بمعنى أنه قادر على العيش بلا أصدقاء، وليس أنه يرغب في العيش من دونهم. عندما أقول أنه «قادرٌ» على ذلك، ما أقوله يعني التالي: إنه يتقبل خسارة الصديق برباطة جأش.

وليس الأمرُ أنه سيبقى بلا صديق، فالأمر عائدٌ إليه متى يعوض الخسارة. مثلما يستطيع «فيدياس»[64] أن ينحت تمثالاً آخر إذا خسرَ واحداً، كذلك حكيمنا وقدرته في فن صنع الأصدقاء، سوف يملأُ مكان الشخص الذي خسره. وأتوقع أنك تود أن تعرف كيف يصادق أحداً جديداً بهذه السرعة. حسنٌ، سأخبرك (مشترطاً أن تكون هذه هي اللحظة التي أدفع فيها ديني وأسوِّي حسابي في ما يخص هذه الرسالة). يقول هيكاتو: «سوف أريك إكسيراً للمحبة مصنوعاً بلا عقار أو أعشاب أو تعويذة ساحر، إنه هذا: إن شئت أن تُحَبَّ، أحِبّ».

لا تأتي المتعة العظيمة من الحفاظ على الصداقات القديمة والوثيقة وحدها، بل أيضاً من بداية الجديدة منها وبنائها. والفرق بين وجود

---

64. Phidias نحات أثيني مشهور من القرن الخامس قبل الميلاد.

الصديق والحصول عليه كالفرق بين المزارع الذي يحصد والمزارع الذي يبذر. كان الفيلسوف أتالوس[65] يقول بأن في كسب الصداقة متعة أكبر من وجود الصديق «بنفس الطريقة التي يتمتع فيها الفنان بالرسم أكثر من متعته باللوحة المنتهية». عندما يكون اهتمامه كاملاً مستغرقاً في التركيز على عمل يشتغل فيه، فإن حساً هائلاً من الرضا يتخلّق في داخله بسبب استغراقه. ولا تكون بهجته أبداً بالروعة نفسها بعدَ أن يرفع يده عن العمل المنتهي، فمن تلك اللحظة يصيرُ مستمتعاً بالمنتج النهائي للفن، بينما كان الفنُّ بحد ذاته هو الذي يُمتِّعُه عندما كان يرسم. كذلك أطفالنا، إن نموهم يجلبُ ثماراً أكبر ولكن طفولتهم أكثرُ حلاوة.

وللعودة إلى السؤال، فإن الحكيم، المكتفي بنفسه كما هو، يبقى راغباً في الصديق حتى لو لم يكن ذلك إلا رغبةً في التدرّب على الصداقة، والتوثق من أن تلك المواهب غير خاملة. وليس كما يقول أبيقور في الرسالة نفسها: «من أجل أن يكون عنده من يأتي للجلوس قُربَ سريره وقت المرض، أو ينقذه عندما يُقيَّدُ بالسلاسل»، بل على العكس، كي يكون عندهُ من يجلسُ هو إلى جوار سريره في المرض، أو من يحرره هو عندما يقع أسيراً في أيدي أعدائه. أي أحدٍ يبحث عن مصالحه الخاصة ويبحث عن صداقة من وجهة النظر هذه يخطئُ خطأً فادحاً. فالأشياء تنتهي كما تبدأ: لقد حصل على صديقٍ يأتي لمساعدته إذا تهدَّد بالأسر: وما إن تصطك حلقات السلسلة حول رقبته حتى يختفي ذاك الصديق. هذا ما يدعى في العادة صداقات الجو المشمس. الصديقُ الذي تتخذه كي تستغل

65. Attalus فيلسوف رواقي حضرَ سينيكا محاضراته تلميذاً.

سيبقى محترماً ما بقيَ مفيداً. هذا يفسرُ حشدَ الأصدقاء الذي يتجمع حول الرجال الناجحين وحالة الوحدة التي يعيش فيها المُدمَّرون، فيهرب أصدقاؤهم حين تحينُ لحظة الاختبار، ويفسرُ العدد الذي لا يحصى من الحالات المخزية التي يهجر فيها الناس بعضهم بعضاً، أو يخونون، خوفاً على أنفسهم. النهاية لا بدَّ سوف تطابق البداية: من بدأ بمصادقتك لأن ذلك يفيده سوف ينهي ذلك عندما تتوقف الفائدة. إذا كان في أي صداقة ما يجذبُ المرء غير الصداقة نفسها، فإن جاذبيةَ الربح أو الفائدة سوف تعادلُ جاذبية الصداقة. ما هدفي من مصادقة شخص ما؟ [قد تقول:] أن يكون عندي من أموتُ لأجله، شخصٌ ألحق به إلى منفاه، شخصٌ أضع نفسي ضمانة لحياته وأدفع ثمن ذلك. ولكن هذا الذي تصفه ليس صداقةً بل صفقة عمل، تنظرُ الى النتائج المحتملة وتستهدفُ الربح. لا شك في أن رغبة المحبين في بعضهم بعضاً غير مختلفة كثيراً عن الصداقة – ولعلنا نقول إنها صداقةٌ أصيبت بالجنون. حسنٌ إذاً، هل يقعُ أحدهم في الحب باحثاً عن الربح أو التسلُّق أو الشهرة؟ الحب الحقيقي في نفسه، هو غير المكترث بكل الاعتبارات الأخرى، يشعلُ قلوب الناس بالشغف لما هو جميل، وليس من دون أملٍ أيضاً في أن المحبة ستكون متبادلة. كيف إذاً يكون حافز الصداقةِ الأنبلُ مرتبطاً بأي رغبةٍ غير نبيلة؟

لعلك ترى أننا حالياً لسنا ننظرُ في سؤال إذا ما كانت الصداقة شيئاً يجبُ أن نمارسه لذَاته وحسب. ولكن على العكس، هذا بالضبط ما يحتاج الى الإثبات أكثر من أي شيء، لأنه إذا كانت الصداقة شيئاً نسعى إليه من أجل ذاته، فإنه يحقُّ للشخص الراضي بذاته أن يسعى إليها. وكيف يقاربها؟ بنفس الطريقة التي يقارب بها أي شيء ذا جمالٍ عظيم، ليس

مشدوداً بالربح، ولا متحسباً من تقلبات الحظ. طلبُ الصداقة في السراء من دون الضراء يسلبها كلَّ كرامتها.

«الرجل الحكيم راضٍ مع ذاته». كثيرٌ من الناس يا لوكيليوس يفسرون هذه الجملة على نحو خاطئ جداً. فهم يبعدون الحكيم عن كل تواصل مع العالم الخارجي، فيحبسونه في جلده. يجب أن نكون واضحين في معنى هذه الجملة وما الذي تقوله بالضبط، فهي تنطبق عليه من حيثُ السعادة في الحياة: لأن كل ما يحتاجه إنما هو روحٌ عقلانية وعالية تعاملُ الحظ بازدراء، ومن أجل تدبير الحياة فإنه يحتاج إلى عدد كبير من الأشياء. أود أن ألفت انتباهك إلى تمييزٍ مُشابه تجده في كتابات كريسيبوس[66]. يقول: إن الرجل الحكيم لا ينقصه شيء ولكنه يحتاج إلى أشياء كثيرة، بينما «الأحمقُ، من جانب آخر، لا يحتاج شيئاً (لأنه لا يعرف كيف يستخدم شيئاً) ولكن ينقصه كل شيء». الحكيم يحتاج اليدين والعينين لأغراض الحياة اليومية، ولكنه لا ينقصه شيء، لأن نقصان الشيء يعني أنه ضرورة، ولا شيء لدى الحكيم ضروري.

فلأنه راضٍ بنفسه كما هو، إذاً، لا يحتاج الأصدقاء – ويريد أكبر عدد ممكن منهم – ولكن ليس ليمكّنه ذلك من عيش حياة سعيدة، فهو قادرٌ على ذلك من دون أصدقاء. إن المثل الأرقى لا يحتاج مساعدة خارجية. إنه ينمو من الداخل، ويتطور من الذات بشكل كامل. وما إن يبدأ بالبحث خارجَ نفسه عن جزء منها حتى يكون قد انطلق في مسارٍ يجعله عبداً للأقدار.

66. Chrysippus فيلسوف يوناني (280-207 ق.م) ترأس المدرسة الرواقية بعد كليانس، ومُكثر في الكتابة. سكب الرواقية في نظامٍ محكمٍ له أساس في المنطق ونظريةٌ في المعرفة.

ولكن قد يقول الناسُ: «أي نوع من الحياة سيعيشها الحكيم إذا بقيَ بلا أصدقاء حين يُرمى في السجن؟ أو تنقطعُ به السبل بين الأجانب؟ أو يُختطفُ في رحلة إلى أماكن بعيدة؟ أو تتحطمُ سفينته على شاطئ مهجور ما؟»

ستكون كحياة جوبيتر عندما ترتاحُ الطبيعة وهلةً، عندما يتفكك الكون وتندمجُ كل الآلهة في واحدٍ، سيجدُ الراحةَ في نفسه، مستغرقاً في أفكاره. هذه إلى حد ما طريقة الحكيم: يمضي في عزلةٍ نحو ذاته الداخلية، في صحبة نفسه. ويبقى كذلك، في الحقيقة، ما دام في موقعٍ يسمحُ له بترتيب شؤونه حسب تقديره الخاص، فهو يبقى مكتفياً بذاته حتى عندما يتزوج، وحتى عندما يربي أطفاله. إنه راضٍ بذاته ولكنه سيرفض الحياة لو أجبر على العيشِ من دون صحبة مجتمع الإنسان. الاندفاعاتُ الطبيعية (وليس الرغبة في ما يجلبُ له المنفعة) هي التي تدفعهُ نحو الصداقة. نحن نولدُ مع إحساسٍ بمتعة الصداقة مثل أي شيء آخر: فكما أنه يوجد في الإنسان ما ينفره من الوحدة ويرغّبه في المجتمع (لأن الغريزة الطبيعية تجذبُ الإنسان إلى أن يكون بصحبة الآخر) فكذلك أيضاً هنالك شيءٌ فطري يدفعنا لإنشاء الصداقات. وعلى الرغم من كل ذلك، ومع أن الرجل الحكيم لا يُضاهى في إخلاصه لأصدقائه - مع أنه لا يعتبرهم أقل أهمية، وكثيراً ما يعتبرهم أكثر اهمية، من نفسه - فإنه لا يزال يعتبر أن ما هو قيّمٌ في الحياة مُحتوىً في ذاته الداخلية. سوف يكررُ كلمات ستيلبو (ستيلبو الذي يهاجمه أبيقور في رسالته)، عندما احتُلت بلدته، وخرج من الحريق الكبير وقد خسر أطفاله وزوجته، وحيداً، وعلى الرغم من ذلك، رجلاً سعيداً، لمّا شككَ فيه ديميتريوس. عندما سأله هذا الرجل (المشهور

بلقب ديميتريوس نهّابِ المدن بسبب الخراب الكبير الذي ألحقه بالبلدان) إذا كان قد خسر شيئاً، أجابه: «**معي كل ممتلكاتي القيمة**». هذا رجلٌ فاعلٌ وشجاع، منتصرٌ في وجه انتصار عدوه! قال: «لم أخسر شيئاً». لقد جعل ديميتريوس يتساءل إذا ما كان قد انتصر فعلاً. قال: «كل ممتلكاتي معي» قاصداً بها صفات الشخصية العادلة والحميدة والمتنورة، بل قصد أيضاً ذاتَ رفضه لإعلاء شأن ما هو قيّمٌ إذا كان قابلاً لأن يُسلب. نحن نُعجب بالطريقة التي تمرُّ بها بعض الكائنات عبر النار من دون أن تصاب بأذى: كم هو مثيرٌ للإعجاب أن هذا الرجل خرج من الحريق وإهراق الدماء والدمار غير مصابٍ وغير متأذٍ. هل يجعلك ذلك تفهمُ كم من الأسهل قهرُ شعب بأكمله من قهر رجلٍ واحد؟ إن كلمات ستيلبو كلمات رواقي تامّ. فهو، أيضاً، يحمل مقتنياته الثمينة سليمةً عبر رماد المدن المحترقة، لأنه راض مع نفسه. هذا هو الخط الذي يرسمه حداً لسعادته.

وإن كنت تتخيلُ أننا الرواقيين وحدنا الذين نقول مثل هذه الأقوال النبيلة، دعني أتلو عليك الآتي، وتذكّر أن تضع هذه في رصيدي مع أنني قد سويت ديني معك في ما يخص اليوم. إن أبيقور نفسه، الذي لا يرى في ستيلبو ما يُحمد عليه، قد قال جملةً تشابه جداً جملة ستيلبو هذه، فهو يقول: «**أي رجلٍ لا يرى في ما يملكه ما هو أكثر من كافٍ رجلٌ غير سعيد، حتى لو كان سيدَ العالم بأسره**». أو إن كنت تفضل أن تراها في التعبير الآتي (والهدف أن لا تحكمنا الكلمات المستعملة نفسها بل المعاني منها): ايبقى الرجل غير سعيد، حتى لو حكم العالم، إذا كان لا يعتبر نفسه سعيداً جداً». ولأثبت لك أن هذه المشاعر ذات صفة كونية، وقد أوجدتها الطبيعة نفسها بالتأكيد، فإنك تجدُ هذا السطرَ لدى شاعرٍ هزلي:

ليس سعيداً من لا يحسب نفسه كذلك[67]

في آخر المطاف، أي فرق يعنيه موقعك في الحياة إن كنت لا تحبه أنت؟

تسألني: «ماذا عن فلان الذي أصبح ثرياً بطريقة بشعة، أو فلان الذي يأمر عدداً ضخماً من الأشخاص ولكنه تحت رحمة عدد أكبر؟»

على فرض أنهم يقولون أنهم سعيدون، فهل يجعلهم رأيهم في الموضوع سعيدين؟ لا فرق في ما يقوله المرء، ما يهم هو ما يشعرُ به، وليس ما يشعرُ به في يومٍ ما بل ما يشعرُ به في كل الأوقات. ولكن ليس عليك أن تخاف من وقوعِ شيءٍ ثمينٍ كهذا في الأيادي التي لا تستحقه. وحده الحكيمُ راض بما هو عليه. وكل الحماقات تعاني من عبء عدم الرضا عن نفسها.

---

67. المؤلف غير معروف.

الرسالة (VIII)

«علامات التأثر والقدوة المُراقِبة»

لقد تحدثت مع صديقك الموهوب. وما إن بدأ حديثه معي حتى تبينت لي مواهبه الفذة في الشخصية والذكاء. قدّمَ لي عينةً من قدراته التي أثقُ بأنه سوف يبرهن على جدارته بها، لأن الأشياء التي قالها حين التقطته على حين غرة كانت عفوية تماماً، وعندما استعاد انتباهه لنفسه بالكاد استطاع أن يخفي إحراجه – وهذه دوماً علامةٌ جيدة في الشاب اليافع – واحمرت وجنتاه بشدة حتى اختضب وجهه. أتوقع أن يبقى ذلك فيه حتى عندما يبني شخصيته ويجردها من كل نقاط ضعفها، وحتى عندما يصبح حكيماً. فلا قدر من الحكمة يُخلِّصُ المرءَ من مواطن ضعفه الجسدية أو العقلية الناشئة من أسبابٍ طبيعية. ما وُلِدَ المرء عليه وما طُبِعَ عليه يمكن تخفيفه، ولكن ليس تجاوزه. بعض الرجال، حتى أصلبهم قلوباً، يتعرّقونَ عندما يواجهون حشداً كما يتعرقُ الحرَّانون والمرهقون. بعض الرجال ترتجف ركبهم إذا اضطروا للمبادرة بالحديث، وبعضهم يكزّ على أسنانه، ويتأتئ لسانه، وترتجف شفتاه. هذه أشياء لا يلغيها التدريب أو الخبرة. الطبيعة تستلُّ سلطتها، وتستعمل الضعف الكامن فيهم لتجعلَ حتى

أقوى الرجال واعين لوجودها. أحد الأمور التي عرفتها جيداً هي احمرار الوجنتين، والتي تخضب وجوه أكثر الرجال عنفواناً وكرامة في أسلوبهم. وهي طبعاً أكثرُ وضوحاً في اليافعين أصحاب الدم الحار والبشرات الحساسة. على الرغم من ذلك فإنها تؤثرُ، بالطريقة نفسها، في رجالٍ محنكين، ورجالٍ موغلين في العمر. بعض الرجال يجب الخوف منهم عندما يحمرون أكثرَ من أي وقتٍ آخر، وكأنهم إذا حصل ذلك لهم يفقدون كل ضوابطهم: كان سولا[68] إذا اندفع الدم إلى وجهه يكون في أكثر أوضاعه شراسةً. ولا ملامح كانت أكثر تأثراً من ملامح بومباي: فلا يكون في صحبة أحدٍ إلا وتحمرُّ وجنتاه، خصوصاً في اللقاءات العلنية. أتذكر فابيانوس[69] وقد احمرَّ في أثناء تقديمه أدلةً أمام مجلس السناتورات، وبدا خجلُه رائعاً عليه. عندما يظهرُ هذا في وجه شخصٍ ما، فهو لا يظهرُ بسبب قلة الصلابة العقلية، بل بسبب ظرفٍ ما غير مألوف للشخص، ولا يعني ذلك بالضرورة أنهم أشخاص قليلو الخبرة ويقلقون، لكن الظرف يُحدِث فيهم ردة فعل إن كان عندهم ميلٌ فيزيائي طبيعي لها: بعض الناس عندهم دمٌ عادي والآخرون لديهم دمٌ حيوي ومتحرك يصعد إلى وجوههم بسرعة.

لا مقدار من الحكمة، كما قلت سابقاً، سوف يطردُ هذه الأشياء، ولو أن الحكمة تستطيعُ شفاءَ كل ضعفٍ لهيمنت على عالم الطبيعة. إن بنية الشخص الفيزيائية وصفاته التي ولد عليها تبقى ثابتة مهما سعى جاهداً

---

68. Lucius Cornelius Sulla (138-78 ق.م) جنرال وديكتاتور روماني، قام بإصلاحات ولكنه كان وحشياً في الحكم.

69. Papirus Fabianus فيلسوف من تلامذة سيكستيوس، وعرف سينيكا محاضراته تلميذاً.

أو طويلاً إلى تعديلها كلياً. الإنسان عاجزٌ عن إيقاف هذه الأمور كعجزه عن جعلها تحدث. والعلامات التي يستخدمها الممثلون المحترفون، الذين يصورون المشاعر، للدلالة على الإحراج، والتي تحاكي التعاسة وتوحي لنا بالخوف والترقب، هي طأطأة الرأس، وانخفاض الصوت، وخفض العينين وإبقاؤهما مثبتتين على الأرض، أما احمرار الوجنتين فشيء لا يستطيعون تقليده: لا يمكن استدعاؤه ولا طرده. وفي مواجهة هذه الأشياء ليس لدى الفلسفة علاجٌ ولا تفيد في شيء، فهي أشياء مستقلة جداً، تأتي بلا استئذان وترحل بلا استئذان.

رسالتي تحتاج خاتمة، وإليك واحدة، وستخدمك جيداً أيضاً، وأتمنى منك أن تحفظها في قلبك: «يجب أن نوجِّه وجداننا نحو شخص جيد ما ونبقيه دوماً أمام أعيننا، حتى نعيش وكأنه يراقبنا، ونفعل كل شيء وكأنه يرى ما نفعل». هذه يا عزيزي **لوكيليوس** نصيحةُ أبيقور، ولقد منحنا بقوله هذا حارساً ومعلماً أخلاقياً – وليس من دون سببٍ أيضاً: فالأفعال السيئة تقلُّ كثيراً إذا تربصَّ شاهدٌ بالمرصاد مراقباً من ينوي فعلها. يجب للشخصية أن تحظى بمن تستطيع أن تُجلّه، شخص يمكن لتأثيره أن يجعل حتى حياتها الخاصة الشخصية أكثر نقاءً. سعيدٌ هو الرجل الذي يُحسِّنُ حياة الناس لا عندما يكون حولهم فحسب، بل حتى في أفكارهم! وسعيدٌ أيضاً القادرُ على إجلالِ أحدٍ ما حدَّ أنْ يُعدِّل ويُشكِّل شخصيته في ضوء ذكرياته عن هذا الإنسان. ومن يقدر أن يُجِلَّ أحداً بهذه الطريقة لن يطول به الزمن قبل أن يستحقَ الإجلال هو نفسه. فاختر لنفسك كاتو، أو إن كان كاتو قاسياً عليك فلربما لايلوس، وهو رجلٌ ليس ذا شخصية قاسية جداً. اختر شخصاً تكونُ طريقةُ حياته وكلماته، وحتى

وجهه الذي يعكس شخصيته، كلها تحظى بقبولك. ووجه نفسك دوماً نحوه إما كحارسٍ أو كقدوة. ثمة ضرورةٌ في رأيي لشخصٍ يكون معياراً تستطيع شخصياتنا أن تقيس نفسها به. لن تستطيع تقويم الاعوجاج بدون مسطرة.

الرسالة (IX)

«تقدم العمر وسهولة التحرر»

كلما استدرت أرى دليلاً جديداً على تقدمي في العمر. زرتُ بيتي على حافة روما من وقت قريب، وطفقتُ أتذمر من كلفة صيانة المبنى الذي بات في حالة متهالكة. أخبرني مديره أن المشكلات ليست بسبب أي إهمال منه: فهو يفعلُ كل ما بوسعه، لكن البيت قديم. هذا البيت بُنيَ تحت يدي، مالذي سيحصلُ لي إن كانت الأحجار من أبناء جيلي تتفتتُ هكذا؟ خسرتُ أعصابي والتقطت أول عذرٍ لأنفّس عن انزعاجي في الرجل. قلت له: «من الواضح أن أشجار الدلّب هذه مُهملة، فلا ورق عليها. انظر إلى أغصانها الجافة الشائكة وجذوعها المتقشرة الملعونة. ما كان هذا ليحصل لو أن أحداً حفر حولها وسقاها». أقسمَ الرجلُ لي بملاكي الحارس أنه يفعل كل طاقته، وأنه لا ينفك عن صيانة كل شيء، ولكن الأشياء المسكينة نفسها باتت قديمة. بيني وبينك، أنا زرعتُ هذه الأشجار بنفسي ورأيتُ أول أوراقها تظهر بعيني. ومن ثم استدرت نحو الباب وقلت: «من هذا؟ من هذا العجوز المتهالك؟ من الملائم وقوفه في

عتبة الباب[70] إذ يبدو أنه لن يطيل البقاء معنا. من أين جئت به؟ وما الذي دفعك إلى توظيف أموات الناس من مدافنها؟» حينها قال العجوز: «ألم تعرفني؟ أنا فيليسيو. كنتَ تجلبُ لي ألعاب دمى.[71] أنا ابن المدير فيلوسيتوس، كنتُ رفيقَك في اللعب». قلت: «لقد جُنَّ الرجل. هل رجعَ طفلاً صغيراً حتى يقول عن نفسه أنه رفيقي في اللعب؟ حسنٌ، بما أن أسنانه تسقطُ [مُجدداً] فلربما قد رجع إلى الطفولة حقاً».

إنني مدينٌ إذاً لبيتي القريب من المدينة، لأنه أظهرَ لي عمري الكبير بوضوح في كل زاوية من زواياه. حسنٌ، يجبُ أن نحتفي بالعمر الكبير ونستمتع به، فهو حافلٌ بالمتع إن عرفت كيف تستعمله. الفاكهة تكون ألذ عندما يقترب موسمها من الانتهاء. وإن سحر الشباب يكون في ذروته إذ يبدأ بالرحيل. والكأسُ الأخيرة هي الألذ عند الشِرّيب المحنك، فهي التي تضعُ اللمسة المتوّجة على سُكره وتحملهُ إلى الغياب. كل متعةٍ تحتفظ بأعظم لذاتها لأواخرها. وقت الحياة الذي يقدم أعظمَ المتع هو العمر الذي قد بدأت فيه الحركةُ نزولاً – لكن ليس الانحدار السحيق. وفي رأيي، حتى العمر الذي يتوقف عند الحافة له لذاته الخاصة، أو إن عدم الحاجة نفسها إلى أي من اللذات تأخذُ مكانها. كم من الجميل أن يكون المرء قد استنفد لذاته وتركها وراءه!

قد تقول: «لكن ذلك ليس لطيفاً إلى هذا الحد، أن ترى الموت جاثماً أمام عينيك». أردُّ على هذا، أولاً: بأن الموت يجب أن يكون جاثماً أمام عيني اليافع بقدر العجوز، فالترتيب الذي نُستدعى به ليس محدداً بأسبقية

70. [سينيكا يمزحُ ملمحاً إلى طقس الجنازة في روما، حيثُ تُوجّهُ قدما الميت نحو باب الغرفة.]
71. هدايا تقليدية في عطلة ساتورناليا (عطلة مخصصة للمرح في ديسمبر) تصنع غالباً من الفخار.

الوصول، وثانياً: بأنْ لا أحد عجوزٌ إلى الدرجة التي تمنعه من أن يأمل بيومٍ آخر...»[72]

يجب تنظيم كل يومٍ إذاً وكأنه اليوم الذي يوصلنا إلى النهاية، اليومُ الذي يلمُّ الأمور إلى بعضها بعضاً ويتمم حياتنا. باكوفيوس، الرجل الذي حصل على صك ملكية سوريا بالالتصاق،[73] اعتادَ أن يقيم لنفسه احتفالاً تذكارياً يتضمن النبيذَ والوليمة الجنائزيين شبيهاً بشعائرنا، ومن ثم يُحمل في نعشٍ إلى سريره، بينما يصدحُ غناءٌ مع موسيقى يقول 'لقد عاش، لقد عاش' باليونانية، وسط تصفيق المدعوين الخليعين في المأدبة. لم يمض يومٌ لم يحتفل فيه بجنازته. وما فعلهُ هو بدوافع معيبة يجب أن نفعله نحنُ بدواعٍ مشرفة، فنقول بكل السعادة والفرح ونحن ذاهبون إلى أسرتنا،

لقد عشت، وأكملت الآن الطريق

الذي وضعتني عليه الأقدار منذ زمان طويل[74]

إذا أعطانا الإلهُ غداً فيجب أن نقبله بسرور. إن الرجل الذي يتطلع إلى الغد من دون أن يقلق منه يعيشُ سكينةً مستقلةً وسعادةً لا يضاهيها

72. حذفتُ هنا استدراكاً غامضاً يتعلق بتقسيم الوقت من الفقرات 6 إلى 7.

73. [Pacuvius qui Syriam usu suam fecit) حرفياً: (باكوفيوس الذي جعل سوريا له بالاستعمال) ومفهوم التملُّك بالاستعمال (usus) في القانون الروماني لا يزال عندنا ما يشبهه في القوانين الحديثة والمسمى بـ(الملكية بالالتصاق)، حيث يحصلُ طرفٌ في دعوى على مُلكيةِ ما لأنه استصلحها وقتاً طويلاً مثلاً، أو بنى فيها، الخ.] وهذه نكتة محامي منمقة، فسينيكا هنا يسخرُ من أن باكوفيوس قضى عدة سنوات في سوريا، ليس بصفته حاكماً، بل تحت خدمة حاكمٍ لما عيّنه الإمبراطور تيبيريوس، ولكن الإمبراطور ما سمح له قط بالذهاب إلى مقاطعته. [وبالتالي كان باكوفيوس يحكمها (يملكها) فعلياً لمجرد وجوده فيها].

74. Virgil, Aeneid, IV:653.

شيء. من يقول 'لقد عشت' يستقبل مكسباً من حيث لا يحسبُ في صباح كل يوم يستيقظُ فيه.

عليّ الآن أن أختم هذه الرسالة. ستقول «ماذا؟ هل ستصلني بلا أي إسهام ختامي». لا تقلق، فإنها تحملُ إليك شيئاً. ولكن لماذا دعوتُه «شيئاً»؟ إنه شيءٌ عظيم، إذْ ما الأروع من هذا القول الذي أودعه في رسالتي إليك: «من المحزنِ أن تعيش مقيداً، ولكن لا قيد يرغمك على الحياة في القيود». طبعاً لا، ففي كل مُنعرجٍ طرقٌ كثيرة وقصيرةٌ وسهلة إلى الحرية نستطيع أن نسلكها. فلنشكر الإله أنْ لا أحد يُمكن أن يُسجن في الحياة – فالقيود نفسها يمكن سحقها تحت القدم.

«إن أبيقور هو الذي قال ذلك» أسمعكَ تعترض:«وما علاقتك بأملاك غيرك؟»

كل ما هو حقيقيٌ مُلكي. وسوف أستمر في استعمال أبيقور ضدك، حتى أؤدب من يقسمون على الطاعة لأحدهم ولا يتفكرون بعدها بما يقال (بل بمن يقوله فقط) بأن كل الأشياء ذات القيمة الأعظم مُلكية عامة للجميع.

الرسالة (X)

«تمرين الجسد، وترويض الرغبة»

كان لدى أجدادنا عادة بقيت ساريةً في حياتي، وهي أن يضيفوا إلى افتتاحية الرسالة: «أتمنى أن تجدك هذه الرسالة كما تركتني بصحة جيدة». حريٌّ بنا أن نقول: «أتمنى أن تجدك هذه الرسالة باحثاً عن الحكمة». لأن هذا تماماً ما تعنيه الصحة الجيدة. إذ من دون الحكمة يمرضُ العقل، والجسدُ نفسه – مهما كان قوياً – لا يمتلك سوى القوة نفسها التي نجدها لدى من يعانون الجنون والهلوسة. هذا إذاً نوع الصحة الذي يجب أن تجعله همّك الرئيسي. يجب أن تهتم بالنوع الثاني أيضاً، ولكن احرص على أن يكون في المقام الثاني. ولن تتكلف الكثير من الجهد إذا كانت الصحة الجيدة كل ما تريد. لأنه من السخيف، يا عزيزي لوكيليوس، ومما لا يليق برجل متعلم، أن ينفق وقته في تمرين العضلة ذات الرأسين، ويعرّض رقبته وأكتافه وينمي رئتيه. حتى عندما ينتج الأكل الإضافي نتائج جيدة وتزيدُ عضلاتك، فإنك لن تساوي قوة ثورٍ أو وزنه. والثقل الأكبر على الجسد، علاوةً على ذلك، يهشمُ الروح ويجعلها أقل فاعلية. فلتبقِ جسدك

ضمن الحدود ما استطعت ذلك، وأفسح المكان للروح. إن المخلصين للثقافة الجسدية يتكلفونَ الكثير من الإزعاج. هنالك التمرينات في المقام الأول، والجهد المبذول فيها يستنزف حيوية المرء ويجعله غير قادرٍ على التركيز أو على الاجتهاد في نوع أكثر تطلباً من الدراسات. ومن ثم هنالك الأكل الكثير، الذي يبلّد حدّة الذهن. ومن ثم هنالك اتخاذهم مدربين هم أسوأ أنواع العبيد، النوعُ الذي يقسم وقته بين وضع المرهم وشرب الكحول، والذين يعتبرون أن اليوم الجيد يتألف من الحصول على تعرّق قوي ومن ثم تعويض السوائل بالكثير من الشرب، ويرون الأفضل شربه على معدة فارغة. الشرب والتعرق، هذه حياة مرضى الهضم! هنالك تمارين أقصر وأبسط تجهدُ الجسدَ دون وقت طويل وتوفرُ علينا ما يجب أن نحرصَ عليه أشد الحرص: الوقت. هنالك الركض، والتلويح بالأثقال والقفز، القفزُ العالي أو الطويل أو النوع الذي يشابه الرقص الذي يمارسه كهنة «مارس» [إله الحرب]، إذا صح أن يصفه المرء بذلك، أو بتعبير أقل احتراماً، الذي يمارسه من يشتغل بالغسيل. انتقِ أياً من هذه لسهولتها ووضوحها. ولكن أياً ما اخترت، عُد من الجسد إلى العقل سريعاً جداً، ومرِّنه ليلاً نهاراً، وهو لا يحتاج إلا كمية معتدلة من التمرين كي يتطور ويزدهر. إنه نوع من التمرين لا يعيقه الحرُّ أو البردُ ولا حتى العمر الكبير. نمّ لنفسك خيراً يزيده مرور الوقت بحد ذاته.

أنا لا أقول لك أن تبقى منحنياً فوق الكتاب أو ألواح الكتابة. فالعقل يجب أن يُمنح وقتاً للراحة، ولكن بطريقة تجدده، ولا ترخيه بحيث يتشتت. إن السفر في عربة المرء يهز جسده ولا يتدخل في مساعيه الفكرية، تستطيع أن تقرأ، وتملي، وتتحدث أو تسمع، وكذلك المشي أيضاً، لا يمنع

أياً من هذه النشاطات. ويجب ألا تنظر بدونية إلى تدريبات الصوت. ولكني لن أقبل بأن تتدرب مجدداً على هذا الصعود والهبوط مجدداً بدرجات حسب سلالم ثابتة – فإنك إن قبلت بهذا تكون كمن يأخذ دروساً في المشي! أدخِلْ إلى بيتك، ولو مرة واحدة، ذلك النوعَ من الناس الذين علمهم الجوعُ مهناً لم يسمع بها أحد، وسوف تجده ينظمُ طريقة مشيك، ويعلمكُ كيف تستخدم فكّيك للأكل، وسوف يتمادى في وقاحته بقدر صبرك عليه وتصديقك له. هل فهمت من كلامي أنك يجب أن تبدأ بتدريب صوتك بتمارين صراخ بأكبر قوة فوراً؟ الطبيعي هو أن تتدرج في مراحل سهلة، وهو أمرٌ سهل جداً إلى درجة أن الذين يفتعلون شجاراً يبدؤون بنبرةٍ حوارية، ومن ثم لاحقاً يمزقون الهواء بالصراخ. لا أحد يبدأ مرافعته بـ«مساعدة ودعوة كل رجال روما الحقيقين» منذ بدايتها...»[75] إن هدفنا في كل ذلك ليس أن نمرّن صوتنا، بل أن ندع صوتنا يُمرِّننا.

لقد أرحتك إذاً من قدر غير قليل من الشغل. وإلى هذا المعروف أقدم إضافة صغيرة، حكمة هائلة قادمة إليك من اليونان: «حياة الحماقة فارغة من الامتنان وممتلئة بالقلق: تتركز كاملةً على المستقبل». تسألني: «من قال ذلك». هو الرجل السابق نفسه. وأي نوع من الحياة تظنه يقصد بـ«حياة الحماقة»؟ حياة «بابا وإيسيو»؟[76] لا، بل إنه يقصد حياتنا نحن، التي تستدرجها الرغبة العمياء إلى نشاطات من المرجح أن تجلب لنا الأذى ومن المؤكد أنها لن تجلب لنا الرضا – ولو أنها سترضينا لكانت أشبعتنا

---

75. الجملة التالية هنا والتي تتعلق بطريقة الخطابة للفضلة محذوفة لأن النص الأصل فاسدٌ بحيث لا يُفهم.

76. يمكن لنا أن نفترض أنا بابا وإيسيو كانا أحمقين أو مهرجين مشهورين.

منذ زمن – ومن دون أن نفكر في كم من الممتع ألا نطلب شيئاً، كم من الرائع أن نكون مكتملين، ومستغنين عن الثروة. فذكر نفسك دوماً يا لوكيليوس بكمية الأشياء التي أنجزتها. عندما تنظر إلى جمع الناس أمامك، فكر في كل الذين هم وراءك. وإن أردت أن تشعر بالتقدير لما منحته الآلهة وما فعلته في حياتك، فكِّرْ وحسب كم من الناس قد تفوقت عليهم. لماذا تهتم بالآخرين، بما أننا نتحدث عن ذلك، بعد أن تفوقت على نفسك؟ ضع لنفسك حداً لا ترغب بتجاوزه حتى لو استطعت، ودّعْ أخيراً تلك الجوائز الخداعة التي هي ثمينة ومطلوبة عند من يأملون بها، لا عند من كسبوها. لو أن فيها شيئاً مفيداً لقدمت لنا عاجلاً أم آجلاً حساً من الامتلاء، ولكنها في الواقع تضاعف عطش الذين ينهلون منها. تخلص من الأبهة والفخامة. وأما في ما يخص المجهول الذي يخبئه المستقبل، فلماذا يجب أن أطالب الأقدار بأن تعطيني هذا أو ذاك بدلاً من أن أطالب نفسي بألا أرغب فيه. لم أطلب هذه الأشياء على أي حال؟ حتى أراكمها ناسياً تماماً هشاشة الوجود البشري؟ ماذا سيكون هدف جهودي؟ انظر! اليوم يومي الأخير، وإن لم يكن فهو ليس ببعيد.

الرسالة (XI)

«القدرُ الإلهي والصدفة، وترسيخ الحكمة»

أثقُ أنه قد تبيّن لك، يا لوكيليوس، أن لا أحد يستطيع أن يعيش حياة سعيدة، أو حتى قابلة للاحتمال، دون السعي إلى الحكمة، وأن إتمام الحكمة هو ما يصنع الحياة السعيدة، مع أن مجرد بدايات الحكمة قادرةٌ على جعل الحياة قابلة للاحتمال، ولكن هذه القناعة على الرغم من وضوحها تحتاج تقويتها ومنحها جذوراً أعمق عبر التأمل اليومي. إن إقرارَ القناعات النبيلة ليس بأهمية الحفاظ على القناعات التي قبلتها. عليك أن تحفظ عزيمتك وتقويها حتى تصبح إرادتك على فعل الخير ميلاً ثابتاً نحو الخير. فلست مضطراً إذاً لكل هذا الاعتراض والإطناب أو قول المزيد في الموضوع: إنني أعي تماماً أنك حققت تقدماً ضخماً، وأفهم المشاعر التي تدفعك لكتابة هذه الأشياء في رسالتك، وأعلمُ أنها ليست ادعاءات أو تباهياً. ولكن – في رأيي الصريح – أنا في هذه المرحلة، ومع أنني عندي آمال كبيرة فيك، لا أشعر بالثقة في شأنك. وأتمنى منك أن تتبنى الموقف نفسه: ليس عندك أساسٌ تبني عليه اعتقاداً جاهزاً سريعاً في نفسك. أجرِ تحليلاً باحثاً ومحاسبةً صارمة للنفس من الزوايا المختلفة

كافة. وانظر، قبل كل شيء، في ما إذا كنت قد تقدمت في الفلسفة أو في السنوات وحسب.

الفلسفة ليست مهنة ذات طبيعة شعبية، ولا تُطلب من أجل تسويق النفس. واهتمامها ليس بالكلمات بل بالحقائق، والهدف من ممارستها ليس تمرير اليوم بطريقة ممتعة وطرد الملل من الراحة. إنها تشكِّل الشخصية وتبنيها، وترتبُ حياة المرء، وتنظِّمُ سلوكه، وتريه ما الذي يجب فعله وما الذي يجب تركه، وتجلسُ خلف الدفَّة وتثبّتُ الإنسان على مساره الصحيح بينما تتدافعه أمواج البحر الخطر. لا أحد يستطيع أن يعيش حياةً حرة من الخوف أو القلق. كل يومٍ تظهر حالات لا تحصى تتطلب النصح، وهذا النصح يجب أن نبحث عنه في الفلسفة.

قد يقول أحدُهم: «كيف تفيدني الفلسفة إذا كان هنالك شيءٌ كالقدر؟ كيف تفيدني الفلسفة إذا كان ثمة كيانٌ إلهيٌّ يتحكمُ بي؟ وكيف تفيدني إذا كان كل شيء محكوماً بالصدفة؟ إذْ يستحيل تغيير ما هو محتمٌ مسبقاً، أو التحضير لما هو غير محتَّم، فإما في الحالة الأولى، يخفقُ تخطيطي بفعلِ إلهٍ يحدد تصرفي، أو، في الحالة الثانية، فالحظ هو الذي يحرمني حرية التخطيط». أياً كان هو الصحيح من هذين الاحتمالين يا لوكيليوس – بل حتى لو كان كلاهما صحيحاً – نبقى محتاجين لممارسة الفلسفة. سواء كنا حبيسي قبضة قانونٍ قَدَرِي حتمي لا ينثني، أو أن الإله الذي هو سيد الكون قد رتّب كل الأمور، أو حتى إذا كانت شؤون البشرية تُلقى خبط عشواء بالصدفة، فإن الفلسفة هي التي تتحملُ واجبَ حمايتنا، هي التي تُشجعنا على الخضوع للإله بسعادة؛ وللقدرِ بازدراء متحدٍ. سوف تريك

كيف تتبعُ الإله، وتتحمل ما تلقيه عليك الصُدَف. ولكن ليس موضوعي هنا نقاش ما هو ضمن قدرتنا إذا كان هناك حكمٌ إلهي، ما إذا كنا نُدفع مُقيَّدين في قطار من الأحداث المحتومة، أو أننا تحت رحمة المفاجئ وغير المتوقع. في الوقت الحالي أعود إلى النقطة التي كنت عندها قبلاً، حيث أنصحك وأحثك على ألا تسمح لاندفاعك الروحي أن يفتر أو يذوي، تَمَسَّكْ به وثبته على أسس واثقة، حتى يتحول ما هو اندفاعٌ الآن إلى شيمة روحية ثابتة.

إن كنت أعرفك، فلا بد وأنك تبحث منذ البداية لترى ما هي الهدية الصغيرة التي تحملها الرسالة. ابحث في الرسالة وستجدها. ولا تحسبنَّ كرمي عظيماً، فأنا لست أتكرَّمُ إلا من ملكية الآخرين. ولكن لماذا أسميها ملكية أحد آخر؟ كل ما قاله أحد ببلاغةٍ جيدة فهو مُلكيتي. إليك قول آخر من أبيقور: **«إن شكّلت حياتك وفقاً للطبيعة، فلن تكون فقيراً أبداً، وإنْ وفقاً لآراء الناس، فلن تكون غنياً أبداً»**. حاجات الطبيعة قليلة، بينما حاجات الرأي لا تنتهي. تخيل أنك تجمّع عندك كل ما امتلكه عدد من الأثرياء: أن يشطح بك الحظ في حدود الثروة إلى حيث لم يصل أي فرد من قبل، فيبني لك سقفاً من الذهب ويلبسك القرمزي المَلَكي، ويجعلك في ذروة من البذخ بحيث تُغطي الأرض بأرضية من الرخام، ويصل بك إلى حيث لا تملكُ الكنوز وحسب، بل تمشي فوقها، وزد فوق ذلك التماثيل واللوحات وكل ما اجتهدت الفنون وعانت حتى أنتجته إرضاءً لبذخك: كل هذه الأشياء لن تُحدثَ فيك إلا شهوةً لأشياء أكبر منها. رغبات الطبيعة محدودة، أما التي تنبع من الآراء الخاطئة فلا تعرف التوقف، لأن الزيف ليس له نقطة ينتهي عندها. عندما يتبع شخصٌ ما

طريقاً، فهنالك نهاية ما لها، ولكن التجول وحسب ليس له حد. فتخلَّ عن الرحلات الفارغة عديمة المعنى، وإن شئتَ في أي وقتٍ اختبارَ الرغبة التي تنبعُ بداخلك، إن كانت ناشئة عن شيءٍ طبيعيٍ، أو رأيٍ أعمى البصيرة: فاسأل نفسك إذا ما كانت هذه الرغبةُ قابلة للوقوف عند نقطة ما، فإذا وجدتَ أنَّ بعدَ الطريق الطويل يبقى دوماً هنالك ما هو أبعد، كُن واثقاً أنها ليست شيئاً طبيعياً.

الرسالة (XII)

«تجربة الفقر»

نحن في شهر ديسمبر ومع ذلك فالمدينة كلها تتعرق! وقد أُطلق عنان الاحتفالات على حساب الدولة. في كل مكانٍ تصدح ضجة التحضيرات على نطاق عملاق. كما لو أن عطلات الساتورناليا[77] مختلفة عن يوم العمل العادي، بينما في الواقع لا يوجد فرقٌ، وهذا صحيح إلى درجة أن الرجل الذي قال بأن ديسمبر كان شهراً وأصبح سنة كان على حق في حساباته!

لو أنك معي لاستمتعتُ بمشورتك في أي أسلوبٍ نتبع: هل نبقي عاداتنا اليومية كما هي بلا تغيير، أو نخلع توجاتنا.[78] مرّت أزمانٌ كنا لا نغير فيها لباسنا العادي إلا في حالات المشكلات السياسية الخطيرة، بينما نحن الآن نغيره من أجل العطل والمتعة! ونقيم حفلات عشاء ذات طابعٍ مبهج كيلا يُظنَّ بأننا نخالف أعراف من هم حولنا. إن كنت أعرفك جيداً

---

77. احتفالٌ يدوم عدة أيام، يبدأ في السابع عشر من ديسمبر.
78. [Toga اللباس الاعتيادي للمواطنين الرومان، قطعة واحدة من القماش، بلا أكمام أو عنق، تغطي الجسد باستثناء الذراع اليمنى.]

كما أظن فأراك ستقول بأننا يجب ألا نكون مثلَ الحشد المحتفل، ولا عكسه تماماً. ولكن ربما هذا هو بالضبط الفصلُ من السنة الذي علينا فيه ضبطُ الروح بسيطرة صارمة، فنميزهُ بالامتناع عن اللذة بينما الحشدُ كله منكبٌّ عليها. إذا نجحت الروحُ في أن تتجنب الانجذاب - أو الانجرار بالاستفزاز - نحو الاغراءات التي تقود الناس إلى حياة الاحتفال البذخة، فسيكون ذلك أفضلَ دليلٍ ممكن على صلابة عزيمتها. أن لا نقرب المشروبَ ونبقى صاحين يتطلبُ كماً أكبر من العزيمة عندما يسكرُ الجميع حولنا إلى درجة التقيؤ. ومن جانبٍ آخر، فإن عدم تمييز المرء لنفسه يتطلب قدراً أكبر من الكفاءة: أن لا يكون مثله كمثل من حوله، وفي الوقت نفسه غير صريح في اختلافه، أن يفعل الأشياء نفسها ولكن ليس بالطريقة نفسها تماماً. لأن العطلة يمكن الاحتفال بها من دون حفلاتٍ فخمة.

على الرغم من ذلك، إنني عازم على أن أختبر قوة عزيمتك الأخلاقية بحيث أنني أقترحُ عليك الرأي التالي الموجود في تعاليم العظماء: حدد لنفسك بين الفينة والأخرى أياماً تأكلُ فيها أبسطَ الطعام، والقليلَ جداً منه، وتلبس فيها ثياباً خشنة قاسية، وتسأل نفسك: «أهذا ما كان المرء يخشاه؟» ففي أيام الأمان يجب أن تُحضِّرَ الروحُ نفسها للتعامل مع الأوقات الصعبة. عندما يغدق الحظ عليها عطاياه، فذلك هو وقت تقوية نفسها ضد رِدَّاتها. في أيام السلام، يقوم الجندي بمناورات، ويقيم تحصيناتٍ ضد عدوٍ غير موجود ويتعبُ نفسه في عذاب غير ضروري، وذلك كي يكون كفؤاً له وقت الضرورة. إن أردت أن تكون رجلاً يحافظ على عقله حين تقعُ الأزمة فعليك أن تدربه قبل وقوعها. هذا كان هدف

الرجال الذين يتظاهرون[79] بأنهم فقراء مرةً كلّ شهر، فيواجهون العوز وجهاً لوجه، ويمنعون الخوف من الفقر بالتمرُّنِ عليه دورياً.

لا تتخيل أنني هنا أتحدث عن وجبات كالتي يأكلها تيمون[80]، أو «غرفة الرجل الفقير» أو أي شيء آخر يلجأ إليه بذخ الثراء ليسلي ضجره. سريرُ القش يجب أن يكون حقيقياً وكذلك قميصك، ويكون خبزك قاسياً ومُسخَّماً. تحمل كل ذلك ثلاثة أو أربعة أيام كل مرة، وأحياناً أكثر، حتى تكون تجربةً حقيقية وليست تسلية. وفي نهايتها، صدقني يا لوسيليوس، سوف تقفزُ فرحاً لشبعك مقابل قرش، وسترى بأن الأمان من القلق ليس معتمداً على الحظ، فحتى عندما يغضب علينا يتركُ لنا ما يكفي حاجاتنا.

وليكن في علمك: لا تظننّ أنك تقدم على أمرٍ عظيمٍ بفعلِ ذلك، فأنت لا تفعل إلا ما يفعله آلاف وآلاف العبيد والفقراء. ولكن افتخر بشيء واحد، بأنك فعلت ذلك بمحض اختيارك الحر، ووجدت أنه لن يكون أصعب على الدوام من تجربته مرة كل فترة. علينا أن نتدرب على دمية، بحيث نكون مرتاحين مع الفقر الحقيقي فلا يستطيع الحظ أن يباغتنا به. سوف نكون أكثر راحة في ثرائنا عندما نستوعب كم أن الفقر بعيدٌ عن أن يكون حملاً ثقيلاً. المعلم المُتعي العظيم أبيقور كان يلتزم بفترات معينة لا يشبع فيها جوعه إلا قليلاً، وهدفه أن يرى كم يُنقِص ذلك —إذا كان

---

79. الأبيقوريون. وكما تشير بداية الفقرة التالية، فإن الأثرياء كانوا أحياناً يفرشون غرفة متواضعة لهذا الغرض خصيصاً.

80. Timon the Misanthrope تيمون الـ'مسينثروب' (كاره البشر)، عاش في أثينا حوالي 420 ق.م. اشتُهر بكرهه للمجتمع وأعماله المؤذية وانعزاله ونبذه، وعلى ذلك وحياته مضرب للمثل في الوضاعة.

يُنقِص أصلاً – من حصوله على متعته الكاملة، وإذا ما كانت هذه الزيادة تستحقُّ عناء الحصول عليها. هذا على الأقل ما يقوله في رسالة كتبها لبوليانوس في سنة حُكم كارينوس. ويتفاخر بأنه ينجح بإطعام نفسه بأقل من نصف قرش، بينما ميترودوروس الذي لم يصل بعد لمثل هذا النمو الجيد يحتاج نصف قرش كاملاً! أتظن مبلغاً كهذا لا يستطيع أن يفعل أكثر من إشباع شخص؟ إنه يستطيع إشباعه بالمتعة أيضاً، وليس النوع الفارغ العابر من المتعة الذي يحتاج تجديداً مستمراً، بل بالمتعة الأكيدة والباقية. عصيدة الشعير، أو قشرة خبز الشعير، ومعها الماء: ليست حمية مبهجة، ولكن لا شيء يمنح المرء متعة أعمق من قدرته على إيجاد المتعة حتى في ذلك، والإحساس بأنه توصَّلَ إلى شيء لا يمكن أن يُحرم منه بضربة حظ غير عادلة. حتى حصص الأكل في السجن أكثر كرماً، والمحبوسون بانتظار الإعدام لا يبالغ جلادوهم في قلة إطعامهم إلى ذلك الحد. أن يقلل المرء من طعامه إذاً، بخياره الحر، ويلتزم بحميةٍ لا يضطر لها حتى المحكوم عليهم بالموت: هذا فعلٌ من العظمة الروحية الحقيقية. إن الالتزام بذلك استباقٌ حقيقي لضربات الحظ. إبدأ إذاً، يا عزيزي لوكيليوس، باتباع نهج هؤلاء الرجال، وعيِّن أياماً محددة تتخلى فيها عن كل شيء وتجعل نفسك مرتاحاً باللاشيء تقريباً. ابدأ بتوطيدِ علاقةٍ مع الفقر.

الضيف العزيز، كن جريئاً ولا تلقِ بالاً

للثروات، واجعل نفسك، مثله،

تليق بإله.»[81]

فلا أحد يليق بإلهٍ إلا إذا لم يكترث بالثروات. وأنا، ضع في حسابك، لست ضد امتلاكك إياها، ولكنني أريد أن أتأكد من أنك تملكها بلا رعشات خائفةٍ من فقدانها، وهذا لن تصل إليه إلا بطريقةٍ واحدةٍ، عبر إقناع نفسك أنك تستطيع أن تعيش حياةً سعيدة بدونها، وأن تعتبرها دوماً أشياء على شفا الاختفاء.

ها قد حان وقت طي هذه الرسالة. «ولكن ليس قبل أن تسدد حسابك» أسمعك تقولُ لي. حسنٌ، سوف أحيلك إلى أبيقور ليدفع لك. «الغضبُ بإفراط يولّدُ الجنون». لا بد وأنك تعرف كم أن هذا حقيقي، لأن لك عبيدٌ وأعداء. ولكنه شعورٌ يشتعل ضد كل أنواع الناس، فهو يولد من الحب كما من الكره، وقابلٌ لأن يظهر في مسائل الرياضة والمزح بقدر ظهوره في الشؤون الجدية. العامل الذي يُحتسَبُ ليس أهميةَ السبب الذي نبعَ منه، بل نوعَ الشخصية التي يقعُ فيها، كما النار، لا يهمُ توهّجُ الشعلة، بل ما الذي تلتقطهُ، الأشياء الصلبة قد تقاوم أكثر الشُعل توهجاً، بينما على عكس ذلك، الأشياءُ الجافة والقابلة للاشتعال سوف تحضن أصغر شرارة حتى تضطرم. إنها حقيقة يا عزيزي لوكيليوس. إن الغضب العنيف يُنتجُ الهياج العقلي، ولذلك فالغضب شيءٌ يجب تجنبه لا من أجل الاعتدال، بل تجنباً للجنون.

---

81. Virgil, Aeneid, VIII: 364-365.

الرسالة (XIII)

«تقدم العمر والتمرّن على الموت»

لم يمض وقتٌ طويل مذ أخبرتك أني أرى عمري الكبير. الآن أخشى أنني قد تركت العمر الكبير ورائي تاماً، وعليَّ استعمال مصطلح آخر للتعبير عن سنواتي، أو على الأقل حالتي الفيزيائية الحالية، بما أن «الكبير» تعبر عن فترة الانحدار، وليس العجز. سجّلني في خانة العاجزين الذين هم على الحافة تماماً! ولكن ليكن في علمك أنني أُهنئ نفسي على أن عمري لم يتسبب، حسب ما أرى، بانحدارٍ في روحي، مع أنني أرى التدهور في جسمي. وحدها رذائلي وملحقاتها قد اهترأت: الروح ممتلئة بالحياة، وسعيدة بأن تعاملاتها مع الجسد باتت محدودة. لقد ألقت قسماً كبيراً من عبئها. إنها ممتلئة بالحيوية، وهي تحاورني في موضوع العمر الكبير، مصرةً أن هذه أفضلُ سنواتها. فلنقبل قولها، ولندعها تحظى بأقصى ما تستطيع من نعمها. إنها تطلب مني أن أبدأ بالتفكير وأتأمل كم أنا مدينٌ بهذه السكينة والصحوة للفلسفة؟ وكم أدينُ بها ببساطة لتقدمي في العمر؟ وأن أحققَ بعناية لأميزَ أي الأشياء أرفضُ فعلها وأي الأشياء لم

أعد قادراً على فعلها، وهي مستعدةٌ لقبول الحال بنفس الرضا: سواءٌ أكنت سعيداً فعلاً بأن أجد نفسي عاجزاً عن فعل شيء ما، أم كنتُ أرفضه وحسب. وفي آخر المطاف، أي سبب لدي للتذمر من شيء كان دوماً محتوماً أن يصل إلى نهايته متهاوياً بالتدريج؟ ما المزعج في ذلك؟

قد تقولُ أنت: «لا شيء مزعجٌ أكثر من فكرة انتهائنا وفنائنا – ذوباننا من الوجود، كما قد يدعوه المرء على نحو بليغ، لأننا لا ننتهي بضربة سريعة بل نهترئ شيئاً فشيئاً، حيث كلُّ يومٍ جديد يجتثُّ شيئاً من قدراتنا». هل ثمة طريقةٌ أفضلُ لمغادرة الحياة من انسيابِ المرء نحو نهايته عبر عملية التفكك التي تؤديها الطبيعة نفسها؟ ولا يعني ذلك أني أرى مغادرتها بسرعة وعنف شيئاً سيئاً، بل لأن التراجع التدريجي هو الطريق السهل.

على أي حال، إليك ما أفعله: أتخيل في نفسي أن وقت الامتحان قد اقترب، وأن اليوم الذي سوف يُعلن فيه الحكم على حياتي الماضية كلها قد أتى، **وأنظر إلى نفسي وأخاطبها بهذه الكلمات**: «كل ما قلته أو فعلته حتى الآن لا يحسب شيئاً. ما أظهرته حتى الآن، إلى جانب كونه مُزيناً، ذو قيمة تافهة ولا يعتمد عليه كفيلاً لمتانة روحي. سوف أترك للموت أن يحسمَ النمو الذي حققته. دون قلقٍ إذاً، أستعد لليوم الذي سوف تُزالُ فيه الحيل والأقنعة جانباً، وأصل إلى حكمٍ على نفسي يحددُ إذا ما كانت المواقف الشجاعة التي تبنيتها محسوسة فعلاً أم لغواً وكلاماً فارغاً، وما إذا كانت التحديات الجسورة التي رميتها في وجه الحظ مجردَ ادعاءاتٍ وتمثيلٍ. دعك من رأي العالمِ فيك، إنه دوماً غير محددٍ ومنقسم. دعك من المساعي

التي شغلتك طوال حياتك. الموت سوف ينطقُ بالحكم على حالتك. أجل، إن كل جدالاتك وجلساتك المثقفة، وكل كلامك العلمي والحِكم التي جمعت من تعاليم الفلاسفة، كلها لا تعبرُ بأي طريقة عن قوتك الروحية الحقيقية. الكلمات القوية تأتي حتى من أجبن الناس. وحدها أنفاسك الأخيرة ستظهرُ في أثناء لفظها الطريقة التي قضيت فيها حياتك. إنني أقبلُ الشروط، ولا أشعر بخوف من وصول الحُكم». هذا ما أقوله لنفسي، ولكن افترض أنني قلته لك أيضاً. أنت أصغر مني في العمر، ولكن ما الفرق في ذلك؟ السنوات لا تحتسب. فنحن لا نعلم من أين يتربص الموت بنا. عليك إذاً، من جانبك، أن تتوقعه في كل مكان.

كنت أنوي أن أتوقف، ويدي تتأملُ جملتها الأخيرة، ولكن الديون يجب أن تدُفَع وعليَّ أنْ أرفق مع هذه الرسالة تكاليف الرحلة! قد تفترض أنني لا أريد أن أعلن عن هوية المصدر الذي أستعير منه، فأنت تعلم من أموالِ من أستلفُ! أعطني وقتاً قصيراً وحسب وسأدفع لك من جيبي الخاص. حتى ذلك الحين سوف يكفلُ دَيني أبيقور بالقول التالي: «تمرّن على الموت». أو إن أخذتها على الشكل التالي: «إنه شيءٌ جيدٌ جداً أن يوطد المرء معرفته بالموت». قد تظن أن التمرين على شيءٍ لن تستعمله إلا مرةً واحدة ليس ضرورياً. ولكن هذا بالضبط هو السبب الذي يجب علينا أن نتمرن من أجله. علينا أن ندرس باستمرارٍ ما لا يسمح لنا موقعنا باختبار عمليٍ لفكرتنا عنه. 'تمرَّن على الموت'، قول ذلك يعني مطالبة المرء أن يتمرَّن على حريته. إن الذي تعلم كيف يموت قد نسي كيف يكون عبداً. إنه فوق، أو في أقل تقدير، بعيدٌ عن متناول ذراع القوى السياسية. فماذا تعني له السجون والحراس والقضبان؟ إن طريقه مفتوحٌ أمامه. هنالك

سلسلة واحدة تكبلنا، وهي حُبنا للحياة. ولا حاجة بنا لرمي هذا الحب كله بعيداً، ولكن يجب تخفيفه قليلاً حتى – إذا تطلبت منا الظروف – لا يمنعنا شيءٌ من القيام على الفور بما يتحتمُ علينا فعله يوماً ما.

الرسالة (XIV)

«شراء العقول»

تقول لي: «أتقدمُ لي النصيحة أليس كذلك؟ هل قدمت النصح لنفسك أولاً إذاً؟ هل قوَّمت نفسك؟ أم هكذا تجدُ الوقت كي تصلحَ الآخرين؟». لا أنا لست عديم الحياء بحيث أعالج الناس من مرضي. عندما أكتب إليك، فكأني أستلقي معك في قاعة المستشفى، وأحدّثك عن المرض الذي نعاني نحن الاثنان منه، وأمرر لك بعض العلاجات. فاستمع إلي كما لو أنني أكلمُ نفسي. إنني أسمح لك بالدخول إلى ذاتي الأكثر عمقاً، داعياً إياك أن تنصحني في نقاشي مع ذاتي. أقول لنفسي: «عدّي سنينك وستشعرين بالخجل من أنك ترغبين بالأمور نفسها التي أردتها في الطفولة وما زلت تعملين من أجلها. احرص على هذا بالذات في يوم موتك: أن تموت أخطاؤك قبلك. انتهِ من هذه المُتع المبعثرة التي تكلف الإنسان الكثير، فهي تؤذي بعد أن تنتهي وترحل وليس خلال حصولها وحسب. وحتى عندما تنتهي، فإن المتع ذات الطبيعة الفاسدة قادرة على جلب مشاعر عدم الرضا، بنفس الطريقة التي لا ينتهي فيها

قلقُ المجرم بعد ارتكاب الجريمة، حتى لو أنها لم تُكتشف. مثل هذه المتع غير مفيدة ولا يعتمد عليها، وحتى إن لم تؤذ المرء فهي بطبيعتها عابرة. ابحث حولك عن خير باقٍ بدلاً منها. ولا شيء يطابق هذا الوصف إلا ما تكتشفه الروح بنفسها في نفسها. الشخصية الجيدة هي الضمانة الوحيدة للسعادة الدائمة الخالية من القلق. وحتى لو ظهرت عقبة أمام ذلك، فإن ظهورها لا يمكن مقارنته إلا بالغيوم التي تمر أمام الشمس من دون أن تهزم نورها».

متى سوف يسعفك الحظ للوصول إلى هذه السعادة؟ حسنٌ، إنك لم تتباطأ في مشيك حتى الآن، ولكنك تستطيع أن تستحثَّ خطاك. هنالك الكثير من العمل الباقي أمامك، وإن كنت تريد النجاح فعليك أن تكرّس كل ساعات يقظتك وكل جهودك لهذه المهمة شخصياً. فهذا مما لا تستطيع تكليفَ غيرك به. ثمة أنواع أخرى من المعرفة تحتملُ المساعدة الخارجية. كان هنالك رجلٌ ثريٌ يدعى **كالفيسيوس سابينوس** عاش في حياتي، وكان يملك عقل – وثروة – رجلٍ حر. لم أرَ في حياتي سوقيةً أكبر في رجلٍ ناجح. وكانت ذاكرته سيئة إلى درجة أنه في لحظاتٍ تنزلق من ذاكرته أسماءُ **عوليس**، أو **آخيل**، أو **بريام**[82]، وهي شخصيات نعرفها جيداً كما نعرف أساتذتنا الأوائل. ليس هنالك حاجبٌ خرفٌ يتمادى في نسيان أسماء الواقفين بالباب كما كان يفعلُ سابينوس مع أبطال الإغريق وطروادة، بحيث لا يدعو الناس بأسمائهم بقدر ما يدلّس عليهم أسماء تخطر له. ولكن هذا لم يمنعه من الرغبة في أن يبدو واسع القراءات

82. [عوليس: الاسم الروماني لأوليسس أو أوديسيوس بطل الأوديسة. آخيل: بطل حرب طروادة والشخصية الرئيسية في الإلياذة. بريام: ملك طروادة في الإلياذة، وزوجته هيكوبا يمرُّ ذكرها لاحقاً]

والاطلاع. ومن أجل ذلك اتبع الطريق المختصر التالي: أنفق ثروة كبيرة على العبيد، أحدهم يحفظ هوميروس، والآخر هزيود، بينما عيّن عبداً مخصوصاً لكل من الشعراء الغنائيين التسعة.[83] ولا مفاجأة في ضخامة الكلفة التي أنفقها، فهو عندما لم يجد ما أراد في السوق طلبَ تدريبهم خصيصاً. وبعد أن جُلبت له مجموعة العبيد هذه، بدأ بتعريضِ المدعوين للعشاء عنده إلى كوابيس، فيجعل هؤلاء العبيد يقفون بجانبه كي يلقنونه باستمرار اقتباسات من الشعراء كي يكررها على صُحبته، ومن ثم - وهذا يحصل كثيراً - يتلعثم في وسط كلمة ما. ساتيليوس كوادراتوس، الذي كان يعتبر المليونيرات الأغبياء صيداً حلالاً لاقتناص الأموال، اقترح عليه أن يضمَّ فريقاً من العلماء كي «يلمّوا الفتات». وعندما صرَّحَ سابيوس بأن العبيد كلفوه 100 ألف سسترس للواحد منهم، قال له: «أجل، بسعر أقل من ذلك كنت تستطيع أن تشتري العدد نفسه من رفوف الكتب». ولكن سابينوس كان على الرغم من ذلك مقتنعاً بأن كلَّ ما يعرفه أحدٌ يعيشُ في عهدته يعتبرُ من معرفته الشخصية. وكان ساتيليوس مجدداً، هو الذي حثّ سابينوس (الشاحب والنحيل وضعيف الصحة) على أن يمارس المصارعة.

وعندما رد سابينوس: «كيف لي أن أفعل ذلك؟ إني بالكاد أبقى حياً». أجابه ساتيليوس: «لا، رجاءً لا تقل ذلك، انظر إلى عدد العبيد ذوي الصحة الممتازة الذين تملكهم!»

---

83. Alcaeus, Sappho, Stesichorus, Ibycus, BacchylidesSimonides, Alcman, Anacreon, Pindar

[هؤلاء كانوا وقتها يعتبرون متناً لا غنى عنه من الشعر اليوناني لدى الرومان، وعاشوا ما بين القرنين السابع والخامس قبل الميلاد]

العقل السليم لا يُشترى ولا يُعار. ولو إنه عُرضَ للبيع فأشك في أن يجد شارياً. ولكن العقول الفاسدة تُشترى كلَّ يوم.

دعني أدفع الآن ما أدين لك به وأودّعك. «الفقر الذي يُوصل إلى انسجامٍ مع الطبيعة ثراء». أبيقور ما ينفك يكررُ هذه الفكرة بطريقة أو بأخرى. ولكن ما لا يمكن الإفراطُ في تعلمه لا يمكنُ الإفراط في قوله. بعض الناس لا يحتاجون سوى أن تشير إلى العلاج، وغيرهم يحتاجون لأن تحشره في حلوقهم.

الرسالة (XV)

«الترحال علاجاً للكآبة»

هل تظن أنك الوحيد الذي مر بهذه التجربة؟ هل أنت مفاجأ حقاً؟ كما لو أنها شي غير مسبوق؟ كلُّ التجوال الطويل هذا وكل هذا التنوع الضخم في المشاهد لم يمكّناك من رمي هذا الحزن جانباً والتخلص من هذا الاكتئاب؟ إن ما تحتاجه تغيرٌ في الشخصية لا في الهواء. فمع أنك تقطع بحاراً شاسعة، ودعنا نستخدم كلمات فرجيل:

أراض وبلدات قُطعت وتُركت[84]»

مهما كانت وجهتك سوف تلحق بك إخفاقاتك. إليك ما قاله سقراط لمن اشتكى من الموضوع نفسه: «كيف تستغرب من أن رحلاتك لا تفيدك وأنت تحمل نفسك معك؟ إنك مربوطٌ إلى الشيء الذي دفع بك إلى الرحيل». كيف لجِدَّةِ ما يحيطُ بك والتعرفِ على بلادٍ ومدنٍ أجنبية أن يفيداك في شيء؟ كل هذا التنقل السريع تبيّن عقمه. وإن شئت أن تعرف

84. Aeneid, iii: 72.

لماذا لا يساعدك كل هذا الهرب، فالإجابة ببساطة هي التالي: إنك تهرب بصحبة نفسك. عليك أن تلقي جانباً الحِمل من على روحك. وقبل أن تفعل ذلك لن يرضيك أي مكان. إن حالك كحال المتنبئة التي يصوّرها فرجيل ممسوسة ومهتاجة، تهيمن عليها روحٌ ليست روحها:

الكاهنة تهتاج وتصارع

آملة في طرد الإله القوي

داخل صدرها"[85]

أنت تهرع هنا وهناك متوقعاً أن تنتزع ثقلاً متشبثاً بقوة بينما الهرعُ نفسه يزيد من الحمل على كاهلك: كالحمولة على سفينة: لا خطرَ من وزنها إذا ثبتت، ولكن إذا تدحرجت من جانبٍ واستقرت في الآخر فقد يغرق الجانب الذي انزلقت إليه الحمولة ويودي بالسفينة. كل ما تفعله يضرك، والحركة بحد ذاتها مضرةٌ لك لأنك في الواقع تهزُّ رجلاً مريضاً.

ولكن ما إن تخلص نفسك من هذا المرض حتى يصبح كل مشهد يتغيرُ متعةً. قد تُنفى إلى أواخر الأرض، ولئن وجدت نفسك في أبعد زاوية من العالم فلسوف تلقاها مرحبة بك كبيتك. المكانُ الذي تصل إليه غير مهم بقدر ما يهم نوع الشخص الذي ستكونه حين تصل إلى هناك. علينا إذاً ألا نمنح قلوبنا إلى الأبد لأي مكانٍ في العالم. علينا أن نعيش بالقناعة التالية: «أنا لم أولد لأي بقعةٍ بعينها، العالم كله وطني». إذا توضحت لك هذه الحقيقة فلن تتفاجأ من أن تنوع الأماكن التي تزورها

---

85. Aeneid. VI; 78-79.

(لضجرك من القديم) تخفقُ في إفادتك. لكانَ سيرضيك أيُّ مكان تصله أولاً لو أنك تؤمن بأنك في وطنك في كل مكان. ولكن والحال كما هي، فإنك بدلاً من السفر تندفع وتنجرف، تبدلُ مكاناً بآخر بينما الشيء الذي تبحث عنه، الحياة الجيدةُ، موجودٌ في كل مكان.

هل هناك مشهدٌ أكثرُ عنفاً من المدينة؟ ولكن حتى هناك، إن دعت الضرورة، تبقى حرّاً في أن تعيش حياة مسالمة. على الرغم من ذلك لو أنني مُنحت الحرية في الاختيار لهربت بعيداً جداً عن جوار أي مدينة، ناهيك عن السكن فيها. فكما أن هنالك مناخات مرهقة حتى لأكثر أجساد الرجال صلابة، فهنالك أيضاً بيئاتٌ تؤذي العقولة السليمة، إن كانت لمّا تزل غير مثالية وتبني قوتها. أنا لا أتفق مع الذين يوصون بحياة عاصفة ويرمون بأنفسهم إلى الأمواج العاتية، فيخوضون صراعاً روحياً ضد العقبات الدنيوية في كل يوم من حياتهم. الحكيمُ يتحملُ هذه الأشياء ولكنه لا يسعى إليها عن قصد، بل يفضلُ حالاً من السلام على الحرب. لن يفيدَ الرجلَ كثيراً خلاصه من إخفاقاته إذا كان سيتشاجرُ دوماً مع إخفاقات الآخرين. سيقولون لك: «إنَّ سقراط وقف فوقه ثلاثون طاغية[86] ولم يستطيعوا تحطيمه». ما الفرق في عدد السادة الذين يخضع لهم المرء؟ العبودية مفردةٌ ولو تعدّد ساداتها، ومن يرفض أن يدع فكرتها تؤثرُ فيه يبقى حراً أياً كان عدد الأرباب من حوله.

لقد حان أوان مغادرتي ولكن ليس قبل أن أدفع الرسوم المعتادة! «وعيُ فعلِ الخطأ الخطوة الأولى نحو الخلاص». ملاحظة أبيقور هذه

---

86. [الطغاة الثلاثون: هم من حكموا أثينا بوحشية دموية ثمانية أشهر إثر هزيمتها في الحرب البيلوبونيزية أمام اسبرطة عام 404 ق.م. وعارضهم سقراط وخالف أوامرهم المباشرة.]

جيدة جداً، لأن الشخص الذي لا يعي انه يأتي خطأً لا تكون عنده الرغبة في تصحيحه. عليك أن تمسك بنفسك في الجرم المشهود قبل أن تصلح خطأك. بعض الناس يتفاخرُ بإخفاقاته: أتتخيلُ أنّ شخصاً يحسب أخطاءه مزايا سيفكر في علاجها؟ إذاً، وبأفضل ما تستطيع، أثبت لنفسك ذنبك، وأقم تحقيقاتٍ بنفسك في الأدلة ضدك. العب دور المدعي ثم القاضي وأخيراً المحامي الذي يطلب تخفيف العقوبة. واقسُ أيضاً وارفض استئنافك أحياناً.

الرسالة (XVI)

«الحِكَم المقتطعة، والخروج من ظل المعلمين»

تشعرُ بأن رسائلي الحالية يجب أن تكون كرسائلي السابقة وتحمل في صفحاتها أقوالاً غريبة للرواقيين الرائدين. ولكنهم لم يشغلوا أنفسهم قط بالجواهر الفلسفية؛ إن نظامهم بأكمله أكثر فحولةً من ذلك. عندما تبرزُ أشياء عن غيرها وتجذب الاهتمام في عمل ما فكن واثقاً من أن فيه شيئاً من الاضطراب. الشجرةُ الواحدة لا تجذب الإعجاب إن كانت الغابة كلها بالارتفاع نفسه. الشعر يعجُّ بمثل هذه الأشياء، وكذلك التاريخ. فرجاءً لا تحسب هذه الأقوال خاصة بأبيقور، فهي ملكيةٌ عامة، وتنتمي إلينا نحن بالذات أكثر من الجميع، على رغم أنها تلقى اهتماماً أكبر في كتاباته لأن المسافات كبيرةٌ بينها في نصوصه، وتأتي حيثُ لا تتوقعها، ولأنه من المفاجئ إيجاد أقوال شجاعة كهذه لدى شخص يعتبره معظم الناس داعيةً إلى الحياة الرخوة. من وجهة نظري أنا، فإن أبيقور في الواقع،

وعلى الرغم من أكمامه الطويلة[87]، رجل مهتمٌ بالروح أيضاً. الشجاعة والطاقة والروح المحاربة صفاتٌ توجد عند الفارسيين [الذين يطلبون أكمامهم] كما توجد عند من يرتدون ثياباً أليق بأفعال الرجال.

فلا سبب لديك إذاً لتطالب بالمقاطع الجاهزة، نظراً لأن ما هو مُنتقى في أعمال مفكرين آخرين هو في حالتنا كتابةٌ مستمرة. ولذلك لا ندخل أنفسنا في ممارسة ترتيب الواجهة لجذب العيون، فنحن لا نخدع الزبون، بحيث لا يجد حين يدخل المتجر أشياء تختلف عن المعروضة على الواجهة. ولهُ أن يأخذ عينات من حيث يشاء. وافترض أننا شئنا أن نفصل الأقوال المأثورة عن الحشد حولها، فإلى من ننسبها؟ زينون؟ كليانسز؟ كريسيبوس؟ بانياتوس؟ بوسيدونيوس؟[88] نحن الرواقيين لسنا رعايا حاكم، كلٌّ منا يؤكد حريته الخاصة. عند الأبيقوريين كل ما يقوله هيرماركوس أو ميترودوروس ينسب إلى رجلٍ واحد فحسب، فكل شيء قاله أي عضو في تلك الأخوية إنما قاله ضمن مرجعية شخصٍ واحد وتحت رعايته. سأكرر إذاً، إنه من المستحيل علينا، مهما حاولنا، أن

87. [عند الرومان القدماء، القميص الذي لا أكمام له كنايةٌ عن الحيوية والفعل، والأكمام الطويلة بعكس ذلك كناية عن الرخاوة والكسل.]

88. [كلهم فلاسفة رواقيون: Zeno زينون: أسس الفلسفة الرواقية بعد أن كان كلبيّاً، وذلك في أوائل القرن الثالث قبل الميلاد، وواضعُ أهم عقائدها، معتبراً أن الأخلاق أهم جوانب الفلسفة. كريسيبوس وكليانسز مرّ ذكرهما في رسائل سابقة. Posidonios بوسيدونيوس: (حوالى 135-51 ق.م) يوناني من مولد سوري، تلميذ بانياتوس، ومؤرخ وعالم (درس مثلاً المحيطات والمد والجزر، والثقافات البدائية، وحسب محيط الأرض وبعدها عن الشمس). حضرَ سيسرو محاضراته. وكانت كتاباته منتشرة على نحوٍ واسع، وكان يرى – وهذا غريبٌ بين الرواقيين – أن الروح لا تفنى مع الجسد. Panatius بانياتوس: (182-109 ق.م) من رودس، وكان على معرفة بالعديد من الرومان النافذين، ولأنه معلم بوسيدونيوس فقد كان مؤثراً في سيسرو، وكان له دور كبير في تقديم الرواقية إلى الرومان.]

نتقي قطعاً فردية من مخزون شاسعٍ إلى هذا الحد، وكل شيء بجودة ما يليه.

إن الفقير هو الذي يعدُّ قطيعه"[89]

أينما نظرت ستقعُ عينك على أشياء قد تبرز لولا أن كل ما حولها يساويها في العيار.

تخلَّ إذاً عن آمالك بفهم عبقرية الشخصيات العظيمة باستعمال مقاربة خاطفة كهذه؛ عليك أن تتفحصها وتتأملها ككل. هنالك توالٍ في العملية الخلاقة، وعمل العبقري مُركَّبٌ من مميزاتٍ فردية لا يمكنك اختزال إحداها من دون كارثة. ليس عندي اعتراضٌ على تفحصك المكونات كلاً على حدةٍ شرطَ ألا تفصلها عن الشخصية التي تنتمي إليها. المرأةُ لا تكون جميلةً عندما يُمدحُ كاحلها أو ذراعها، بل عندما يبدو مظهرها الكُليّ فيلهي المادحين عن أجزاء جسدها.

على الرغم من ذلك، إن ضغطت علي فلن أكون شحيحاً معك، وستجد مني الكرم مبسوط اليدين. هنالك تلالٌ من مثل هذه الأقوال المأثورة، قدرٌ عملاقٌ منها، وهي ملقاة في كل مكان، لا تحتاج إلا من ينتقيها فرادى من جموعها. فهي لا تأتي قطراتٍ ونقطاً، بل في تيارٍ مستمر ومترابطٍ على نحوٍ دقيق. ليس عندي شكٌ أيضاً في أنها قد تكون مفيدةً جداً لغير المُلقَّنين ولمن لم يزل مبتدئاً، لأن الأقوال المأثورة المفردة، عندما تُجمع في سطورٍ مُرقّمة كالشِعر، ترسخ في العقل بسهولة أكبر. ولهذا

89. Ovid, Metamorphoses, XIII: 824

السبب نعطي الأطفال أمثالاً وما كان الإغريق يدعونه Chriae ... يحفظوها عن ظهر قلب، فعقل الطفل قادرٌ على تقبلها في تلك المرحلة، بينما الأعقدُ منها خارج حدود قدراته. أما في حالة الرجل الناضج الذي حقق تقدماً لا شك فيه، فمن المعيب تعقّب جواهر الحكمة، بحيث يزيّن نفسه بعدد ضئيل من الأقوال الأكثر شهرة. ويجعله ذلك معتمداً على ذاكرته أيضاً، فقد آن أوان وقوفه على قدميه: يجب أن يُلقي من ذاته بأقوالٍ كهذه، لا أن يحفظها. من المعيب على رجل عجوزٍ أو قارَبَ على الكبر في العمر أن يستقي حكمته من دفاتره. «زينون قال هذا» وماذا قلت أنت؟ «كليانسز قال ذلك» وماذا قلت أنت؟ كم من الوقت ستبقى تعمل تحت وصاية الآخرين؟ استحوذ على سلطة نفسك وقل شيئاً قد يُحفظُ لاحقاً للأجيال القادمة. أنتج شيئاً من ينابيع ذاتك.

ولهذا أرى في هؤلاء أناساً بلا روح: أناساً يبقون مُفسِرين مدى الحياة، قابعين دوماً في ظل أحدٍ آخر، ولا يصبحون خلّاقين أبداً. فلا يغامرون ليفعلوا بأنفسهم الأشياء التي قضوا وقتاً طويلاً في دراستها. يُدرِّبون ذاكرتهم على أشياء ليست ملكهم. ولكن التذكرَ شيء، والمعرفة شيءٌ آخر. أن تتذكر يعني أن تحمي شيئاً مؤتمناً في ذاكرتك، بينما أن تعرف، بالتباين مع ذلك، هو أن تجعل الشيءَ ملكك، وألا تكون مُعتمداً على ما نسختَ فتعاودُ النظر باستمرار لترى ما الذي قاله المعلم. «زينون قال هذا، كليانسز قال ذاك»: دعنا نجد فرقاً بينك وبين كتبك! كم من الوقت سوف تبقى تلميذاً؟ من الآن فصاعداً علِّم بعض الشيء أيضاً. فلماذا يجب

90. [أقوال مأثورة وتعابير شعبية ضرورية للاستخدام اليومي.]

أن استمع، أصلاً، لما يمكنني أن أقرأه بنفسي؟ يمكن أن يُجاب: «الصوت الحي له قيمة كبيرة». ولكن ليس عندما يكون ناطقاً بالتوكيل وحسب، جاعلاً نفسه أداةً صوتية لما قاله الآخرون.

وعلاوةً على ذلك أيضاً، فإن هؤلاء، الذين لا يستقلون أبداً، يتبعون آراء من سبقوهم، أولاً في مسائلَ قد تخلى فيها الجميعُ بلا استثناء عن المرجعية القديمة التي يحفظونها، وثانياً في مسائل لما يزل التحقيق فيها غير مكتملٍ. ولكننا لن نصل إلى كُشوفٍ جديدة إذا بقينا راضين بنتائج الماضي. وإلى جانب ذلك، فإن الذي يتبعُ شخصاً آخر لا يخفق في اكتشاف الجديد وحسب، بل هو ليس باحثاً عنه حتى. «ولكنك بالتأكيد سوف تتبع خُطى من سبقوك». أجل بالتأكيد، سأستعمل الطريق القديمة، ولكن إن عثرت على طريق أقصر وأسهل فسوف أشقها. الرجالُ الذين كانوا روّاداً للطريق القديم قادةٌ، ولكنهم ليسوا أسيادنا. الحقيقةٌ مفتوحة للجميع. لم يحصل حتى الآن احتكارٌ للحقيقة. والكثير منها ينتظر اكتشاف الأجيال القادمة.

الرسالة (XVII)

«نبرُ الكلام كزرع البذور»

أنت محقٌّ في أن علينا تبادل الرسائل أكثر. الفائدة الأكبر تأتي من الحديث لأنه يتسلل رويداً رويداً إلى العقل. المحاضرات المحضَّرة مسبقاً والمقدمة لجمهور من المستمعين أكثر جهوريةً، ولكنها أقل حميمية. الفلسفة نصحٌ جيد، ولا أحد يقدم النصح بأعلى صوته. مثل هذه الخطب الهدَّارة، إذا صح أن أسميها كذلك، قد تدعو إليها الحاجة من وقتٍ إلى آخر عندما يقع شخص في حالة من اللا قرار ويحتاج دَفعةً. ولكن عندما لا يكون الهدف ترغيبه بالتعلم، بل تعليمه، فعلى المرء العودة إلى هذه النبرات الأخفض، التي تدخل العقل أسهل وتعلق فيه. ما هو مطلوبٌ ليس كلماتٍ كثيرة، بل كلمات مؤثرة.

الكلمات ينبغي أن تغرس كالبذور، مهما كانت البذرة صغيرةً، فإنها، عندما تسقط على النوع الصحيح من التراب، تتفتحُ قوتها وتتنامى من قدر ضئيلٍ إلى حجم عملاق. العقلُ يفعل الشيء نفسه، تبدو أبعاده قليلة للعين الخارجية، ولكنه مع العمل يبدأ بالتطور. مع أن الكلمات قليلة

سوف تستجمع قواها -- إذا تقبّلها العقل كما يجب - وتنهض نحو الأعلى.
جل للعقائدِ تأثير البذور، هي ذات أبعاد صغيرة وتُنبتُ نتائج مبهرة، إذا
جدت - كما قلت - العقل الصحيح الذي يمسك بها ويستوعبها.
ستجيبُ عندها العقلُ فيصيرُ خلاقاً وينتج محصولاً يفوقُ ما وُضِعَ فيه.

الرسالة (XVIII)

«سرعة الكلام والتمهّل فيه»

شكراً لأنك تكتب لي بهذه الكثرة. إنك تمنحني بذلك لمحة عن نفسك بالطريقة الوحيدة التي تستطيعها. لا تصلني منك رسالة دون أن أشعر فوراً أننا معاً. إن كانت صور الأصدقاء الغائبين تُسعدنا، على رغم أن السلوى التي تمنحنا إياها من إحساس الفجوة سلوى شحيحة أو غير حقيقية، فكم إن الرسائل تسعدنا أكثر، فهي تحمل علامات الصديق الغائب وشمائله الحقيقية. لأن خطَّ الصديق يمنحنا روعة رؤيته مجدداً بحد ذاتها: ذلك التعرّفُ إلى الملامح.

تقول في رسالتك أنك ذهبت واستمعت إلى الفيلسوف سيرابيو عندما رَسَت سفينته حيثُ كنت. تقول: «كلماته تتدحرج بسرعة هائلة، ولا يتركها تخرج تباعاً، بل تندفعُ وتموج فوق بعضها بعضاً بدلاً من أن تتدفق، فالكلمات تأتي بأعداد لا يقدرُ أن يتلفظها صوتٌ واحد». إنني لا أوافق على هذا في الفيلسوف، الذي يجب أن يكون أداؤه – كحياته – منظماً جيداً. لا شيءَ يمكن أن يكون منظماً جيداً إذا فُعِل بسرعة البرق.

ذا يتحدث هوميروس عن النوع العنيف من البلاغة ويشبهه بالثلج
لذي يهطل دون انقطاع، وهو للخطيب، بينما الرجل العجوز يأتيك
بلاغة هادئة «تتدفق أحلى من العسل».(٩) لذلك، كن واثقاً بما أقول: إن
هذا الأسلوب الغزير والعنيف أليَقُ بالبائع الجوال من رجلٍ يتعامل مع
وضوع ذي أهمية جدية، بل هو يدرِّسهُ أيضاً.

ولكنني أعارض بنفس القدر أن تأتي كلماته قطرات، إذ عليه ألا يبقي
ذان الناس مُتعطشةً ولا أن يغرقها. فهذا التطرف المقابل من الرقة والقلة
يلقى انتباهاً أقل من جانب المستمع حين يتعبُ من هذا البطء وكل
تقطعاته. على الرغم من ذلك، ما يُنتظر على مهلٍ ينغرسُ أفضل مما يعبر
على جناح السرعة. إن الذي يتحدث في أي سياق تعليمي يتحدثُ وكأنه
يمسك بالأمر ويضعه بين أيدي من يتعلمون، وما يَفلِتُ ويقعُ من يد المرء
لا يُؤخذ به.

علاوة على ذلك، فاللغة التي تكرس اهتمامها للحقيقة يجب أن تكون
بسيطة وغير مزركشة. الأسلوب الشعبي ليس له علاقة بالحقيقة. هدفه
أن يقنع حشداً من المستمعين، أن يحمل بقوة اندفاعه الآذان غير المدربة إلى
حيث يريد، ولا يتأنى فيسمحَ بأن يكون موضع نقاش، بل يهبُّ هارباً.
ومن ثم كيف يمكن لشيء أن يحكمَ الآخرين إن لم يستطع أن يحكمَ
نفسه؟ وبصرف النظر عن كل ذلك، فمن المؤكد أن اللغة التي تهدف إلى
شفاء عقول الرجال ينبغي أن تدخل عقولهم أولاً؟ الأدوية لا تفيد في
شيء إن لم تبق داخل المرء مدةً من الزمن. وهنالك فضلاً عن ذلك الكثير

9. Iliad, III: 222 and I:249.

من العقم والفراغ في هذا الأسلوب من الحديث، والذي يحتوي ضع أكثر من الفعالية. هنالك مخاوفُ يجب إسكاتها، واستفزازاتٌ يجب تهدئتها، وأوهام يجب تبديدها، وغلوٌ يجب الحد منه، وجَشعٌ يجب تأنيبه: أي هذه الأشياء يمكن فعلها بسرعة؟ أي طبيبٍ يستطيع أن يشفي الناس بمجرد المرور بهم؟ وقد يضيف المرءُ أيضاً أنه لا توجد متعةٌ في مثل هذا التيار الهدار المختلط من الكلمات. وكما يكفي المرء أن يرى شيئاً - كان يحسبه مستحيلاً - مرة واحدة كي يقتنع أنه ممكن، فكذلك يكفي الاستماعُ مرةً واحدةً لهذه الاستعراضات بالكلمات لاستيعاب فشلها. إذ ما الذي تحتويه، في آخر المطاف، حتى يرغب أحدٌ أن يتعلمه أو يقلده؟ ما النظرة التي يأخذها المرءُ عن عقل الإنسان إذا كان حديثه منفلتاً وغير متناسق وبلا ضوابط؟

سرعة اللفظ هذه توحي بشخصٍ يركضُ على منحدرٍ هابطاً ولا يقدر على التوقف حيث يريد، فيذهب أبعد مما يرغب تحت رحمة اندفاع جسده. هذا شيءٌ خارجٌ عن السيطرة، ولا يليق بالفلسفة، التي يجب أن تنتقي كلماتها بعناية - لا أن ترميها في الأرجاء - وأن تتحرك نحو الأمام خطوة خطوة. «ولكنها بالتأكيد تستطيع أن تتحرك على مستوى أعلى بين الحين والآخر؟». بالتأكيد، لكن يجب أن يكون ذلك مع الحفاظ على كرامةِ طبيعتها، وهذه الطاقة العنيفة المفرطة تسلبها إياها. القوةُ يجب أن توجد، قوةٌ هائلة، ولكن يجب أن تكون تحت السيطرة: يجب أن تكون نبعاً لا يتوقف، ولا يفيض. حتى في المرافعة أكره السماح بمثل هذه السرعة الخارجة عن السيطرة في الكلام التي تأتي باندفاعٍ عنيف. كيف يمكن أن نتوقع من قاضٍ (الذي ليس قليلاً ما يكون غير متمرس وغير كفء) أن

يجاريها؟ حتى في الحالات التي ينجرف فيها المحامي بفعل شغفٍ لا يمكن ضبطه، أو رغبته بعرض قدراته، فيجب ألا يسارع من إيقاعه فيراكم الكلمات فوق طاقة الأذن.

سوف تفعل الشيء الصحيح إذاً إن تركت الاستماع لمن يهتمون بكمية قولهم أكثر من نوعيته، واختر لنفسك – إن أُجبرت على الاختيار – أن تتحدث مثل بوبليوس فينيكوس. عندما سُئلَ أسيليوس كيف يتحدثُ بوبليوس، قال: «بإيقاع بطيء»، ويعترضُ جيمينوس فاريوس عليه: «كيف يمكن لكم أن تقولوا عن الرجل أنه بليغٌ لا أدري، فهو لا يستطيع أن يربط ثلاث كلماتٍ ببعضهن». هل هناك سببٌ يدفعك ألا تختار أسلوب فينيكوس من بين الاثنين؟ يمكنك أن تتوقع أن يقاطعك أشخاصٌ قليلو الذوق كما حصل لفينيكوس وهو يلفظُ كلماته واحدة واحدة، وكأنه يملي على أحدهم بدلاً من الحديث، فقال له أحدهم: «إني أطلب من المتكلم أن يتكلم». أما سرعة كوينتوس هاتيريوس، وهو متحدث مشهورٌ في زمانه، فهي شيءٌ أنصح كل عاقل بالابتعاد عنه: كان لا يتردد أو يتوقفُ أبداً، له بداية واحدة ووقفة واحدة.

ولكنني أظنُّ أيضاً أن بعض الأساليب أليق بالجنسيات المختلفة. فالمرءُ يتحملُ من اليوناني قلة الانضباط هذه، بينما تعودنا على أن نضع سكتاتٍ في ما نقوله، في الكتابة والكلام أيضاً.[92] وسيسرو أيضاً – الذي تنبع منه الخطابة الرومانية في الواقع – كان يحافظُ على إيقاعٍ ثابت. النقاش

92. [اليونانية واللاتينية القديمتين كانتا تكتبان بالخط للتواصل (scriptura continua) أي من دون فراغات بين الكلمات، وفي زمن سينيكا بات تقطيع الكلمات اللاتينية شائعاً، بينما استمر الخط للتواصل لليونانية.]

الروماني يميل إلى تفحص النفس أكثر، فيقيِّمُ نفسه ويدعو إلى تقييمه. فابيانوس - الذي أضاف الخطابة المذهلة إلى خصله الأكثر أهمية منها: طريقة حياته وعِلمه - كان يناقش المسائل بحزمٍ بدلاً من أن يناقشها بسرعة. يمكن لك أن تصف خطابته بأنها ليست سريعة ولكن متدفقة: مثلُ هذا أنا مستعدٌ لأن أراه في فيلسوف، ولكنّي لا أصرُّ عليه. كلامه يجب ألا يتعثر، ولكنني أفضل تمهّلَ الكلمات على تدفقها. ثمة سببٌ إضافي لأحذرك من هذا المرض، وهو أنك لا تستطيع إدراكه إلا إن فقدت كل إحساس بالعار. عليك حقاً أن تفرك جلد وجهك بقوة لتزيل الخجل ومن ثم تصمُّ آذنيك عن صوتك! لأن تلك السرعة غير المنضبطة سوف تؤدي إلى الكثير من التعابير التي كنت سترفضها لولا العجلة. إنك لا تستطيع، أكرر، أن تمتلكَ هذا الأسلوب وتحافظ على حيائك في الوقت نفسه. يحتاج المرء علاوة على ذلك إلى أن يمارسه يومياً. وهو يتطلبُ نقل الاهتمام أيضاً من الموضوع إلى الكلمات. وحتى لو حصل أن الكلمات وصلت جاهزة إلى اللسان وقادرة على الانزلاق عنه دون جهد منك، فستبقى هنالك حاجةٌ لضبطها. فكما تليق بالحكيم المشية الخالية من التكبر، كذلك يليق به الأسلوب المنضبط من الكلام. زبدة ما أريد قوله إذاً هي التالي: إنني أقول لك أن تكون متحدثاً بطيئاً.

الرسالة (XIX)

«الألوهة والطبيعة»

إنك تحسنُ صنعاً وتتصرف بأفضل ما يلائم مصلحتك إذا كنت، كما تقول رسالتك، تجتهد في مساعيك للحصول على فهمٍ سليم. هذا شيءٌ من الغباء أن تصلي لأجله بينما تستطيع أن تكسبه ذاتُك من نفسها. ليس هنالك حاجة لنرفع أيدينا إلى السماء، ولا حاجة بنا للتوسل لكاهن المعبد ليسمح لنا بالاقتراب للحديث من صورة منقوشة، وكأن هذا يزيد من فرصتنا في أن نُسمع. الإلهُ قريبٌ منك، معك، بداخلك. نعم يا لوكيليوس، تسكنُ في داخلنا روح مقدسة، تحرسنا وتراقبنا في الشر والخير الذي نفعله. وكما نعاملها ستعاملنا. حقاً، لا إنسان في خيرٍ بدون الإله، هل يستطيع إنسانٌ أن يغلب الحظ إلا بمساعدة الإله؟ إنه هو الذي يدفعنا نحو الأعمال النبيلة والرفيعة. في كل إنسانٍ جيد...

يوجد إلهٌ... أيُّ إلهٍ لسنا واثقين[93]

93. Virgil, Aeneid, VIII:352.

لو أنك رأيت مرةً غابةً كثيفةً من الأشجار المعمّرة وقد سمقت إلى ارتفاع استثنائي حتى أغلقت صفحةَ السماء بغشاوة كثيفة من الأغصان المتشابكة، فإن جلالةَ الغابة، وعُزلةَ البقعة، وذهولك من مكانٍ بهذه الظلمةِ المطبقة العميقة في هواء النهارِ الطلق سوف تقنعك بوجود إله. أي كهفٍ حيثُ الصخور تآكلت عميقاً في الجبل الجاثي فوقها، فراغها الذي حال كهفاً مبهر الحجم لم تنتجه أعمال الرجال بل نتائج عمليات الطبيعة، سوف يضربُ في روحك لمحةً من المقدس. إننا نبجل مصادر الجداول المهمة، الأماكن التي يندفع منها فجأة نهر قوي من مخبئه تُبنى حولها المذابح، الينابيع الساخنة تُعبَد، عُمقُ البحيرات الذي لا يدرك قراره جعل هو الذي جعل مياهها مقدسة. وإذا مررت برجلٍ لا تخيفه الأخطار أبداً، ولا تؤثر فيه الشهوات، سعيدٍ في خصومته، هادئٍ في العاصفة، يرى البشرية من مكان أعلى والآلهةَ من مكانهم، أليس من المرجح أن شعوراً من التبجيل له سوف يدخلُ قلبك؟ ألن تقول لنفسك: 'ها أمامي شيءٌ أعظمُ وأروع من أن يعتبره أحدٌ من ذات المادة التي يسكنها جسده'؟ في ذلك الجسد نزلت قوة مقدسة. إن الروح المُرتقية والمنظمة جيداً، والتي تمر بأي تجربة وكأنها لا تعني الكثير، التي تبتسم في وجه كل الأشياء التي نخافها أو نصلي من أجلها، لهيَ مدفوعةٌ بقوةٍ مستقاة من السماء. شيءٌ في رُقيِّ تلك الروح لا يمكن أن يقف دون سند إله. ولذلك فإن الجزء الأكبر منها موجودٌ حيثُ تنتمي، بنفس الطريقة التي تلمسُ بها أشعة الشمس الأرض ولكنها موجودةٌ في النقطة التي تنبثقُ منها، كذلك الروحُ المسكونة بالعظمة والقداسة، والتي أرسلت إلى هذا العالم كي نحصل على معرفةٍ أقرب إلى المقدس، تصاحبنا، بالتأكيد، ولكنها لا تفقد أبداً صِلتها

بمنبعها. على ذلك المنبع تعتمد، هو الاتجاه الذي تستدير إليه عيناها، والاتجاه الذي تتسلقُ نحوه. الطريقة التي تتدخل بها في أمورنا طريقةُ كائنٍ أعلى.

ما هي إذاً هذه الروح؟ شيءٌ له بريقٌ لا تسببه صفة إلا من ذاته. هل هنالك ما هو أغبى من أن نمدح في شخصٍ شيئاً ليس جزءاً منه؟ أو أكثر جنوناً من أن نعجب بأشياء يمكنُ في لحظة أن تُنقل إلى كائنٍ آخر؟ ليست الشكيمة الذهبية هي التي تجعل جواداً أفضلَ من غيره. إن إرسال أسدٍ إلى الأرينا بعد أن زُركشت لبدته بالذهب، وهو متعبٌ من المعاملة السيئة التي ترغمه عبر إرهاقه على تقبل تزيينه وزركشته، لهو شيءٌ مختلف جداً عن إرسال أسدٍ بريٍ روحه غير منكسرة: جريءٌ في انقضاضه، كما أرادت له الطبيعة أن يكون، بكل جماله غير المشذّب، وحشٌ له مجدٌ بحيث لا يستطيع أن ينظرَ إليه أحدٌ دون خوف، إنه في عيون الناس يتخذُ موقعاً أعلى من الأسد الآخر، الطائع، المزركش برقائق الذهب.

يجب ألا يفتخر أحدٌ بشيءٍ ليس منه. نحن نمدح الكرمة إذا حمّلت أغصانها الثمر حتى انحنت دعاماتها تحت الثقلِ الذي تحمله: هل كان أحدهم ليفضل الكرمة المشهورة في الأسطورة التي يتدلى منها عنب وورقٌ من ذهب؟ الإثمار فضيلة الكرمة الخاصة. كذلك في الإنسان: المديح واجبٌ لما هو منهُ وحسب. افرض أنه يملك منزلاً جميلاً وجماعةً كبيرةً من الخدم، وكثيراً من الأرض التي تُزرع وكثيراً من المال الذي استثمره بالفائدة: لا واحد من هذه الأشياء يمكن أن يُقالَ عنه أنه منه –

هي مجرد أشياءٍ حوله. امدح فيه ما لا يمكن أن يُعطى ولا يُسلب، ما هو فريدٌ في الإنسان.

تسأل ما هو؟ إنها روحه، وإتمام عقله في تلك الروح. فالإنسان حيوانٌ عاقل. إن حالة الإنسان المثالية تتحققُ حين ينجز الهدف الذي ولد لأجله. وما الذي يطلبه العقلُ منه؟ شيءٌ سهلٌ جداً: أن يعيش وفقَ طبيعته. ولكن هذا يصير شيئاً صعباً جداً بسبب الجنون الذي استشرى بين الرجال. نحنُ ندفع واحدنا الآخرَ نحو الرذائل. وكيف يمكن للناس أن يُستعادوا إلى الصحة الروحية حينما لا أحد يحاول أن يكبح هبوطهم والحشدُ يشجعهم على الاستمرار؟

الرسالة (XX)

«كتاب لوكيليوس الجديد»

الكتابُ الذي وعدتني به وصل. كنت أنوي قراءته على مهلٍ وفتحته عند وصوله رغبةً مني بأخذ فكرة عن محتوياته لا أكثر. ولم أنتبه لنفسي إلا وقد سحرني الكتاب نحو قراءة أعمق في لحظتها. إن صفاء الفكر يتبدى لك في أنني وجدت قراءة الكتاب قراءة خفيفة، مع أنه للوهلة الأولى يوحي بأن الكاتب شبيهٌ بليفي(**) أو أبيقور، فمعظمه لا يشبهك أو يشبهني. على الرغم من ذلك كان ممتعاً إلى درجة أنني وجدتُ نفسي مشدوداً وقرأته حتى نهايته دون انقطاع. كان نور الشمس طوال الوقت يدعوني للخروج، والجوع يدفعني إلى الطعام، والطقس يهددُ بأن يتقلب، ولكنني التهمتُ الكتاب في جلسة واحدة.

لقد كانت قراءته فَرحاً، وليست مجرد متعة. ثمة الكثير من الموهبة والروح فيه، ولكنتُ أضفت إليهما «القوة» لو أنه كُتب على مستوىً أهدأ

---

94 [Titus Livius أو Livy كبير مؤرخي الرومان، (59 ق.م – 17 م) كتب على مر اربعين عاماً تاريخ روما في 142 كتاباً منذ أيامها الأولى وحتى عصره.]

بين الفينة والأخرى ومن ثم يرتفع إلى درجة مستوى أعلى. ولكنه بدلاً من ذلك فيه توسطٌ مستمرٌ في الأسلوب. الكتابة صافية وخصبة، ولا ينقصها أيضاً اللمسة المسلية بين الحين والآخر، تلك اللمسة الخفيفة في اللحظة الملائمة. إن صفات النبل والروعة عندك، وأريدك أن تحتفظ بها، وأن تتابع بنفس الطريقة تماماً.

موضوعك أيضاً أسهمَ في روعة الكتاب، ولذلك يجب أن تنتقي دوماً موضوعاً خصباً، موضوعاً يجذب انتباه العقل ويحفزه. ولكنني سأكتب لك عن الكتاب مجدداً حين أقرؤه مرة ثانية. ففي اللحظة الحالية حكمي ليس راسخاً – وكأنني سمعته كله ولم أقرأه. عليك أن تتركني أمعن النظر فيه أيضاً. ولا تخف، لن تسمع إلا الحقيقة. يا لحظك! ليس فيك ما قد يجعل أحداً يكذب عليك! ومن مسافة بعيدة كالتي تُفرِّقنا! على الرغم من أننا حتى في هذه الظروف، عندما تُزال كل أسباب الكذب، فإننا نجدُ في العُرفِ على الرغم من ذلك سبباً كافياً لقول الأكاذيب!

الرسالة (XXI)

«العبيد والسادة»

إني سعيدٌ لأن أسمع من الناس الذين يزورونك أنك تعيش بشكل ودّي مع عبيدك. وهذا بالضبط ما يتوقعه المرء من شخص متنور ومثقفٍ مثلك. يقول الناس: «إنهم عبيد». لا، بل هم بشر. «إنهم عبيد». ولكنهم يشاركوننا السقف نفسه. «إنهم عبيد». لا بل بالتعبير الأدق هم زملاؤنا في العبودية، لو أنك تأملت مرة أن الأقدار تحكمنا بقدر ما تحكمهم.

لذلك أضحك من الذين يعتبرونها إهانة أن يأكل الرجل مع عبده. ما الإهانة في ذلك؟ لا شيء إلا أن أكثر الأعراف عنجهية تنصُّ على أن يُحاطَ رب المنزل حول مائدته بحشد من العبيد الذين عليهم الوقوف، بينما هو يأكل أكثر مما يستطيع أن يحتمل، مالئاً بطنه المتنفخة أصلاً بجشعٍ وحشي حتى تعجز عن أداء وظيفتها كبطن، وحينها يبذل في تقيؤ ما أكل جهداً أكبر مما بذل في أكله. وفي كل هذا الوقت يُمنع على العبيد المساكين أن ينبسوا ببنت شفة، ناهيك عن أن يأكلوا. وأصغر همسٍ يُقوَّمُ بالعصا. ولا حتى الأصوات العرضية كالسعال والعطاس أو الفواق تمرُّ بلا ضرب.

طوال الليل يقفون في أماكنهم، خُرسان وجائعين، ويدفعون باهظاً ثمنَ أي مقاطعة.

والنتيجة أنّ العبيد الذين لا يستطيعون أن يتحدثوا أمام وجه سيدهم يتحدثون من خلف ظهره. أما عبيدُ الأيام الماضية، الذين لم تكن شفاههم مقفلةً كهؤلاء، فما كانوا قادرين على الحديث أمام سيدهم وحسب، بل على مخاطبته أيضاً، وكانوا مستعدين للتضحية بأعناقهم على منصة الإعدام لأجله، وأن يجذبوا أي خطر يتهدده إلى أنفسهم. كانوا يتحدثون خلال العشاء، ولكنهم يبقون أفواههم مغلقة تحت التعذيب. إن هذا التعامل الفوقي المستبد هو المسؤول عن المقولة الشائعة: «عندك أعداء بقدر ما عندك عبيد». إنهم لا يكونون أعداءنا عندما نشتريهم، ولكننا نجعلهم أعداءنا.

تمرُّ الآن في ذهني كل ضروب معاملتنا القاسية وغير الإنسانية، كيف نستغلهم وكأنهم دابات للتحميل وليسوا كائنات بشرية. كيف مثلاً، بين الفينة والأخرى في أثناء جلوسنا مسترخين في مأدباتنا، تجدُ واحدهم يمسح البصاق والآخر يلمُّ «بقايا» المولَم لهم السكرانين. وواحدٌ آخرُ منهم يقطعُ الطيور البرّية الثمينة، فيشرِّحُ قطعاً مختارة من الصدر والورك بيدٍ حذقة وضربات لا تخطئ: رجلٌ غير سعيد، فهو يوجدُ لهدفٍ واحدٍ وحيد هو تقطيعُ الطير السمين بالشكل الملائم – مع أن هذا العبد الذي يتعلم التقنية بسبب الضرورة البحتة لا يُرثى له كالشخص الذي يستعرض قدراته فيها لمجرد المتعة. الآخر الذي يقدم النبيذ يُلبَّس زي فتاة ويعيش صراعاً مع عمره، فهو لا يستطيع الهروب من طفولته، بل يجرُّ

إليها طوال الوقت، فعلى الرغم من أنَّ جسمه صار جسم جندي لكنه يُبقي خالياً من الشعر عبر حفِّه أو اقتلاعه من جذوره. ولياليه التي لا تعرف النوم تنقسمُ بين سُكر سيده ومُتعه الجنسية: صبيٌّ على الطاولة ورجلٌ في غرفة النوم. وواحدٌ آخرُ منهم يحصلُ على مهمة تقييم الضيوف، يراقب ويرى من سيؤمن لنفسه دعوةً جديدة في اليوم التالي بسبب لجاجته في المديح وقلة انضباطه في الشهوات أو الكلام. أضف إلى هؤلاء الخدمَ الذي يمتلكون معرفة عالية جداً بذوق سيدهم، الرجال الذين يعرفون النكهات التي تشحذ شهيته، ويعرفون ما الذي يجذب نظره، أيَّ الغرائب قد تجتذبُ معدته عندما تمتلئُ حد الغثيان، أيَّ الأطباق سيدفعها جانباً مع وصوله الأخير إلى الإشباع المتخم، وما الذي سوف يشتهيه بشكل خاص في يومٍ معين.

هؤلاء هم الناس الذين لا يستطيع السيد تحمل فكرة تناول الطعام معهم، مفترضاً أن الجلوس على طاولة واحدة مع عبيده إهانةٌ لكرامته فعلاً، «بل الفكرةُ بحدِّ ذاتها!» كما يقول. ولكن انظر إلى عدد أسياده الذين جاؤوا من صفوف العبيد.[95] خذ مثلاً الرجل الذي كان يملكُ كاليستوس[96] في وقتٍ ما، رأيته مرةً ينتظر على باب كاليستوس، ورُفضَ طلبه الدخول بينما كان الآخرون يدخلون. السيد الذي وضع بطاقة سعرٍ على الرجل وعرضه للبيع واقفٌ مع المرفوضة طلباتهم للدخول إلى منزل العبد الذي باعه. هاكَ عبداً ردَّ لمالكه الصاع صاعين! بعد أن ساقه مالكه

في عهد كلاوديوس ونيرون، وصل العديد من العبيد السابقين إلى مواقع عالية.

كاليستوس أصبح بعد تحرره موظفاً يشبه الحاجب أو الوزير، فيتعامل مع العرائض المقدمة إلى الإمبراطور كلاوديوس من قبل المواطنين.

للبيع، ودفع به مع أوائلِ المعروضين أيضاً: تلك الدفعة الأولى التي يجرِبُ فيها نخاسُ المزاد صوته وحسب! والآن جاء دور العبد ليزيل سيده عن قائمة زوّاره، ويقرر أنه لا يرغبُ بهذا الصنفِ من الرجال في بيته. السيدُ باع كاليستوس، لكن انظر كم جعلَ كاليستوس سيدَه يدفع غالياً.

وماذا بخصوص أن الرجل الذي تدعوه عبدك ترجع أصوله إلى نفس جنسك، وفوقه نفس سمائك، ويتنفسُ كما تفعل، ويعيش كما تفعل، ويموت كما تفعل؟ إنك لتقدر أن ترى فيه رجلاً وُلدَ حراً بنفس السهولة التي يستطيع بها هو أن يراك عبداً. تذكر كارثة فاروس: الكثير من الرجال ذوي الأصول النبيلة - والذين كانوا يؤدون خدمتهم العسكرية كخطوةٍ أولى في طريقهم نحو مجلس الشيوخ - رمتهم الأقدار فجأةً إلى الحضيض، وحكمت عليهم بأن يحرثوا في مزرعة أو يرعوا قطيعاً من الخراف. احتقرْ الآن إن استطعت أولئك الذين لربما ستجد نفسكَ فجأةً - مع كل حقدك -ق وقعتَ في الحال الذي هم عليه.

لا أريد أن أورط نفسي بجدلٍ لا ينتهي في حديثي عن معاملتنا للعبيد، ونحن الرومان متميزون بعنجهيتنا معهم وقسوتنا وإهانتنا المفرطة لهم. ولكن جوهر النصيحة التي أقدمها لك هو التالي: عامل من هم دونك كما تحب أن يعاملك من هم أعلى منك. وكلما انتبهت إلى مقدار السلطة التي تملكها على عبدك تذكرْ أيضاً مقدار السلطة التي يملكها عليك سيدك. قد تقول «ولكن ليس لي سيد». حسنٌ، أنت ما زلت صغيراً، ومن المحتمل دوماً أن تصبح عبداً. هل نسيت في أي عمرٍ أصبحت فيه هيكوبا عبدة؟

و كرويسوس، أو والدة داريوس، أو أفلاطون، أو ديوجين؟»(*) كن لطيفاً ومحترماً في تعاملك مع العبد. أشركهُ في نقاشاتك وحواراتك وفي صحبتك بشكل عام. أما إذا انتفض الآن كلُّ الذين أفسدتهم الرفاهية صارخين ومعترضين، كما سيفعلون بالتأكيد: «ليس هنالك شيءٌ اكثر مهانة ولا شيءٌ أقلُّ احتراماً»، فدعني أقول لك وحسب إن هؤلاء هم ذات نوعُ الأشخاص الذين ألتقطهم بين الحين والآخر يقبلون يدَ عبدٍ شخصٍ آخر.

ألا تلاحظ أيضاً أن أجدادنا قد انتزعوا كل مكروهٍ من موقع السيد كل ما يبدو معيباً أو مذلاً في موقع العبد عندما سموا السيد «أبو المنزل» تحدثوا عن العبيد بصفتهم «أفراد البيت» (وهو شيءٌ لما يزل قائماً حتى الآن)؟ ولقد خصصوا أيضاً عيداً يُفرض فيه على السيد والعبد أنْ يأكلا سوياً، ليس بصفته اليوم الوحيد الذي يصحُّ فيه ذلك طبعاً: بل هو يومٌ لا بد أن يحصلَ ذلك فيه. وفي البيت سمحوا للعبيد أن يحظوا بمواقع رسمية وأن يمارسوا بعض الصلاحيات فيها، بل إنهم في الواقع اعتبروا البيت جمهوريةً مصغرة.

«هل تعني أن تقول» ها قد أتى الرد: «أن عليَّ أن أُجلسَ كل واحدٍ من عبيدي على مائدتي»؟ لا أبداً: كما أنتَ لا تدعو إلى بيتك كل من هم

[هيكوبا زوجة للملك بريام في الإلياذة، استعبدها أوديسيوس (عوليس). كرويسوس ملك ليديا في آسيا الصغرى المشهور بثرائه الفاحش في القرن السادس قبل الميلاد، وأطاح به الفارسيون. داريوس حاكم الامبراطورية الفارسية (512-486 ق.م)، حاول غزو اليونان وأخفق. أفلاطون كان في حوالى الأربعين من العمر حين زار صقلية وقام بترحيله ديونايسوس الأول، وبيعَ عبداً ومن ثم اشتراه رجلٌ وحرره. ديوجين (400-325 ق.م) الفيلسوف الذي أسس للمدرسة الكلبية، وعاش حياته متشرداً بإرادته ينام في جرة فخارية ومعارضاً لكل أعراف أثينا. تبنى الرواقيون كثيراً من تعاليمه حول الحياة البسيطة، ويُقال أن قراصنة هاجموا سفينةً كان مسافراً فيها وباعوه عبداً في جزيرة كريت، حيث اشتراه رجلٌ من كورينثوس وحرره.]

أحرار. ولكنك على خطإٍ إنْ تخيلت أنني أمنع عبيداً من الجلوس إلى المائدة بسبب طبيعة العمل الوضيع أو الوسخ نسبياً الذي يقومون به، سائس البغال مثلاً أو من يرعى البقر. أقترح أن تقيّمهم بناءً على شخصيتهم، وليس أعمالهم. لكل إنسانٍ شخصيةٌ من اختياره الخاص، ولكن طبيعة عمله تقررها الصدفة أو القدر. ادعُ بعضهم إلى مائدتك لأنهم يستحقون ذلك، وبعضهم الآخر كي تجعلهم مُستحقين له. لأنه إن كان لدى العبيد صفات العبودية الأنموذجية – بسبب الصحبة التي كبروا معها – فمن الممكن إزالتها عبر مصاحبة من حظوا بتربية أفضل.

ليس عليك يا عزيزي لوكيليوس أن تبحث عن الأصدقاء في المدينة أو مجلس السناتورات وحدهما، إن أبقيت عينيك مفتوحتين، فستجدهم في بيتك. المادة الجيدة غالباً ما تبقى خاملةً حتى يأتي من يستفيد منها، فاختبر هذه المادة. الرجل الذي يتفحص السرج واللجام عندما يشتري حصاناً دون أن ينتبه للحيوان نفسه رجلٌ غبي. وكذلك الأمر، وحدهُ الأحمق الصرف هو الذي يقيّمُ رجلاً من ثيابه، أو حسب وضعه الاجتماعي الذي هو في آخر المطاف ليس إلا شيئاً نرتديه كالثياب.

«إنه عبد». ولكن قد تكون له روحُ رجلٍ حر. «إنه عبد» ولكن هل هذا شيءٌ يُحتسبُ ضده؟ أرني رجلاً ليس عبداً. واحدٌ عبدٌ للجنس، الآخرُ للمال، وغيرهما للطموح، والكل عبيدٌ للأمل أو الخوف. أستطيع أن أريك قنصلاً[98] سابقاً كان عبداً لـ«امرأة عجوز»، ومليونيراً عبداً لبنتٍ صغيرة تخدمُ في منزله. أستطيع أن أريك رجالاً يافعين من الأرستقراطيين

98. [القنصل أعلى منصب مُنتخب في الجمهورية الرومانية، تلاشت سلطته وأصبحت رمزية مع صعود أوجستوس (أوكتافيان) في 27 ق.م وقيام الإمبراطورية الرومانية]

الرفيعين وهم عبيدٌ لممثلي المسرح. وليس ثمة عبوديةٌ أكثر ذلاً من تلك المفروضة على النفس. فلا تخضع للمترفِّعين الذين تحدثتَ عنهم، أولئك الذين يحذرونك من إبداء المعاملة الطيبة نحو عبيدك بدلاً من معاملتهم بفوقية عنجهية. اجعلهم يحترمونك بدلاً من أن يخافوك.

وهنا، لمجرد أنني قلت «يحترمون سيدهم بدلاً من أن يخافوه»، فسوف يقول لنا أحدهم أنني الآن أدعو العبيد إلى المطالبة بحريتهم وأجلب على أسيادهم انقلاباً. «من الواضح أنه يريد للعبيد أن يحظوا بمكانة التابعين المستقلين أو من يطلبون الدخول في الصباح»[99]. قائلُ ذلك ينسى أن ما يكفي إلهاً من حيثُ العبادة لا يمكن أن يكون قليلاً على سيد من حيث الاحترام. أن تُحترم يعني أن تُحب، والحب والخوف لا يختلطان. ولذلك فإنني أراك مُحقاً بالمطلق في رغبتك بألا يخافك عبيدك، وفي حصرِ ضربك لهم بالتقريع اللفظي وحده، بصفته أداة للتقويم، فإن الضرب لا يجدي إلا مع الحيوانات. ومن ثم، ما يُزعجنا لا يؤذينا بالضرورة، ولكن نحنُ الأسياد قد تُغيِّب الأهواءُ العابرة عقولَنا، إلى حد أن يثورَ غضبنا من أي شيءٍ يخالفُ إرادتنا. إننا نتمثل الحالة العقلية للطغاة. فهم أيضاً ينسون قوتهم هم، وقلة حيلة الآخرين، ويستشيطون غضباً وكأنهم تعرضوا للإهانة، بينما هم في كل وقتٍ منيعون من مثل هذا الخطر عبر التبجيل المُطلق لمنصبهم. وليس ذلك غائباً عنهم فعلياً، ولكنه لا يمنعهم من انتهاز الفرصة لاقتناص العلل في من هم دونهم والإساءة إليهم بسببها. فهم يتصنَّعون الإهانةَ على شكلِ حجة كي يهينوا الآخرين.

99. [أي للمواطنين، الذين هم، في قانون روما آنذاك، أعلى طبقة من العبيد وأدنى طبقةً من النبلاء، ويقصدون بيوت النبلاء بهدف تسيير أعمالهم، مُقدمين لهم الولاء في الانتخابات وغيرها.]

ولكنني لن أبقيك أطول من ذلك، فأنت لا تحتاج الوعظ. من علامات الحياة الجيدة أنها، من بين أشياء أخرى، تُشبعُنا وتُقدم لنا الاستقرار. أما السلوك السيئ، المتغير باستمرار، وليس للأفضل بل إلى أشكالٍ مختلفةٍ وحسب، ليس فيه شيءٌ من هذا الاستقرار.

الرسالة (XXII)

«المغالطات المنطقية ومماحكات الفلاسفة»

سوف أجيب لاحقاً على رسالتك التي أرسلتها من رحلتك، فقد كانت بطول الرحلة نفسها! علي أولاً أن أجلس جانباً وأقرر النصيحة التي يجب أن أقدمها. فأنت نفسك، قبل أن تستشيرني، قد فكرت طويلاً في طلب الاستشارة أصلاً، ولذلك علي التفكير مطولاً جداً في مسألة النصيحة هذه، من منطلق أن حل المشكلة يتطلب وقتاً أكبر من الوقوع فيها. وخصوصاً حيث أحد الخيارات في مصلحتك والآخر في مصلحتي - أم هل أن هذا القول يجعلني أبدو أبيقورياً مرة أخرى؟ ولكن لا، فالواقع أن ما يصب في مصلحتك هو في مصلحتي أنا أيضاً. وإلا، لو كانت أي مسألة تؤثر فيك لا تهمني فلا أكون صديقاً. الصداقة تخلق مجتمعاً من المصلحة بيننا في كل شيء، فليس لدينا نجاحات ولا إخفاقات كأفراد، بل لحياتنا هدفٌ مشترك. لا يستطيع أحد أن يعيش حياة سعيدة إذا كان لا يفكر سوى بنفسه ويوجه كل شيء نحو غاياته. يجب أن تعيش للشخص الآخر إن شئت أن تعيش لنفسك. والتنمية الحريصة والدقيقة

لهذه الرابطة، والتي تقودنا إلى صحبتنا مع بني جنسنا، وتؤمن بوجود قانون مشترك لكل البشرية، تسهمُ، أكثر من أي شيء آخر، في المحافظة على هذه الرابطة الحميمة التي ذكرتها: الصداقة. الشخص الذي يتشارك الكثير مع رفيقه في الإنسانية سوف يتشارك في كل شيء مع الصديق.

ما أود أن يُعلِّمني إياه أولئك المجادلون الحذقون – أنت تعرف عمن أتحدث يا عزيزي لوكيليوس، يا أيها الحذق – هو التالي: ما هي واجباتي نحو الصديق ونحو الإنسان، بدلاً من أن يعلموني عدد التعريفات التي تُستخدم بها كلمة «صديق» وكم من المعاني يوجدُ لكلمة «إنسان». ها أمامَ عيني تتخذ الحكمة والحماقة موقفهما، فأيهما أتبع؟ في فكر شخصٍ ما «إنسانٌ» تعني «صديقاً»، وعند غيره الاثنتان بعيدتان عن التطابق، وعندما يصادقُ بعضهم بعضاً، تجدُ شخصاً ما يسعي نحو مكسب، بينما غيره يجعلُ نفسه مكسباً للآخر. وفي خضمّ كل ذلك، ما تفعلونه بي هو مطُّ الكلمات وتقسيمُ المقاطع الصوتية. وهكذا يُدفعُ المرء إلى الاعتقاد بأنه إن لم يطوّر جدلاً منطقياً من الطراز الأرفع، ويختزل المغالطات المنطقية إلى صيغة قصيرة مُحكمة حيثُ يعرف كيف يتمُّ الوصول إلى نتيجةٍ خطأ من منطلقٍ صحيح، فإن المرءَ لن يكون مؤهلاً للتفريق بين ما يجب أن يطمحَ إليه وما يجب أن يتجنبه. إن هذا يخجلُ الإنسان: أن رجالاً في عمرنا المتقدم هذا يتعاملون مع مسألةٍ جدية كهذه وكأنها لعبة.

«الفأر مقطع صوتي، والفأر يقضم الجبنة، ولذلك فالمقاطع الصوتية تقضمُ الجبنة». تخيلْ معي للحظة أنني لا أرى المغالطة في ذلك، فما الخطر الذي تضعني فيه قلة بصيرةٍ من هذا النوع؟ أي تداعيات جدية لذلك

عليّ؟ ما يُخشى عليّ منه، بلا شك، هو أنْ أمسك بمقطع صوتي داخل مصيدة فئران، أو أن يباغتني كتابٌ فيأكل جبنتي. إلا، ربما، إذا كانت سلسلة الأفكار التالية أكثر خطورة: «الفأر مقطع صوتي، والمقطع الصوتي لا يقضم الجبنة، ولذلك فالفئران لا تقضم الجبنة». أيُّ بلاهاتٍ طفولية هذه! هل هذا ما يتغضَّنُ جبيننا نحن الفلاسفة من كثرة التفكير فيه؟ هل هذا ما نطيلُ لحانا من أجله؟ هل هذا ما نحاضر فيه بوجوه صارمة جادة؟

هل أخبرك بما تقدمه الفلسفة للبشرية؟ النصح. أحد البشر يواجه الموت، والآخر ملعونٌ بالفقر، والثالث تعذبه الثروة (ثروته أو ثروة غيره)، أحد الرجال مرتعبٌ من سوء حظه بينما الآخرُ يتوق إلى الخلاص من ثرائه الخاص. بعضُهم يعاني على أيدي الرجال، وبعضهم الآخر على أيدي الآلهة. ما الفائدة من اختراع السخافات كالنوع الذي تحدثتُ عنه تواً؟ هذا ليس مكاناً للعب، بل نحن مطلوبون لنقدم يد المساعدة للتعساء. لقد أقسمتَ على إغاثة الغرقى، المأسورين، المرضى، والمحتاجين والرجال الذين يجدونَ رقبتهم تحت فأس الإعدام المرفوع بفعل أيديهم. إلى أين ترحل؟ ما شأنك؟ إن هذا الشخص الذي تدخل معه في لعبة الكلام هو الخوف – اذهب إلى مساعدته...«[100]» الناسُ تمدُّ يديها إليك من كل جانب. حيواتٌ تدمرت، وحيواتٌ في طريقها إلى الدمار تستجدي الغوث. إليك يتطلعون للأمل والمساعدة. يتوسلونك لانتشالهم من هذه الدوامة البشعة، لتريهم، في خضم شكِّهم وبعثرتهم، شعلةَ الحقيقة المتوهجة، لتقول لهم ما الذي جعلته الطبيعة ضرورياً وما الذي جعلته

100. نص فاسد لثلاث أو أربع كلمات هنا بحيث لا تُمكن ترجمته.

ثانوياً. لتقول لهم كم هي بسيطةٌ القوانين التي وضعتها الطبيعة، وكم هي واضحةٌ وممتعة الحياةُ للذين يتبعون هذه القوانين، وكم هي مربكة وبشعة للذين يثقون بالأفكار الشائعة أكثر من ثقتهم بالطبيعة. لا بأس لو أنك تستطيع أن تشيرَ إلي بالطريقة التي تجلب فيها مثل هذه الحزازير المنطقية الراحةَ لمثل هؤلاء الناس: إذ أي واحدة منها تنفعُ في كبح الشهوات ووضعها تحت السيطرة؟ بل يا ليتها كانت بلا فائدة وحسب! بل هي في الواقع مضرة. وأعطيك متى شئت الأدلة الأوضح على أنها تُرهقُ أقوى المواهب وتذهب ببريقها ما إن يهتمَّ أصحابها بمثل هذه المماحكات. وإذا تساءلنا: أيُّ أسلحة تقدمها هذا المماحكات للناس لمواجهة حظوظهم؟ وأي تعبئةٍ تقدمها لهم في معركتهم مع الأقدار؟ فإن المرء يجدُ نفسه مطأطأً رأسه بخزي. هل هذا هو الطريق المقترح لمثلنا الأرقى. هل نصل إليه عبر كل هذه الـ «إن كان x، فإذاً y. أو إن لم يكن y فإذاً z» التي يجدها المرء في الفلسفة؟ وعبر المماحكات التي هي مخزية ومعيبة حتى بين هم تلامذة يدرسون القانون؟ عندما تقودُ الشخص الذي تحاوره إلى فخ، ألا تجعله يبدو وكأنه قد خسر القضية بناء على مجرد نقطة ترافع تقنية؟ ولكن، كما أن المحكمة تُعيد للمترافعين الذين خسروا بهذه الطريقة حقهم الضائع، فإن الفلسفة أيضاً تستعيدُ لضحايا هذه المماحكات الفارغة حياتهم الطبيعية. لماذا يتخلى فلاسفة مثلك عن الوعود المجيدة التي أقسموا عليها؟ بعد أن أكدت لي بكلمات مهيبة أنك لن تترك عينيّ تتأثران بلمعة الذهب أو تخيفهما لمعة السيف، وأنني سوف أزدري بعزيمة جبارة كل الأشياء التي يصلّي من أجلها رجالٌ آخرون، و كل الأشياء التي يخافونها. لماذا تنحدر إلى ألفباء مقعد الدراسة؟ ماذا تقول؟

أهذا الطريق إلى النجوم؟"[١٠٥]

لأن هذا ما وعدتني به الفلسفة: أن تجعلني مساوياً للإله. هذه هي الدعوة وما جئت من أجله، كن على قدرِ كلامك.

تجنب أيضاً يا عزيزي لوكيليوس، بقدر ما تستطيع هذا النوع من المماحكات والمرافعات التي ذكرتها في سلوك الفلاسفة. المباشرةُ والبساطة تتواءمان مع الخير. حتى لو كان قسمٌ كبيرٌ من حياتك أمامك، فعليك أن تنظمها باقتصادٍ حريص كي تفعل كل الأشياء الضرورية. والحال كذلك، أليست قمة الحماقة أن نتعلم ما هو غير جوهري ووقتنا محزنٌ في قلّته!

---

105. Sic itur ad astra? :Virgil, Aeneid, IX. 641

الرسالة (XXIII)

«حطام البحر ومكر الأمراض والفلسفة المتطلبة»

بات من الممكن إقناعي بأي شيء، فقد اقتنعت بالسفر عبر البحر. كان البحر هادئاً جداً عندما انطلقنا. السماء كانت محملة بثقلٍ كبير، ذلك النوع من الغيوم السوداء التي تنفجر عادة بالرعد أو المطر الغزير. ولكن على الرغم من تَوَعُّدِ السماء ظننتُ أن من الممكن جداً السفر بضعة أميال من بارثينوب إلى بوتيولي[102]. ولذلك، وبغرض تسريع الانتقال، توجهت إلى نيسيس في المياه المفتوحة كي أتجنب كل الانحناءات في خط الساحل. ولما وصلت عميقاً إلى حيث ما عاد ثمة فرقٌ بين المضي قدماً أو العودة إلى الوراء، أولُ ما اختفى كان ذلك الهدوء النسبي الذي غرَّر بي إلى مصيبتي. لم يكن ثمة عاصفة بعد، ولكن باشرتنا رياح قوية وأخذت الأمواج تزداد عنفاً شيئاً فشيئاً. بدأت أطلب من القبطان أن ينزلني إلى شاطئ ما، فأخذ يكررُ لي أن الشاطئ أعوج وليس فيه مكان آمن وأنه لا شيء تخافه في

102. [باسماء اليوم من نابولي إلى بوتسولي القريبة منها، في غرب إيطاليا، و'نيسيس' واسمها اليوم نيسيدا جزيرة بركانية صغيرة في خليج نابولي.]

العاصفة أكثر من شاطئٍ تهبُّ باتجاهه الرياح. ولكنني كنتُ أعاني عذابات دوار البحر: من النوع البليد الذي لا يترك للمرء راحةً، النوعِ الذي يزعج معدة المرء من دون أن يُفرغها. ولذلك ضغطت عليه وأجبرته، شاء أم أبى، على التوجه إلى الشاطئ. وما إن اقتربنا لم أتلكأ في فعل كل ما يأمر به فرجيل:

مقدمة السفينة نحو البحر

أو:

المرساة رميت من المقدمة[103]

وتذكرت تدريبي الطويل بصفتي ممارساً مخلصاً لحمامات المياه الباردة، فغطست في المياه كما يجب على مدمن المياه الباردة أن يفعل، بملابسي الصوفية. لك أن تتخيل ما عانيته وأنا أزحفُ نحو الصخور، وأنا أبحث عن طريق الأمان وأصارع للوصول إليه. جعلني ذلك أدرك كم أن البحارة على حق في خوفهم من الشاطئ المعاكس للرياح: فلأنني لم أتحمل نفسي قبل قليل، اضطررت إلى تحمل ما يفوقُ الوصف. خذها مني أن السبب الذي كانت تتحطم لأجله سفينة عوليس في كل مكان لم يكن غضب «نبيتون» عليه منذ اليوم الذي ولد فيه، بل لأنه كان مصاباً بدوار البحر مثلي – وأما أنا فسوف يتطلب الأمر مني عشرين عاماً[104] لأصل إلى وجهتي إذا اضطررت للسفر بالبحر مجدداً!

103. Aeneid, VI, 3, III:277

104. [في الملحمة، دامت رحلة عوليس للعودة 10 سنوات، وسينيكا يمزح بأن الأمر سيتطلب منه ضعف المدة.]

ما إن هدأت معدتي (لأن المعدة كما تعلم لا تشفى من دوار البحر بمجرد الخروج من البحر) ودلّكت جسدي لأعيد إليه بعض الحياة، حتى بدأت أتأمل كيف يلازمنا تناسٍ فظيعٌ لضعفنا، حتى ضعفنا الفيزيائي الذي ما ينفك يثبت حضوره أمامنا، ناهيك عن أنواع الضعف التي هي ليست أكثر خطورة وحسب بل هي أيضاً أقل ظهوراً بنفس الطريقة. الحمى الطفيفة قد تخدع المرء، ولكنها عندما تصلُ إلى نقطة الحمى الهائجة الحقيقية ستنتزع اعترافه بأن شيئاً ما ليس على ما يرام، حتى من الفرد الأكثر صلابةً وتحملاً. تؤلمنا أقدامنا، ألمٌ طفيف كالإبرة عند المفاصل، فنمرر الموضوع في هذه المرحلة ونقول إننا لوينا كاحلنا أو ضغطنا على شيء أو آخر في نشاط ما. عندما يكون المرض في حالة البداية غير المحددة، فإن اسمه يواربنا، ولكن ما إن يبدأ تورّمُ القدمين، فيجعلنا لا نميز اليمنى من اليسرى، نضطر عندها للاعتراف بأننا أصبنا بالنقرس.

ولكن في أمراض الروح العكس هو الصحيح: كلما ساءت حالة الشخص قلَّ إحساسه بها. لا تتفاجأ يا عزيزي لوكيليوس، إن شخصاً ينام نوماً خفيفاً يعي ما يرى في أحلامه بل يكون أحياناً واعياً في نومه أنه نائم، بينما من ينام نوماً عميقاً يطمسُ حتى أحلامه ويغرقُ عقله عميقاً حيث لا يصل إليه إدراك النفس. لم لا يعترف أحدٌ بإخفاقاته؟ لأنه لما يزل عميقاً فيها. إن الشخص الذي يستيقظ هو الذي يتذكر الحلم، والاعتراف بإخفاقات المرء دليل صحة. دعنا إذا نستحثّ أنفسنا حتى نستطيع إظهار أخطائنا. ولكن الفلسفة وحدها ستوقظنا، وحدها الفلسفة تهزّنا لتوقظنا من ذلك النوم الثقيل. كرس نفسك لها بالكامل. فأنت أهلٌ لها، وهي أهلٌ لك – خذا بذراعي بعضكما بعضاً. وقُل «لا» حازمة

بسيطة لكل انشغال آخر. ليس ثمة عذرٌ لممارسة فلسفتك حين تلائمك الظروف وحسب. لو كنت مريضاً فسوف ترتاح من الإشراف على شؤونك الخاصة وتتوقف عن المرافعة في المحاكم. وحتى خلال بوادرِ تحسنك لن تعتبر أي موكّل مهماً بحيث تترافع عنه في المحكمة خلال نقاهتك. لا، بل ستكرس وقتك كله للشفاء من مرضك بأسرع ما يمكن. حسنٌ إذاً، ألا تفعل الشيء نفسه في هذه الظروف؟ أبعد عنك كل عقبة واترك لنفسك حرية إيجاد عقلٍ سليم – لا أحد يصل إلى أي شيء إذا كان مشغولاً بأشياء أخرى. الفلسفة لها سلطانها الخاص، فهي تختارُ وقتها ولا تقبل بأي وقت يُعطى لها. هي ليست شيئاً يتخذه المرء في لحظات متقطعة، بل هي سيدة نشيطةٌ تعمل بدوام كامل، حاضرةٌ دوماً ومتطلبة. عندما عرضت دولة أو أخرى على الإسكندر جزءاً من أراضيها ونصف ممتلكاتها كان يقول لهم أنه «لم يأتِ ليأخذ ما يختارون إعطاءه، بل كي يترك لهم ما يرى تركه». الفلسفة كذلك تقول للأشغال الأخرى: «ليست نيتي أن أقبل بالوقت الذي يفيضُ عنكِ، بل ستحصلين أنتِ على ما أتركه أنا».

أعطها عقلك كله. واجلس بجانبها وكن في حضرتها دوماً، سوف تتسع هوةٌ عملاقةٌ بينك وبين الرجال الآخرين. وستجد نفسك متقدماً على البشرية، ولست بعيداً وراء الآلهة نفسها. أتعرف ما الذي سيكون الفرق الحقيقي بينك وبين الآلهة؟ سوف يعيشون وقتاً أطول. وعلى الرغم من ذلك إني أرى أن العلامة التي لا يمكن إنكارها على عظمةِ الفنان هي قدرته أن يجمع كل شيءٍ في حيزٍ محدود. لدى الحكيم مدى نظرٍ في حياته كما للإله في كل الأبدية أمامه. وهنالك شيءٌ آخرُ يتفوق فيه الحكيم على الإله: إن للإله طبيعة يدينُ لها بعصمته من الخوف، بينما الحكيم يدينُ

بذلك لجهوده الخاصة. انظرْ أي إنجاز هذا، أن تمتلك كل هشاشة الإنسان، وكل تحرُّر الإله من الاكتراث. قوة الفلسفة على صد كل ضربات القدر لا تُصدَّق. فلا ينغرز فيها رمح، دفاعاتها المنيعةُ تكسرُ قوة بعض الضربات وتصدها بطرف ردائها وكأنها سخيفة، والأخرى تقذفها بعيداً وتعيدها إلى صاحبها.

الرسالة (XXIV)

«الربو والموت»

الصحة السيئة – والتي كانت قد منحتني فترة طويلة من الراحة – عاودت الهجوم عليّ بلا تحذير. «أي نوع من الصحة السيئة» تسألني، وسؤالك في مكانه، إذ ليس منها نوعٌ لم أختبره، ولكنْ هنالك مرضٌ بعينه لطالما تخيّرني، إن صح التعبير. لا أرى سبباً لتسميته باسمه الإغريقي،[105] فصعوبة التنفس اسمٌ يصفه على نحوٍ ملائم. إن هجمته قصيرة جداً، كالعاصفة القصيرة، تنتهي خلال ساعة بشكل عام. وهل يستطيع المرء أن يتوقع من الشخص الاستمرار بسحب أنفاسه الأخيرة طويلاً؟ لقد زارتني كل الأمراض المتعبة والخطرة في الوجود، وليست فيها واحدة، في رأيي، أكثر إزعاجاً من هذا، ولا عجب، أليس كذلك؟ عندما تأخذ في اعتبارك أنك في أي مرضٍ آخرَ تكون مريضاً وحسب، بينما هنا فأنت دائماً تشهقُ آخر أنفاسك، ولذلك دعاه الأطباء «تمرين الموت»، لأن اختناق الأنفاس، عاجلاً ام آجلاً، ينجح في محاولاته المتكررة. هل تتخيلُ أنني

105. أي: اسمه الطبي، asthma (الربو).

أكتبُ إليك سعيداً بأنني قد أفلتُّ من قبضته هذه المرة؟ لا، أن أكون سعيداً بانتهائه - وكأن هذا يعني أنني شخص معافى من جديد - هو بنفس سخف أن يعتقد شخصٌ أنه ربحَ قضيةً لأنه حصل على تمديدٍ قبل المحاكمة.

على الرغم من ذلك، حتى وأنا أصارع لأتنفس، كنتُ أجد الراحة في التأملات البهيجة والشجاعة. «ما هذا؟» أقول لنفسي، «ألموت يقدمُ على كل هذه المحاولات معي؟ فليفعل ما بوسعه، لقد اختبرتُ أفعاله زمناً طويلاً» ستسألني: «متى كان هذا؟»... من قبل أن أولد. الموت مجرد عدم الوجود، وأنا أعرف ماهية ذلك. وإن كان ثمة عذابٌ في الحالة التالية، فلا بد أن يوجد عذابٌ في الحالة التي سبقت رؤيتنا نور الدنيا، ولكننا لم نشعر بأي انزعاجٍ وقتها. أسألك، ألا ترى أن من الحماقة اعتقادُ الإنسان أن المصباحَ بعد انطفائه أسوأُ حالاً منه قبل أن يشتعل؟ نحن أيضاً نشتعلُ وننطفئ. ونعاني بعض الشيء ما بين هذا وذاك، ولكنْ في طرفي الحال توجدُ سكينةٌ عميقة. لأنني إن لم أكن مخطئاً، فنحن على غلطٍ يا عزيزي لوكيليوس عندما نعتبر الموت يأتي في ما بعد، بينما هو في الواقع يسبقنا ويتلونا. الموت كل ما كان قبلنا. ما الفرق في آخر المطاف، إن توقفت عن الوجود أو لم تبدأ أصلاً، إذا كانت نتيجة الاثنين أنك غير موجود؟

استمريت بالحديث إلى نفسي بهذه الطريقة، صامتاً طبعاً، فالكلمات غير ممكنة. ومن ثم شيئاً فشيئاً، بدأت صعوبة تنفسي، والتي باتت الآن لهاثاً وحسب، تأتي على فتراتٍ متباعدة أكثر وتتراجع. لقد بقيت، على الرغم من كل شيء، ولكن مع أن هذا الهجوم قد مرَّ على خير إلا أن

نفسي لم يعد بعد إلى وضعه الطبيعي، إذ أشعر أن به نوعاً من التوقف والتردد. فليفعل ما يشاء، على كل حال، ما دامت الشهقات لا تأتي من الروح. ولك أن تكون واثقاً من موقفي من ذلك: سوف لن أخاف حين تأتي الساعة الأخيرة، وأنا جاهزٌ أصلاً، فلا أخطط أكثر من يومٍ إلى الأمام. ولكن الإنسانَ الذي يجب أن تُعجب به حقاً وتقلده هو من يستطيع أن يجد المتعة في العيش، ومن ثم على الرغم منها لا يمتعضُ من الموت، إذْ أين الفضيلة في أن تخرجَ إن كنتَ تُرمى إلى الخارج؟ ولكن ثمة على الأقل الفضيلة التالية في حالتي: إنني في خضم الرمي بي إلى الخارج، هذا صحيح، ولكنني أتعامل مع الأمر وكأنني أخرج بنفسي. وما يعصمُ الحكيم عن ذلك هو أن الرمي خارجاً يعني أن يخرج الإنسان على مضض، وليس ثمة ما يفعله الحكيمُ على مضض. إنه يفلتُ من الإرغام لأنه يريد ما تقتضيه الضرورة منه.

الرسالة (XXV)

«فيللا فاتيا والانعزال»

لقد عدت تواً من رحلة في محفَّتي[106]، وإنني متعبٌ وكأنني مشيتُ المسافة كلها بدلاً من جلوسي طوال الطريق. حتى أن أُحْمَل فترةً طويلة بات عملاً مرهقاً، وأجرؤ أن أقول لك أن ما يزيد من ذلك هو أن الموضوع غير طبيعي، فالطبيعة أعطتنا أرجلاً نمشي بها بأنفسنا، تماماً كما أعطتنا عيوناً نرى بها بأنفسنا. الحياة الناعمة تفرض علينا ضريبة الإعاقة، فلا نعود قادرين على فعل الأشياء التي لطالما كرهنا فعلها. ولكنني كنت في حاجة لأن أعرّض جسدي لهزةٍ قوية، إما لأنحنح بلغماً عالقاً، لربما تجمّع في حلقي، أو لأخفف ثقل تنفسي الذي سببه شيء ما، وقد لاحظت من قبل أن التحرك يفيدني. ولذلك استمريت في الركوب فترة طويلة عن قصد، حتى إن الشاطئ كان يغريني بالوصول إليه. الشاطئ يمتد بين «كوماي» [مدينة غرب نابولي] وبين بيت سيرفيليوس فاتيا الريفي في نوع من الممر الضيق الذي يحدّه البحر من جانب، وبحيرة مالحة من الجانب

---

106. [عربة صغيرة يحملها اثنان، بدلاً من أن تُجرّ على عجلات.]

الأثر. وقد أصابته عاصفة حديثة فتركت رمله صلباً، لأنه، كما تعرف، الأمواج التي تضرب الشاطئ بقوة وسرعة تجعله مسطحاً ومستوياً، بينما الفترة الطويلة من الطقس الهادئ تؤدي إلى تفكك هذا السطح واختفاء الرطوبة التي تربط بين ذرات الرمل.

كنت أنظر حولي كعادتي باحثاً عن شيء أستفيد منه حينما وقعت عيني على بيت فاتيا. كان هذا المكان الذي قضى فيه فاتيا القسم الأخير من حياته، رجلٌ ثري شغل منصب بريتور، ولكنه لم يشتهر بشيء سوى حياته المعزولة، واعتُبر رجلاً محظوظاً لذلك السبب وحسب. لأنه كلما تدمّر رجلٌ نتيجة صداقته مع أسينيوس جالوس[107]، أو نتيجة عداوته لسيجانوس[108]، أو نتيجة ولائه لسيجانوس (فقد كانت محالفة سيجانوس خطرةً بقدر عداوته)، كان الناس يستعجبون: «فاتيا، أنت الوحيد الذي تعرف كيف تبقى حياً!» ما كان يعرفه بالأحرى هو كيف يختبئ، وليس كيف يعيش. وهنالك فرقٌ كبيرٌ بين أن تكون حياتك حياة تقاعدٍ وأن تكون حياتك حياة جُبْن. ما مررتُ بهذا المنزل يوماً عندما كان فاتيا حياً إلا وقلتُ: «هنا يرقدُ فاتيا». ولكن الفلسفة يا عزيزي لوكيليوس، شيء من القداسة بمكان، وتُلهم الكثير من الاحترام، بحيث أن حتى ما يشابهها يجذبُ الناس على الرغم من زيفه. كلما تقاعد رجلٌ يعتقد الحشد العامُ أنه يعيش حياةً بعيدة حرة من الاكتراث، وراضية بذاتها، يعيشُ من أجل نفسه، حينما في الواقع لا يقدرُ أن يكسب أياً من

107 Asinius Gallus سياسي مغامر فقد حظوة الإمبراطور تيبيريوس وسجن في 30 م ومات بعد ثلاثة أعوام من الجوع.

108 Lucuis Aelius Sejanus سياسي روماني طموح أعدم في 31 م لتآمره ضد الإمبراطور تيبيريوس بعد أن كان مقرباً منه.

هذه النِّعم أحدٌ غير الفيلسوف. هو وحده يعرفُ كيف يعيشُ الحياة من أجل نفسه: بل هو الذي، في الواقع، يعرف ما هو الجوهري: كيف يعيش. إن الذي هرب من العالم ومن رفاقه البشر، والذي يذهب إلى منفاه بسبب إخفاقٍ ما لرغباته، الذي لا يستطيع أن يتحمل رؤية الآخرين الأكثر حظاً، الذي اتخذ لنفسه مخبأً في خوفه كحيوانٍ جبانٍ خامل: هذا الرجل لا «يعيشُ من أجل نفسه»، بل من أجل بطنه ونومه وشهواته، أي: في انحطاط كامل. بكلمات أخرى، مجرد أن لا يعيش الإنسان من أجل أحدٍ لا يعني أنه يعيشُ من أجل نفسه. على الرغم من ذلك، الصمودُ العنيدُ للإرادة يعني الكثير، بحيث أن الخمول نفسه، إذا حُوفظَ عليه بعناد، قد يكون له وزن.

لا يمكنني أن أقدم لك معلومات عن البيت نفسه. أنا لا أعرف عنه إلا مقدمته وأجزاء من الواجهة، تلك الأجزاء الظاهرة حتى للمارين عبوراً. هنالك كهفان صُنعيان، إنجازان كبيران في الهندسة، وكلٌّ واحدٍ منهما كبيرٌ كأضخم القاعات، وأحدهما لا يسمح بدخول الشمس إطلاقاً، والآخر يحافظ على دخولها حتى المغيب. هنالك بستان من الأشجار يتخلله ماءٌ ينقسمُ إلى جدولين كالقناة، أحدهما إلى البحر والآخر إلى البحيرة الأكيروسية(109)، وهو جدولٌ قادرٌ على احتواء سربٍ من السمك حتى لو اصطيد منه باستمرار. ولكنه يُترك لشأنه عندما يكون البحر ممكناً، ولا تقتربُ من سربه أيدي الصيادين إلا عندما يرغمهم الطقس السيئ على هجر البحر. ولكن أعظم ميزاتِ البيت هو قربه

109. [Acherusian اسمٌ يطلق على مجموعة من البحيرات التي يُعتقد أنها معبرٌ إلى العالم السفلي.]

الشديد من «باباي»، فهو يتمتع بكل وسائل المتعة التي يقدمها هذا المنتجع من دون أن يتطلب أياً من سلبياته. أستطيع الحديث عن مفاتن المكان من تجربة شخصية، وإنني مستعدٌ جداً لأن أقول أيضاً بأنه بيت يصلح على مدار العام، لأنه يقع في مسار الرياح الغربية، ملتقطاً إياها إلى حد أنه يحرم «باباي» من نسماتها. يبدو أن فاتيا لم يكن أحمق في اختياره هذا المكان ليقضي فيه تقاعده، بصرف النظر عن أن التقاعد نفسه كان كسولاً وخرفاً.

المكان الذي يجد المرء نفسه فيه، على أي حال، لا يسهم في راحة العقل: إنها الروح التي تجعل كل شيء مريحاً للمرء. لقد رأيت بنفسي أناساً يغرقون في الكآبة في بيوتٍ ريفية مبهجة وممتعة، ورأيت أناساً في أماكن معزولة تماماً يبدو عليهم أنهم قائمون على رأس أعمالهم. فليس هنالك سببٌ يدفعك إلى الشعور بأن عقلك ليس مرتاحاً لمجرد أنك لست معنا في كامبانيا. ولماذا لست كذلك، والشيءُ بالشيء يذكر، لم لا تسمحُ لأفكارك أن تسافر إلي؟ لا شيء يمنعك من الاستمتاع بمجلس الأصدقاء الجيدين، ومتى شئت أيضاً، وبقدر ما تشاء. إن متعة صحبتهم - وليس ثمة متعةٌ أكبر - هي متعةٌ نتلذذ بها أكثر عندما نكون غائبين عن بعضنا بعضاً. لأن وجود أصدقائنا حولنا يفسدنا، فبسبب حديثنا ومشينا معاً كل حينٍ وآخر لا نفكر - عندما نفترق - في الذين رأيناهم تواً. ومما يُصبّرنا على تحمل الغياب أن كل واحدٍ فينا غائبٌ عن أصدقائه إلى حدٍ بعيد حتى خلال وجودهم حوله: احسب أولاً الليالي التي يقضونها بعيدين عن بعضهم بعضاً، ثم الالتزامات المختلفة التي تشغل كلاً منهم عن الآخر، ومن ثم الوقت الذي يقضيه المرء وحيداً في دراسته ورحلاته إلى الريف، وسترى أن الفترات البعيدة لا تحرمنا من الكثير. إن امتلاك

الصديق يجب أن يكون بالروح، والروح حاضرةٌ أبداً، فهي ترى كل يوم من تحب، فشاركني في دراساتك، وفي وجباتك، وفي تمشيك. لكانت الحياة محدودةً جداً لو أن هنالك أي حاجزٍ قائمٍ دون خيالنا. إني أراك عزيزي لوكيليوس، وأسمعك في هذه اللحظة. أشعر أنني معك بحيث بدأت أعتقد أنني يجب أن أكتب لك ملاحظات وليس رسائل!

الرسالة (XXVI)

«الضوضاء»

لم أفهم في حياتي الادعاء القائل بأن السكينة ضرورية للشخص الذي يُغلق على نفسه كي ينجز بعض الدراسة، كما هو الاعتقاد الشائع. تخيلني يحيط بي لغطٌ من الضجيج من كل اتجاه، فقد استأجرتُ فوق حمام عمومي. والآن تخيل أنواع الأصوات القادرة على جعلك تكرهُ أذنيك. حينما الأشخاص المتحمسون يمارسون تمارينهم، ويدفعون بأيديهم المحملة بالأثقال في الهواء، أسمع نحنحتهم في أثناء تلويحهم – أو عندما يبدؤون تلويحهم – بالأثقال، والزفير القوي وشهقات التنفس الصعبة التي يلفظونها من رئاتهم المتعبة. من ثم يسترعي انتباهي شخصٌ أقل نشاطاً يستمتع بتدليكٍ عادي، أسمع صفعات اليدين على كتفيه، حيث الصوت يختلفُ إذا ما وصلت اليد إلى الجسم مسطحة أو مقعرة. ولكن إن جاء بعض اللاعبين بالكرة فوق كل هذا وبدؤوا يصرخون بالنتيجة، فقد انتهى أمرُ المرء! والآن أضف شخصاً يبدأُ شجاراً، وآخر أُمسك به يسرق، وهذا الذي تعجبه نغمة صوته في الحمام، والذين يقفزون إلى

البركة محدثين انتشاراً ضخماً. ويعلو على هذه الأصوات – التي هي حيلة على الأقل – صوتُ من يشتغل في إزالة الشعر، والذي يستمر بزعيقه وصراخه الرجاج ليعلن عن خدماته، ولا يصمتُ إلا إذا كان يقتلع شعر إبط أحدٍ ما فيجعل زبونه يلعلعُ بدلاً منه! ومن ثم فكر في صراخ الرجل الذي يبيع المشروبات، والذي يبيع النقانق ومخبوزات أخرى، وزعيق البائعين الآخرين وكل منهم ينادي على بضائعه بنغمة تميزه.

«لا بد أنك مصنوع من الحديد» قد تقول، «أو إن سمعك ثقيل، إذا كان عقلك لا يتأثر بكل هذا الهرج من الأصوات البشعة حولك، بينما «صباح الخير» باستمرار كانت كافية للقضاء على الرواقي كريسيبوس! لكنني أقسم أنني لا أنتبه إلى زمجرة كل هذه الضوضاء أكثر مما أنتبه إلى أصوات الأمواج المتكسرة. حتى لو ذكرني أحدهم هنا بقصة الذين نقلوا مدينتهم من جوار النيل لمجرد أنهم لم يستطيعوا تحمل هدير التيار! أظن أن أصوات البشر أكثر قابلية لتشتيت المرء من الضوضاء المحضة، فالضوضاء تملأ أذنيه وحسب وتصفعهما، بينما أصوات البشر تلتقطُ اهتمامه. من بين الأشياء التي تخلق ضجة حولي ولا تشتتني إطلاقاً: عندك العربات التي تسرع في الشارع، والنجارُ الذي يعمل قرب المبنى، ورجل يشحذ منشاره في الحي، وهذا الرجل الذي يجرّب الأبواق والمزامير قرب النافورة المتدفقة فيصدر ضوضاء بدلاً من الموسيقى. ما زلت أجد الضجة المتقطعة أكثر إزعاجاً من المستمرة، ولكنني الآن أصبحت منيعاً ضد كل هذه الأشياء بحيث أستطيع أن أحتمل حتى صيحات ربان السفينة التي تضبط تجذيف البحارة. فقد أجبرت عقلي على أن ينهمك في ذاته وألا يترك الأشياء الخارجية تزعجه. من الممكن أن يكون هناك هرج ومرج

مطلقٌ في الخارج ما دام ليس هنالك ضجةٌ في الداخل: ما دام الخوف والرغبة لا يتناطحان، ما دام العوز والبذخ لا يتصارعان ويتحرشان ببعضهما بعضاً. فما فائدة الهدوء في الحي إذا كان عقل المرء مضطرباً؟

سكينة الليل المسالمة قد هدهدت

العالم إلى الراحة."[110]

غير صحيح هذا الكلام. هذا الشيء المدعو «السكينة المسالمة» غير موجودٍ إلا عندما يهدهد العقل نفسه نحو الراحة. الليل لا يزيل قلقنا، بل يدفعه نحو السطح. ما يمنحنا إياه ليس إلا تبدلاً في المقلقات. فحتى عندما ينام الناس يحلمون بأحلام مزعجة كأيامهم. الطمأنينة الوحيدة الحقيقية هي في النمو الحر للعقل السليم. انظر إلى الرجل الذي يتطلب سعيه للنوم هدوءاً تاماً في بيته الواسع. ولكي يمنع أي صوت من إزعاج أذنه يلتزمُ عبيدُه الكثر بالصمت المطبق، وإذا اقتربوا ولو قليلاً من مكان نومه يمشون على رؤوس الأصابع. وبالطبع يتقلب من جنبٍ إلى آخر، محاولاً أن يحصل على نومٍ متقطع بين نوبات قلقه، ويتذمر من أنه سمع أصواتاً مع أنه لم يسمع شيئاً. وماذا تظن السبب؟ إن عقله يعتمل، وهذا ما يحتاج التسكين، وهنا العصيان الذي يجب قمعه. مجرد استلقاء الجسد لا يعني أن العقل في سلام. الاستراحة أحياناً بعيدةٌ عن الراحة. ولذلك نحتاج التحفيز والنشاط العام وأن نبقى منهمكين ومشغولين في مساعٍ من النوع الصحيح كلما وجدنا أنفسنا ضحايا هذا النوع من الكسل الذي يقلق من نفسه. عندما يلاحظ القادة العسكريون العظيمون انعدام

110. قطعة من ترجمة فارو أتاكينوس عن الأصل اليوناني لقصيدة Argonautica من تأليف أبولونيوس.

الانضباط في جنودهم، فإنهم يعطونهم عملاً يقومون به، فيرسلونهم في حملاتٍ كي يبقوا فاعلين في عملهم. الناس المشغولون حقاً لا يملكون أبداً الوقت الكافي لعدم الاستقرار. ولا شيء أكيدٌ أكثر من أن عواقب الخمول المضرة يقضي عليها النشاط.

نحن كثيراً ما نعطي انطباعاً بأن أسباب انسحابنا من الحياة السياسية هو الاشمئزاز من الحياة العامة أو عدم الرضا عن منصب غير ملائم وغير مجزٍ. ولكن كل حين وآخر يعود الطموح ليطل برأسه مجدداً في عزلتنا التي دفعتنا إليها، في الواقع، مخاوفنا، واهتمامنا المتضائل، فطموحنا لم يتوقف لأننا اقتلعناه من جذره، بل لمجرد أنه قد تعب، أو قُلْ إنه اغتاظ من قلة نجاحه. وأقول الشيء نفسه عن الحياة البذخة، والتي تبدو أحياناً أنها غادرت المرء ومن ثم، بعد أن يعلن المرء الحياة البسيطة، تضعُ الإغراء في طريقه، وفي خضم تخطيط المرء للاقتصاد في أموره، تجعله ينطلقُ وراء لذات قد تخلّص منها، ولكنه لم يُدِنْها. وتزداد مطاردتها توحشاً كلما قل انتباه المرء إليها. لأن الرذائل، عندما تكون مكشوفة، تأخذ أشكالاً اكثر اعتدالاً، وكذلك الأمراض تكون في طريقها نحو العلاج عندما تظهر بدلاً من أن تكون كامنة، ويصبح وجودها محسوساً. وكذلك حب المال وحب السلطة والأمراض الأخرى التي تصيب عقول البشر، كن واثقاً أنها حين تنحسر وتبدو قد شُفيت، فهي في أخطر حالاتها. نحن نعطي للناس عن أنفسنا انطباع الاعتزال، ولسنا على شيء من ذلك. فلو أننا كنا صادقين فيه، لو أننا كنا قد أعلنّا التراجع وأدرنا ظهورنا فعلاً لما يجري في الخارج، فإذاً، كما كنت أقول، لما كان شيءٌ ليشتت انتباهنا. وغناء الرجال

والطيور معاً في جوقةٍ كاملة لن يستطيع أن يجد طريقه إلى تفكيرنا عندما يكون ذلك التفكيرُ جيداً وقد أصبحَ أخيراً ذا طبيعةٍ واثقةٍ وثابتة.

إن الطبع الذي يتقلب لسماع صوت، أو ضوضاء عرضية بشكل عام، طبعٌ غيرُ مستقر، ولم يصل بعد إلى الانعزال الداخلي. وفيه عامل من الترقب، وعامل من الخوف المتجذر الذي يجعل الرجل فريسة للقلق، كما في الوصف عند فرجيل:

وأنا، الذي ما كنت يوماً أجفلُ
من الرماح الطائرة أو صفوف الإغريق المكتظة بالجنود
الآن أقلق من كل نسمةٍ وأهتزُّ من
كل صوتٍ، في خوفٍ
على هذا المرافق وهذا الحِمل كليهما.(١١١)

الشخصية السابقة هنا هي الرجل الحكيم، الذي لا يعرف الخوف من الرماح أو من اصطكاك السلاح بالسلاح في الصفوف المرصوصة، أو الضوضاء المدوية لمدينة تحارب، ولكنه في خوفه على ممتلكاته يخشى كل ضجيج، وصرخةٌ واحدة كفيلةٌ بإرعابه أياً كان سببها، إذْ يعتبرها فوراً صرخة عدو، وأقل حركة ترعبه حدَّ الموت. إن حِملهُ يجعله جباناً. انتق أياً من رجالك «الناجحين»، مع كل ما يجرّونه خلفهم أو يحملونه معهم،

111.Aeneid, II:726-729. إينياس يصف مشاعره وهو يقود ابنه ويحمل أباه إلى خارج طروادة في أثناء نهبها.

وسوف تجد صورةً للرجل الذي يخاف «على هذا المرافق وهذا الحمل». كن واثقاً إذاً أنك «تُهدهَد إلى الراحة» حين لا تستطيع الضوضاء أن تصل إليك، وحين لا تهزك الأصوات فتخرجك عن طبعك، سواءً أكانت مهددة أو مُرغبةً أو مجرد جلبة من الصوت الفارغ حولك.

«كل هذا جيد» قد تقول «ولكن أليس من الأبسط كثيراً أحياناً الابتعاد عن وكر الضوضاء؟» أنا أعترف بذلك، وفي الواقع، سوف أنتقل إلى مكان آخر قريباً لهذا السبب. ما أردته كان اختبار نفسي، وبعض التدريب. ولماذا يجب أن أعاني التعذيب وقتاً أطول مما أرغب بينما وجد عوليس حلاً بسيطاً لرفاقه ضد السيرانات أنفسهن؟[112]

112. يحكي هوميروس في الكتاب XII من الأوديسة كيف أن البطل، بناء على نصيحة الإلهة كيركي [أو سيرسي Circe]، ملأ آذان طاقم سفينته بشمع النحل في أثناء تجذيفهم حيث تغني السيرانات.

الرسالة (XXVII)

«الحداد وتوقع الموت»

إنني آسفٌ لسماعي بموت صديقك فلاكوس. وعلى الرغم من ذلك فإنني لن أقبل بأن تحزن على نحو غير سليم بسبب ذلك. لا يمكنني أن أطالبك بألا تحزن أبداً، مع أنني مقتنع بأن هذه هي الطريق الأفضل. ولكن من سيُمنح قوة الشخصية تلك، إلا إن كان شخصاً ارتقى بعيداً عن امتداد يد القدر؟ وحتى هو سيشعر بلسعة من الألم عندما يحصل شيٌ كهذا - ولكنها لسعةٌ وحسب. أما نحن، فمعذورون في خضوعنا للدموع شرطَ ألا تزيد عن حدها، وأن نوقفها بأنفسنا. عندما يفقد المرء صديقاً لا يصحُّ أن تكون عيناه جافتين أو متدفقتين. الدموع، أجل، يجب أن توجد، ولكن ليس الحسرة. هل تجد القاعدة التي أضعها قاسية؟ وقد حصرها أعظم شعراء الإغريق بيومٍ واحد؟ لا أكثر: حقُّ المرء بالبكاء: في المقطع الذي يخبرنا فيه أن حتى نيوبي تذكرت أن تأكل؟[113] هل تريد أن

---

113 Homer, Iliad, XIX:228-229, XXIV:601-602. [نيوبي في الميثولوجيا اليونانية أمّ عاقبها الانتقام الإلهي بقتل أبنائها.]

نعرف ماذا يقبع خلف الإجهاش والعويل؟ إننا في دموعنا نحاول أن نجد طريقة لنثبت أننا نشعر بالخسارة. نحنُ لسنا محكومون بالخسارة بل نقيمُ لها احتفالاً. لا أحد يدخلُ في الحدادِ من أجل نفسه وحسب. أو من الحماقة المزرية في كل ذلك: أن يجد شيءٌ من المباهاة طريقه إلى الحزن!

سوف تسألني: «قل الحق! أتقول أنني يجب أن أنسى شخصاً كان صديقي؟» حسنٌ، إنْ كانت ذكراه ستدومُ بقدر حدادك، فأنت لا تحتفظُ بذكراه طويلاً. في لحظة ما أو أخرى سوف يحصلُ شيءٌ يحوّلُ وجهك البائس هذا إلى وجهٍ مبتسم. لا أظن الوقت سيطول قبل أن يقلّ شعور الخسارة، وتهدأ حتى أقسى مشاعر الحزن. سيتوقف وجهك عن كونه صورةَ الحزن التي ترتسم عليه الآن فورَ توقفك عن النظر إلى نفسك. الآن أنت تراقب حدادك، ولكن حتى في أثناء مراقبتك له فهو يتلاشى شيئاً فشيئاً، وكلما زادت حدته كان توقفه أسرع.

دعنا نجعل من ذكرياتنا للذين خسرناهم سبباً للسعادة لنا. لا أحد يرغب في أن يعود بعقله إلى ذكرى لا تجلب له إلا الألم. على الرغم من أن أسماء الذين نحبهم وقد خسرناهم قد تجلب لنا نوعاً ناهشاً من الألم عندما نفكر فيهم، فإن ذلك الألم لا يخلو من متعته الخاصة. كما كان أستاذي أتالوس يقول: «المتعة التي نجدها في ذكرى أصدقائنا الراحلين تشابه الطعم المحبب لفاكهة مرّة ما أو كما أن للحموضة التي توجد في نبيذ عتيق جداً طعمٌ خاص، ولكن بعد مدة معينة كل ما يؤلمنا يُمحى، وتأتي السعادة إلينا غير مشوبة». إذا صدقناه: «التفكير بالأصدقاء الأحياء كأكل العسل والكعك. وتذكر الذين رحلوا ممتعٌ ولكن لا يخلو من لمسة حزن. ولكن

من ذا الذي ينكر أن حتى الأشياء الحامضة مثل هذه والتي فيها قساوة في الطعم تحرك الشهية؟» أنا شخصياً لا أتفق معه هنا. التفكير في الأصدقاء الراحلين عندي شيءٌ حلوٌ ونشوان. لأنهم عندما كانوا معي كان يحضرني شعور أني سأفقدهم، والآن وقد فقدتهم، ما زلت أشعرُ أنهم معي باقون.

إذاً يا عزيزي لوكيليوس، تصرف بما يتلاءم مع عقلانيتك المتزنة المعتادة وتوقف عن إساءة الظن بكرم الأقدار. لقد أعطتك كما أخذت. دعنا إذاً نجتهد في سعينا للاستفادة الكبرى من الأصدقاء، فلا أحد يعلم متى نفقدُ هذه الفرصة. دعنا نفكر وحسب كم نتركهم وراءنا ونحن ذاهبون في رحلة طويلة ما، أو كم نخفق في الالتقاء بهم ونحن موجودون في المنطقة نفسها، وسوف نستوعب أننا قد خسرنا من الوقت كثيراً جداً بينما كانوا أحياء. هل تطيقُ الذين يهملون أصدقاءهم بشكل كامل ومن ثم يعلنون الحداد عليهم للاستعراض، فلا يكترثون بأحدٍ إلا إذا فقدوه؟ وسبب مبالغتهم في الرثاء إلى هذا الحد هو الخوف من تساؤل الناس عن اهتمامهم بأصدقائهم. إنهم يبحثون عن طرقٍ متأخرة للتعبير عن إخلاصهم. إن كان عندنا أصدقاء آخرون، فنحن غير كريمين ولا نقدرهم إذا كانوا لا يعنونَ لنا إلا القليل في تعزيتنا بمن دفنّاهم. إن لم يكن عندنا أصدقاء آخرون، فقد فعلنا بأنفسنا أذىً أكبر من الذي فعلته الأقدار: لقد حرمتنا من صديقٍ بينما حرمنا أنفسنا من كل صديقٍ أخفقنا في الوصول إليه. وأكثر من ذلك، فإن الشخص الذي لا يكترث إلا بصديقٍ واحد لا يمكن أنه كان يهتم كثيراً حتى بهذا الواحد. تخيل أن شخصاً فقد قميصه الوحيد بسبب سرقة، ألا تراه غبياً محضاً لأنه اختار أن يبكي على الخسارة بدلاً من أن يبحث حوله عما قد يردُّ عنه البرد أو يجد

شيئاً يضعه على أكتافه؟ لقد دفنت من تحب. الآن ابحث عمن تحب. إن تعويض خسارة الصديق خيرٌ من البكاء عليه.

ما أنا على وشك قوله، كما أعلم، شيءٌ معروف، ولكن هذا لن يجعلني أحذفه لمجرد أن الجميع قد قاله. حتى الشخص الذي لا ينهي حداده بإرادته سوف يجد له نهاية في آخر المطاف. وأن تملّ الحداد نهاية معيبة للحزن عند المتنورين. أفضلُ أن أراك تتخلى عن الحزن بدلاً من أن يتخلى عنك. مهما كنت مصمماً فلن تستطيع أن تحافظ عليه وقتاً طويلاً، فتخلَّ عنه بأسرع ما يمكن. للنساء، قرر أجدادنا مدة الحداد سنة من الزمان، وليس قصدهم أن المرأة يجبُ أن تبقى في الحداد عاماً، بل أنها يجب ألا تزيد على ذلك، وللرجال لم يحددوا أي مدة، لأن تحديد أي وقتٍ لن يكونَ لائقاً. ولكن من بين كل الإناث المثيرات للشفقة اللاتي تعرفهن، واللاتي لم يتركن القبور حتى جُررن من عليها، أو حتى انتزعن من على الجثة نفسها بصعوبة بالغة، هل لك أن تريني واحدةً منهن دامت دموعها شهراً؟ لا شيء يجعلُ من المرء غير محبوبٍ بسرعة أكثر من حداده. فهو يجذبُ الناس إلى جانبه في البداية، ليجد من يقدم له التعزية. ولكنه إذا تطاول يصبح موضع سخرية – ويستحق ذلك أيضاً، لأنه إما ادعاءٌ وإما حماقة.

كلُّ هذا يأتيك مني أنا: الرجل نفسه الذي بكى على أنايوس سيرانوس، ذلك الصديق الأعز عندي، وفعلت ذلك بلا انضباط إلى حد أنني يجب أن أضمَّ – على الرغم من أن هذا آخر ما أرغب فيه – إلى قائمة الذين هزمهم الحزن! وعلى الرغم من ذلك فإنني أدينُ اليوم ما فعلتُه

وفتها. إنني أعلمُ الآن أن الرثاء بالطريقة التي أقدمت عليها كان لأنني لم أفكر حتى في احتمال موته أمامي. كان أصغر مني في العمر، وأصغر بفارق كبير أيضاً، وهذا كل ما خطر في بالي. وكأن القدر يبالي بالأسبقية! دعنا إذاً نتذكر أن الذين نحبهم معرضون للموت بقدر ما نحن معرضون له. ما كان يجب أن أقوله من قبل كان: «صديقي سيرانوس أصغر مني، ولكن أي فرقٍ يصنعه ذلك؟ يجب أن يموت بعدي، ولكن من المحتمل جداً أن يموت أمامي». وبالضبط لأنني لم أفعل ذلك أخذتني الأقدارُ على حين غرّة بتلك الضربة المفاجئة. وبتُّ الآن عارفاً بعرضة كل الأشياء للموت، وأكثر من ذلك: أن عرضتها للموت لا تخضع لقوانين. أي شيء قابلٌ للحصول في أي وقتٍ قابلٌ أن يحصلَ اليوم. دعنا إذاً، يا عزيزي لوكيليوس، نتأمل في أننا لن يطول بنا الزمن قبل أن نرحلَ إلى حيث ذهابُ أصدقائنا يحزنُنا. ولربما أيضاً، إن كان ثمةَ حقيقةٌ في القصة التي يرويها الحكماء، وكان ثمة مسكنٌ مُرحّبٌ بنا بانتظارنا، فلعلّ من نظنهم ماتوا ورحلوا قد أرسلوا إلى الأمام وحسب.

الرسالة (XXVIII)

«السبب الأول، والعقل الخلاق»

لقد تشاركتُ بارحتي مع نوبة من المرض. انتزعت مني الصباح ولكنها سمحت لي بها بعد الظهيرة. فبدأت ببعض القراءة لأرى كم من الطاقة عندي. ومن ثم عندما أثبت لنفسي قدرتها، غامرت بمطالبتها بالمزيد - أو لربما الأصح أنني قدمت لها تنازلات - وكتبتُ بعض الشيء. وفعلتُ ذلك بأفضل من تركيزي الاعتيادي أيضاً، نظراً لصعوبة الموضوع ورفضي للإذعان، حتى تدخل بعض أصدقائي ووضعوا حداً للمسألة، مستخدمين القوة لتقييدي وكأنني عاجزٌ يبالغ في تهوره. فاستبدلنا القلم بالكلام، والذي تضمن المسألة الخلافية التالية التي سوف أعرضها عليك. لقد عيّناك حكماً: وبين يديك قضية أعقد مما تتصور، لأن محتواها يتضمن ثلاثة جوانب.

إن فلاسفتنا الرواقيين، كما تعلم، يؤمنون أن الكون يحتوي عنصرين تشتق منهما كل الأشياء، وهما السببُ والمادة. المادة تبقى خاملة وغير فاعلة، مادة ذات إمكانيات غير محدودة، ولكن مصيرها أن تبقى خاملة

إن لم يضعها أحدٌ في حركة ما. والسببُ - وهو العقل أيضاً - هو الذي يحول المادة إلى الشكل الذي يختاره أياً كان ويصوغها لتصبح أياً من نواحيه المختلفة. لا بد إذاً من شيءٍ تخرجُ منهُ الأشياء إلى الوجود، وشيءٍ أخرِ تخرج الأشياء بواسطته إلى الوجود. الأول هو المادة والثاني هو السبب. الآن، كل الفن تقليدٌ للطبيعة، فطبق ما كنت أقوله عن الكون على عمل الإنسان اليدوي. خذ تمثالاً: كانت له المادة التي عمل عليها النحات، وكان له النحات الذي منح التشكيل للمادة. بكلمات أخرى، في حالة التمثال، البرونز هو المادة والصانعُ هو السبب. والأمر نفسه في كل الأشياء: كلها تنشأ من شيء يأتي إلى الوجود، وشيءٍ آخر يجلبها إلى الوجود.

يؤمن الرواقيون بأن هنالك سبباً واحداً فقط: الشيء الذي يأتي بالأشياء إلى الوجود. أرسطو يظن أن مصطلح «سبب» يمكن أن يُستعمل بثلاثة معانٍ مختلفة. يقول: «السبب الأول هو المادة، والتي من دونها لا يمكن أن يُجلبَ شيءٌ إلى الوجود، والثاني هو الصانع، والثالث، هو الشكل، والذي هو محفورٌ في كل قطعة عمل كما على التمثال». هذا الثالث هو ما يدعوه أرسطو *idos*. ويقول: «وهنالك رابعٌ أيضاً، هدفُ العمل الكُلي». دعني أشرح لك ما يعنيه ذلك. «السبب الأول» للتمثال هو البرونز، فما كان ليصنع لولا وجود شيءٍ يُصب منه أو يقولب. و«السبب الثاني» هو «النحات»، فما كان البرونز ليتشكل في الحالة التي هو عليها لولا يداه الماهرتان التلتان تعاملتا مع التمثال. و«السبب الثالث» هو الشكل، فالتمثال ما كان سيُدعى «حامل الرمح» أو «الصبي يربط

شعره»[114] لولا أن هذه هي الصفة التي طُبعت فيه. و«السببُ الرابع» هو الغاية الأخيرة من صنعه أصلاً. ما هذه الغاية؟ هي ما جذب النحات، هدفهُ في صنعه: قد تكون المال إن كان ينوي بيعه في أثناء صنعه، أو الشهرة إن كان هدفه نشر اسمه، أو الدِّين إذا كان عملاً سوف يقدم لمعبد. إذاً، هذا أيضاً سبب في مجيء التمثال إلى الوجود، إلا إن اتخذت وجهة النظر القائلة بأن الأشياء التي ما كان التمثال ليصنع من دونها يجب ألا تحتسب في قائمة أسباب تخليقه المعين.

وأضاف أفلاطون، إلى هذه الأسباب الأربعة، سبباً خامساً – ما دعاه هو نفسه *idea*[115] [الفكرة] وهذا هو ما كان نصب عيني النحات في أثناء تنفيذه العمل المزمع. ليس مهماً إذا ما كان الصانع يملك المخطط في الداخل أو في الخارج، إن كان مخططاً يستطيعُ أن يوجه عينيه إليه أو آخر يدركه ويؤسسه الفنان في رأسه. للإله في داخله نماذج كثيرةٌ كهذه تتضمن تصاميمه ومشاريعه وحساباتها، إنه ممتلئ بهذه الصور التي يدعوها أفلاطون (الأفكار)، أبدية، ثابتة، ديناميكية بلا توقف. ولذلك حتى لو أن الكائنات البشرية تموت، فإن البشرية بحد ذاتها – ذلك النمط الذي يقولب على أساسه كل إنسان – يبقى حياً، وبينما البشر يمرون بالكثير ويعبرون الكثير، فهي بحد ذاتها تبقى غير متأثرة. فكما يرى أفلاطون، إذاً، هنالك خمسة أسباب: المادي، الوسيط، الشكل، النموذج، والغاية، وفي النهاية نحصل على نتيجة كل هذه مجتمعة. في حالة التمثال، وإتماماً لمثالنا

114. عملان مشهوران للنحات الإغريقي العظيم من القرن الخامس: بوليكليتوس Polycletus. وقد بقيت نسختان محفوظتان من التمثالين.

115. [الفكرة، أو المثال كما تدعى ضمن نظرية المثل.]

الذي بدأنا به، المادي هو البرونز، والوسيط هو النحات، والشكل هو الهيئة التي يُعطاها، والنموذج هو ما نسخه النحات، والغاية هي ما يريده الصانع من صنعه، والنتيجة النهائية هي التمثال بحد ذاته. والكون نفسه، حسب قول أفلاطون، يحتوي هذه العوامل كلها. الصانع هو الإله، والمادي هو المادة، والشكل هو الصفة العامة وبنية الكون كما نراه، والنموذج على نحوٍ طبيعي هو نمطٌ تبناه الإله لخلق هذا العمل الجبار من الجمال، والغاية هي ما أراده الإله حين خلقه، وهذه الأخيرة – إن كنت تتساءل عما كان يريد الإله من خلقه – هي الخير. هذا على أي حال ما يقوله أفلاطون: «ماذا كان سبب خلق الإله للكون؟ الإله خيّرٌ، ومن هو خيّرٌ لا يمكن أن يحقد على ما هو خير، فجعله أجود عالمٍ أمكنهُ صُنعه».

الآن الأمر عندك حضرةَ القاضي لتعلنَ حكمك وتقرر أيّ الأقوال في رأيك تبدو أقربها إلى الحقيقة (وليس أيها الحقيقي بالمطلق، فمثل هذا، في حالنا هذه، بعيدٌ عنا بُعد الحقيقة الصرف بحد ذاتها).

إما أن مجموعة الأسباب هذه – التي جمعها أرسطو وأفلاطون – تتقبل أكثر من اللازم، أو أنها تتقبل أقل من اللازم. فلو اعتبروا أن كل ما يؤدي غيابه إلى عدم القدرة على جلب الشيء إلى الوجود هو سببٌ في خلقه، فلقد قصروا في ما يجب قبوله: كان يجب أن يعدّوا الزمان في قائمة أسبابهم، فلا شيء يمكن أن يُجلب إلى الوجود بدون الزمن، وكان يجب أن تتضمَّنَ المكان، فبالتأكيد لا شيء يمكن أن يُجلب إلى الوجود إن لم يكن هنالك مكان يحصل ذلك فيه. وكان يجب أن تتضمَّنَ الحركة، والتي من دونها لا يدخل شيءٌ في الوجود ولا يخرج منه شيء. دون الحركة ليس

هنالك شيءٌ نسميه الفن، ولا شيْ نسميه التغير. ولكن ما نبحث عنه في هذه اللحظة هو سببٌ رئيسي وعام، وهذا يجب أن يكون شيئاً أولياً، لأن المادة أيضاً أولية. إذا سألنا ما هو السبب، فإن الإجابة بالتأكيد هي العقل الخلاق، أي الإله. كل تلك الأشياء التي وضعتها في قائمة ليست أسباباً منفصلة، بل هي معتمدةٌ على سبب واحد: السبب الذي يخلقُ فعلاً. قد تقول أن الشكل سبب، ولكن الشكل شيءٌ يفرضه الفنان على العمل، فهو جزءٌ من السبب، أجل، ولكنه ليس سبباً. والنموذج أيضاً أداةٌ لا يمكن للسبب الاستغناء عنها، ولكنها ليست سبباً. إذْ لدى النحات: النموذج مهمٌ كما المنشار والإزميل: لا يمكن لفنه أن يُنجز من دونها، ولكن هذا لا يجعلها جزئين من الفن، ولا سببين له. يقول صديقنا: «إن الغاية التي يريدها الفنان، الشيء الذي يدفعه نحو القيام بفعلٍ خلاق، هي سببٌ». حتى لو سلمنا بأنها كذلك، فهي تبقى سبباً مُلحقاً، وليس السبب الفعَّال. الأسباب الملحقة لا نهائيةٌ في عددها، ولكن ما نبحث عنه هو السبب العام. وفي أي حال، فإن تأكيد أفلاطون وأرسطو على أن الكون بكليَّته، وأكمله، أي العمل المنتهي بعد الخلق، هو سببٌ، لا يتوافق مع حذاقتهما المعتادة كمفكرين. ثمة فرقٌ كبيرٌ جداً بين المخلوق وبين سببه.

والآن عليك إما أن تُعلن حكمك أو – وهذا الحل الأسهل في هذا النوع من المسائل – أن تعلن عدم قدرتك على الوصول إلى حكمٍ، وتطلب إعادة إجراء الجلسة للاستماع. وقد تسألني: «أي متعةٍ تجدها في تبذير الوقت بالنقاش في هذه الأسئلة؟ فلا يمكنك القول أنها تخلصك من أي مشاعر أو اندفاعٍ في الرغبة». حسنٌ، إنني في طرحي ومناقشتي لهذه المواضيع الأقل استحقاقاً أدّعي بأنها تخدمني من حيثُ هي تهدئ

روحي، وبينما أتفحص نفسي أولاً بالتأكيد، فإنني أتفحص الكون حولي من بعد ذلك. وأنا لست أضيعُ الوقت كما تقول، لأن هذه الأسئلة – بشرط ألا تُعرَّض للتقطيع والتشريح بالنوع عديم الفائدة من الإفراط في المكر – كلُّها ترفع من الروح وتخففها، الروحُ التي تتوق إلى الحرية من الحمل الثقيل المقيدة به هنا، والعودة إلى العالم الذي كانت تنتمي إليه يوماً ما. لأن جسدنا هذا بالنسبة إليها عبءٌ ثقيل وعذاب، ويسحقها ثقله الضخم، فالروح حبيسةٌ إن لم تأت الفلسفة لإنقاذها، جاعلةً إياها تتنفس بحرية أكبر في تأمل الطبيعة، وتحررها من محيطها الأرضي إلى محيطها السماوي. هذا يعني الحرية للروح، القدرة على التجول بعيداً، فتهرب قليلاً من السجن الذي يقيدها وتتجدد قدرتها في السماء. عندما يضطرُّ الصنَّاعُ للعمل في نورٍ غير ملائمٍ ولا يُعتمد عليه لإنجاز قطعة معقدة تتطلب جهداً متعباً من العينين، فإنك تراهم بعدها يخرجونَ إلى الهواء المفتوح ويمتعون عيونهم بنور الشمس الحُر في بقعة مفتوحة ما مخصصة للتنزه العام. وكذلك الروح، المحبوسة في هذا المسكن المظلم والتعس، تسعى بقدر ما تقدرُ إلى الخارج، وتجد السكينة في تأمل الكون الطبيعي.

من نافل القول أن الحكيم والمخلص للفلسفة غير قابلٍ للفصل عن جسده، ولكنه على الرغم من ذلك منفصلٌ عنه في ما يخُصُّ أفضل جزءٍ من شخصيته، موجهاً أفكاره نحو أشياء أعلى. إن نظرته إلى حياته هذه كنظرة من وقع على عقد تجنيده: بصفتها المدة التي يُحتَّمُ عليه قضاؤها. ولذلك يكون في حالةٍ لا يحبها فيها ولا يكرهها. يتحمل مصيره من الفناء على الرغم من أنه يعلم بأن مصيراً أفضل ينتظره.

هل تقول لي ألا أحقق في العالم الطبيعي؟ أتحاول أن تمنعني من كُليته وتحجزني في قسمٍ منه؟ أليس لي أن أسأل كيف بدأ كل شيء في الكون؟ ومن أعطى الأشياء أشكالها؟ من فصلها عن بعضها بعضاً عندما كانت كلها مبعثرةً في خليط واحد ضخم من المادة الخاملة؟ ألا أتساءل عن هوية الفنان الذي خلق الكون؟ أو العمليةِ التي أنتجت هذه الكتلة العملاقة وجعلتها خاضعةً للقانون والتنظيم؟ أو طبيعة الذي جمع الأشياء التي كانت متفرقة، وفرّق الأشياء التي اختلطت ببعضها بعضاً، وأعطى كل الأشياء القابعة في فوضاها عديمة الشكل أشكالها الفردية؟ أو مصدر النور؟ (أهو النار أم شيءٌ أكثرُ بريقاً؟) الذي يغمرنا بكل هذه الوفرة؟ هل يفترض بي ألا أبحث في هذا النوع من المواضيع؟ أليس لي أن أعرف من أين أنا متحدرٌ؟ هل سأعرف هذا العالم مرةً أم سأولد فيه مرةً بعد مرة؟ وأين ستكون وجهتي بعد أن أنهي إقامتي هنا؟ أي سكنٍ ينتظر روحي عندما تتحرر من شروط عبوديتها على الأرض؟ هل تحرِّمُ عليَّ التعامل مع السماء؟ بكلمات أخرى تأمرني بأن أمضي في الحياة وعيناي على الأرض؟ أنا أعظمُ... وولدت لقدرٍ أعظمَ... من أن أكون عبداً لجسدي. وفيما يخصني في الموضوع لا أرى هذا الجسد إلا قيداً على حريتي. أضعه بوضوح في طريق الأقدار، تاركاً إياها تمارسُ هجمتها عليه، ولا أسمح لأي ضربةٍ بأن تصلَ إلى ذاتي الحقيقية. فهذا الجسدُ هو وحده المعرّض للإصابة مني: وفي هذا المسكن المعرض جداً للأذى تعيش روحٌ حرة. أبداً لن يرغمني هذا الجسد على الشعور بالخوف، أبداً لن يدفعني نحو أي ادعاء لا يليق بإنسان خيِّر. أبداً لن أكذب من أجل هذا الجسد السخيف. وسوف أفكُّ شراكتنا عندما يبدو الأمر ملائماً، وحتى الآن ونحن

مربوطان ببعضنا بعضاً فإن الشراكة ليست بشروط سواء: فللروح السلطة التي لا تُجزأ. رفضُ المرء الامتثالَ لجسده ضمانةُ حريته.

وفي شأن هذه الحرية (كي نعود إلى موضوعنا) فحتى هذا النوع من التساؤلات الذي تكلمنا عنه تواً فيه إسهامٌ مجزٍ. نحن نعلم أن كل ما في الكون يتألفُ من المادةِ ومن الإله. الإله يتحكمُ فيها كلها، فهي تحيطُ به وتتبعُ كلها قيادته وإرشاده. القوة الأكبر والقيمة الأكبر توجدان في الذي يخلقُ (في هذه الحالة الإله) وليس في المادة التي يصنعها الإله. حسنٌ، المكانُ الذي يتخذه الإله في هذا الكون يناظره في الإنسان المكانُ الذي تتخذه الروح. وما هو المادة في الكون هو الجسدُ فينا. فليخدم الأسوأ إذاً من هو أفضلُ منه. فلنلاقِ بشجاعةٍ كل ما يعصفُ بنا. ولا نرتجف من فكرة الإصابة أو الأسر، أو الفقر أو الاضطهاد. ما هو الموت؟ إما نقلةٌ وإما نهاية. أنا لا أخاف الوصول إلى نهاية، فهذا نظير ألا تكون قد بدأت أصلاً، ولا أخشى نقلةً، إذْ لا يوجدُ مكان أضيقُ من الذي أنا محبوسٌ فيه هنا.

الرسالة (XXIX)

«الانتحار والخوف من الموت»

اليوم رأينا بعض القوارب من الإسكندرية – تلك التي يدعونها «حُزَمَ البريد» – وقد دخلت مجال بصرنا فجأة. هذه السفن هي التي تُرسَل في العادة كي تعلن عن وصول الأسطول الذي يلحق بها. وأهل كامبانيا دائماً ما يرحبون برؤيتها. تجمّعَ أهل بوتيولي كلهم على أرصفة الميناء، والكل يميز السفن الإسكندرية من أشرعتها المميزة، فهذه السفن هي الوحيدة التي يسمح لها بإبقاء أشرعتها العليا مفتوحة. في البحر المفتوح، تفتح كل السفن هذه الأشرعة، فلا شيء يزيد من السرعة كالقماش الأعلى، فمنه يحصل القارب على أكبر دفع. ولذلك كلما أصبحت الرياح عاتية أكثر من اللازم يقصّرون الشراع، لأن قوة الرياح أقل في الأسفل. وعند الدخول في القناة بين [جزيرة] كابري وبين اللسان البحري حيث

على القمة المستعرة بالعواصف تراقبُ بالاس

من شرفتها العليا،[116]

116. مصدر هذا الاقتباس غير معروف. و Pallas بالاس من أسماء الإلهة أثينا (اسمها الروماني مينرفا) والتي كان لها معبد على خليج جزيرة كابري القريب من نابولي وبوتيولي.]

تُلزم القوانين كل السفن بالاكتفاء بالشراع القصير، وبالتالي فإن لشراع العالي مثير للانتباه على السفن الإسكندرية.

وبينما كان الكل حولي يسرعُ من كل اتجاه نحو واجهة البحر، وجدتُ لذة كبيرة في أن أرفض الإسراع، فعلى الرغم من أنني أنتظر رسائل موجهة إلي من معارفي على متن هذه القوارب، فأنا لست في عجلةٍ لمعرفة التقارير التي تحملها أو ما هي حالة مصالحي المالية هناك. بات لي وقتٌ طويل الآن لا أكترث بالربح أو الخسارة. هذه متعة كان يجب أن أستمتع بها قبل أن أصبح عجوزاً. ولكن شيخوختي جعلت المتعة أكبر، فالآن: مهما قلت أموالي سوف يبقى معي مصروف يكفيني ويزيد على ما تبقى من رحلتي، وخصوصاً أن هذه الرحلة التي انطلقنا فيها جميعاً ليست رحلةً نضطر لمتابعتها حتى النهاية. إن الرحلة العادية لا تكتمل إذا توقفت في منتصفها، أو في أيّ مكان غير وجهتك، أما الحياة فلا تكون أبداً غير مكتملة إن كانت حياةً مشرفة. إينما توقفت الحياة، إن غادرتها بالطريقة الصحيحة، فإنها حياةٌ اكتملت. وهنالك الكثير من المناسبات التي على المرء فيها أن يغادر الحياة، ليس بشجاعةٍ وحسب، بل أيضاً لأسبابٍ ليست قاهرة كثيراً: فالأسبابُ التي تبقينا هنا ليست قاهرةً هي الأخرى.

توليوس ماركلينيوس، الذي تعرفه جيداً، رجلٌ شاخ قبل أوانه، وجد السكينة في حياته المبكرة، وبدأ بالتفكير في الانتحار بعد أن أصيب بمرضٍ، ليس عضالاً لا أمل منه، ولكنه طويلُ الأجل ومرهق، ويتطلب عناية صعبة. دعا مجموعة كبيرة من أصدقائه، وكلٌ منهم قدم له النصيحة. وتضمنت النصائح إما حثَّه (من الجبناء منهم) بأن عليه أن يتبع الطريق

الذي يراه هو ملائماً لنفسه وكافة أنواع النصح الفارغ الذي يقدمه المدّاحون ويعتقدون أنه يَسُرُّ شخصاً يفكِّر بالانتحار. حتى وصل الدور إلى صديق لي رواقيّ، وهو شخصية مذهلة، لا أجد له وصفاً أحسن من أن أقول عنه أنه رجل ذو شجاعة حربية، فقدم له النصيحة التي أظنها الأكثر إلهاماً. هكذا بدأ حديثه قائلاً: «عزيزي ماركلينيوس» لا تجعل هذا يقلقك وكأنك تتخذُ قراراً كبيراً. لا شي رائع جداً في البقاء على قيد الحياة: كل عبيدك وحيواناتك أحياء. ولكن ما هو عظيمٌ أن تموت بطريقة مشرفة ومتنورة وشجاعة. فكر الآن كم بات لك من الوقت تفعل ما يفعلون: الطعام والنوم والجنس، حلقة لا تنتهي. الرغبة بالموت لا تأتي للشجاع أو المتنور أو التعس وحدهم، بل حتى للضعيف أيضاً'. حسنٌ، ماركلينيوس لم يكن يحتاج إلى التشجيع، بل المُساعدة. عبيدهُ رفضوا إطاعته في ذلك، وحينها بدَّد صديقنا الرواقي خوفهم، فأفهمهم أن طاقمَ البيت لا يكونون عرضة للخطر إلا إذا كان هنالك شكٌّ بأن موت السيد ليس طوعياً، وعلاوةً على ذلك، كما أخبرهم، فأن تجعل الناس يرونك تأمر سيدك بألا يقتل نفسه، شيءٌ بسوء أن تقتله بيديك. من ثم اقترح على ماركلينيوس نفسه أنها ستكون لفتةً كريمة منه لو أنه – كما توزّعُ بقايا مائدة العشاء بين الحضور – قدّمَ شيئاً في آخر حياته لأولئك الذين خدموه في عيشه. ماركلينيوس كان ذا طبيعة كريمة وخيّرة، وليس أقلّها ما يتعلق بإنفاق ماله، فوزع بالتالي كميات قليلة من النقود بين عبيده، الذين باتوا يبكون، وصار هو يواسيهم جميعاً. لم يحتج إلى سلاح أو إلى إهراق دم. بعد امتناعه عن الطعام ثلاثة أيام أقام خيمة بخارٍ في غرفة نومه، وأحضروا له حماماً، تمدد فيه وقتاً طويلاً، وبينما جاءت دفقات الماء الحار المتجددة بدأ

يفقدُ وعيه رويداً رويداً، وليس من دون أن يُعبر أكثر من مرة عن شعوره بالمتعة، نوع المتعة الذي يحضرُ في التواري اللطيف، ويعرفُه من أغمي عليهم سابقاً.

لقد أطَلت، ولكنك لن تمانع في سماع هذه الحكاية، لأنها ستعرِّفك أن رحيل صديقك لم يكن صعباً أو غير سعيد. على الرغم من أن موته كان بيديه، لكن طريقة وفاته كانت كاملةً في لطفها، طوافٌ إلى خارجِ الحياة. ولكن القصة ليست بدون قيمة عملية للمستقبل. لأن الحاجة كثيراً ما تُضطرنا إلى مثل هذه الأمثلة. غير قليلةٍ هي الأوقات التي لا نستطيع مصالحة أنفسنا فيها مع الموت، أو لا نعلم بأن علينا أن نموت.

لا يبلغُ الجهل من أحدهم أنْ يظن أنه لن يموت في يومٍ ما. وعلى الرغم من ذلك، فحين يقترب الموت منه يهرب صارخاً ومرتعشاً، باحثاً عن مهرب. ألا تظن أن الرجل الذي يبكي لأنه لم يعش قبل ألف عام مضت هو أحمق صرْف؟ ومن يذرف الدموع لأنه لن يعيش ألف عام من الآن، أليس بنفس الحماقة؟ ليس ثمة فرقٌ بين الواحد والآخر: أنت لم توجد في الماضي ولن توجد في المستقبل، ولا شغلَ لك بأي الفترتين. هذه هي اللحظة التي اختيرت لك: لو أنك قادرٌ على جعلها أطول فكم ستطيلها؟ما فائدة الدموع؟ ما نفع الصلوات؟ أنت تهدر أنفاسك.

فتخل عن أمل أن تغيّر صلواتك

الأوامر الإلهية في قرارات الآلهة."[117]

.Virgil, Aeneid, VI:376.117

هذه القرارات ثابتةٌ ودائمة، وهي جزء من سلسلة القدر الأبدية العظيمة. سوف ترحل كما ترحل كل الأشياء. ما الغريب في ذلك؟ هذا القانون الذي وُلدت فيه، كانت هذه قسمة والدك، وأمك، وأجدادك، وكل من سبقوك وكل من سيأتون بعدك. لا سبيل إلى تغيير توالي الأحداث الساحق الذي يأخذُ كل الأشياء في قبضته الحازمة. فكر في الأعداد الضخمة من الناس الذين سيلحقون بك في الموت: سيبقى لديك صحبة! أتخيل أنك ستكون شجاعاً أكثر في هذا الموضوع لو أن آلافاً وآلافاً يموتون معك: واقع الحال أن بشراً ومخلوقاتٍ أخرى أيضاً كلهم يلفظون أنفاسهم الأخيرة بطريقة أو بأخرى بنفس العدد وفي هذه اللحظة نفسها التي لا تستطيع فيها أن تحزم أمرك حول الموت. بالتأكيد لم تكن تظن أنك لن تصل إلى وجهة الرحلة التي انطلقت نحوها منذ البداية؟ لكل رحلةٍ نهاية.

هنا أتخيلك تتوقع مني أن أقص عليك أمثلة عن الأبطال؟ حسنٌ، سأحكي لك أمثلة عن الأطفال. يحكي التاريخ قصة اسبرطي مشهور، مجرد طفل، وعندما أُخذ أسيراً لم يتوقف عن الصراخ بلغته الدورية[118] «لن أصبح عبداً!»، وكان على قدر كلامه: ففي أول مرة طُلب منه أن يؤدي عملَ عبد، عملاً منزلياً مُذلاً (كانت أوامره بحد ذاتها أن يحضر جرّة الحمام القذرة)، رَطَمَ رأسه عن عمدٍ بالجدار وانفتحت جمجمته. الحريةُ بهذا القرب منا، فهل ما زال أحدٌ عبداً حقاً؟[119] ألا تفضل أن يموت ابنك هكذا على أن يعيش بفضل الجُبْن عمراً طويلاً؟ فلماذا

118. [Doric الدورية نسبة إلى الدوريين، فرع من الشعوب اليونانية]
119. Virgil, Aeneid, VI:376.

الارتباك إذاً حول الموت إذا كان حتى الطفلُ قادراً على لقائه بشجاعة؟ افترض أنك رفضت اتّباعه: كل ما سيحصل أنه سيجرُّك خلفه. استحوذ على السلطة التي هي في اللحظة الراهنة بين أيدي الآخرين. بالتأكيد أنت قادرٌ على أن تعتنق روح الطفل العالية وتقول «أنا لست عبداً!». يا أيها المخلوق التعس، عبدٌ الآن أنت، عبدٌ لرفاقك من البشر، وعبد للظروف وعبد للحياة (فالحياة عبوديةٌ بذاتها إن غابت شجاعة الموت).

هل عندك شيءٌ يدفعك إلى البقاء؟ لقد استهلكت المُتع نفسها التي تجعلك تترددُ في أمرك وتلجمك، ما عاد في واحدةٍ منها جِدةٌ لك، ولا واحدة منهن الآن لا تضجرك بسبب إفراطك فيها. أنت تعلم طعم النبيذ أو نبيذ العسل: فلا فرق إن مرت في مثانتك مئة إبريقٍ أو ألف: لم تعد سوى مصفاة للخمر. أنت عارفٌ ذوّاق بطعم المحار أو السمك. لم تبقِ لك طريقتك المرفهة في الحياة تجربةً واحدةً جديدةً حتى تخوضها في السنوات القادمة. ولكنك تخافُ الانفصال عن هذه الأشياء. ما الذي قد يجزنك الحرمان منه أيضاً؟ الأصدقاء؟ هل تعرفُ كيف تكون صديقاً؟ بلادك؟ هل حقاً أنك تُقدِّرُها إلى درجة أن تؤخِّر عشاءك لأجلها؟ نور الشمس؟ لو استطعتَ لأخمدت ذلك النور، إذْ أي شيءٍ فعلتَهُ يستحق مكاناً فيه؟ اعترف بالأمر: ليس ارتباطك بعالم السياسة ولا الأعمال، ولا حتى عالم الطبيعة، هو الذي يجعلك تؤخر الموت - بل اللذات التي لم تترك منها شيئاً تجربه، هي التي تجعلك غير راغب بالرحيل. أنت خائفٌ من الموت، ولكن كم أنك بارعٌ في تناسيه عندما تتعاملُ مع طبقٍ من الفِطر المُنتقى! تريد أن تعيش، ولكن هل تعرفُ كيف تعيش؟ أنت خائف من الموت، فقل لي، هل نوع الحياة التي تعيشها مختلفٌ عن الموت كثيراً؟

مرَّ كاليغولا مرةً بطابورٍ من الأسرى على الطريق اللاتيني عندما توسل إليه أحدهم، ذو لحيةٍ بيضاء شعثاء تصل إلى صدره، بأن يُقتل. «إذاً» أجاب كاليغولا، «ترى أنك حيٌّ الآن في حالك هذه؟ أتظنُ ذلك؟» هذه هي الإجابة الصحيحة للذين يأتيهم الموت على شكل خلاص. «أخائفٌ أنت من الموت؟ آأنت حيٌّ الآن في حالك هذه؟ أتظنُّ ذلك؟»

ولكن أحدهم سوف يقول: «ولكنني أريد أن أعيش بسبب كل النشاطات القيمة التي أقوم بها. إني أؤدي واجبات الحياة بضمير وحيوية، ولا أرغب في تركها غير منجزة». مهلك الآن، لا بدّ أنك تعلمُ أن الموت جزءٌ من واجبات الإنسان؟ أنت لا تترك واجباً مهملاً، إذْ ليس ثمة عدد محدد من الواجبات يجب أن تُكملها. كل حياة دون أيِّ استثناء حياةٌ قصيرة. وبمقارنتهما بحياة الكون، فحتى حيوات نستور وساتيا[125] قصيرتان. ولك في ساتيا مثال، التي جعلت نقش قبرها يشيرُ إلى أنها عاشت حتى بلغت تسعاً وتسعين عاماً، مثالٌ على شخصٍ يتبجح بالعمر الطويل: ولو أنها عاشت حتى وصلت للمئة لما أطاقَ وجودها أحدٌ! فحالُ البشر كحال المسرحيات: لا يهم كم يستمرُّ العرض، بل كم هو جيدٌ. ليس مهمٌ في أي نقطةٍ تتوقف. توقف حيث شئت: ولكن تأكد من أن تجعلها نهاية جيدة.

. نستور محارب هرم في إلياذة هوميروس، وساتيا معمرةٌ لم يصلنا عنها أكثر من ذلك.

الرسالة (XXX)

«قدرة العقل على تخفيف المرض»

لقد زاد حزني لسماعي بمعاناتك من البلغم، ونوبات الحمى التي ترافقه حين يصبح مزمناً، لأني اختبرتُ بنفسي هذا النوع من الصحة السيئة. في مراحلها الأولى، رفضتُ السماح لها بإزعاجي، فقد كنت فتياً بما يكفي لأتخذ موقفاً متحدياً من المرض وأتحمل مشقاته، ولكنني في ما بعد استسلمت لها كلياً. وبعد أن أصبحت في حالة من النحول الكامل، وصلتُ إلى مرحلةٍ بات فيها خروج البلغم يقتلني فعلياً وشعرتُ في كثيرٍ من الأحيان برغبة في إنهاء حياتي في لحظتها، ولم توقفني سوى فكرة والدي الذي كان ألطف الآباء في معاملتي، وكان حينها في سن متقدمة. ولأن الذي استحوذ على بالي ليس شجاعتي في إنهاء حياتي، بل كم ستكون قدرته على تحمل خسارتي بعيدة عن الشجاعة، فقد أمرتُ نفسي بأن أعيش. أحياناً، من الشجاعة حتى أن نعيش.

اسمح لي أن أخبرك بالأشياء التي قدمت لي السلوى في تلك الأيام، وأبدأ قولي بأن الأفكار التي قدمت لي هذا السلام الفكري كان لها تأثيرُ

العلاج الطبي في حالتي. الأفكار المطمئنة (بشرط ألا تكون من النوع المشين) تشارك في علاج الإنسان. وكل شيء يرفع من روحه يفيده فيزيائياً أيضاً. كانت دراساتي الرواقية هي التي أنقذتني حقاً. مقدرتي على مغادرة السرير، واستعادة صحتي، أعزو الفضل فيهما إلى الفلسفة. إنني مدينٌ لها - وهذا أقل واجباتي نحوها - بحياتي. ولكن أصدقائي أيضاً قدموا إسهامات كبيرة في استعادة صحتي. لقد وجدت الكثير من الراحة في لفتاتهم المبهجة، وفي الساعات التي قضوها إلى جانب سريري وفي حواراتهم معي. ليس هنالك شيءٌ يا عزيزي لوكيليوس مثل إخلاص صديق المرء له ودعمه خلال مرضه وتعافيه، أو في طرد قلق المرء وترقبه للموت. حتى إنني شعرتُ بأنني لا يمكن أن أموت حقاً إن كان هؤلاء من يبقون أحياء من بعدي، أو لربما يجب أن أقول إنني أصبحت أؤمن أني سأستمر بالحياة بسببهم، حتى لو لم يكن بجانبهم. إذ بدا لي أنني في الموت لا أتلاشى إلى اللا شيء، بل ترحلُ روحي إلى جانبهم. منحتني هذه الأشياء الإرادة لأجتهد في تحسُّني وتحمل الألم. فمن المثير للشفقة في آخر المطاف، إن كان المرء قد وضع إرادة الموت وراءه، أن يعيش بلا إرادة الحياة.

هذه إذاً علاجاتي. الطبيب سيقول لك كم عليك أن تمشي، وكم عليك أن تتمرن، وسوف يقول لك ألا تبالغ في النشاط. وسيقول لك ألا تبالغ في الخمول - كما الكسالى العاطلون - ويوصيك بالقراءة بصوت عالٍ والتمرن على التنفس (فممرّاته هي المناطق المتأثرة بالمرض)، وسوف يوصيك بأن تبحر في رحلة كيما تحرك بعض الشيء الأعضاء الداخلية بفعل حركة القارب. وسيصف لك حميةً، ويقول لك متى تستعمل النبيذ

الإنعاش نفسك ومتى تتركه جانباً عندما يجعلك تسعلُ ويفاقم من السعال. نصيحتي الخاصة لك – وليس في مرضك الحالي بل في حياتك كلها أيضاً – هي الآتية: ارفض أن تترك فكرة الموت تزعجك: فلا شيء يظل قائماً ما إن نفلت من هذا الخوف. هنالك ثلاثة مزعجاتٍ في كل مرض: خوف الموت، والمعاناة الفيزيائية، وتوقفُ المتع. لقد قلت ما يكفي عن الأولى، ولكنني سأقول التالي وحسب: إن هذا الخوف ليس من المرض بل من الطبيعة. فقد منح المرض كثيراً من الناس حياةً جديدةً في الواقع، إذْ كانت تجربة الاقتراب من الموت ما حفظهم في حياتهم. إنك لن تموت لأنك مريض، بل لأنك حي. هذه النهاية ستلحق بك حتى لو تعافيت. عندما تتحسن صحتك تفلت من مرض ما ولكن ليس من الموت. فلنعد الآن ونتعامل مع المساوئ التي تخصُّ المرض فعلاً، إنه يسبب عذاباً فيزيائياً كبيراً. هذه تكون قابلة للاحتمال بفعل تباعدها. فعندما يكون الألم في أشدّه تسعى شدَّتُه بذاتها نحو الانتهاء. لا أحد يمر بألم حاد ويشعر به طويلاً. الطبيعة، في لطفها اللامتناهي معنا، رتبت الأمور بحيث يكون الألم إما قابلاً للاحتمال أو عابراً. وتجد أقسى الآلام مكانها في الأعضاء الأكثر ضعفاً في الجسم، فأي منطقة ذات أبعاد ضئيلة، كالأعصاب، أو المفاصل تسببُ آلاماً مبرحة عندما تظهر المشكلات في حيزها الضيق. ولكن هذه الأجزاء من جسدنا تتخدر بسرعة جداً، فالألم نفسه يسبب عدم الشعور بأي ألم فيها (إما لأن قوة الحياة قد ضعفت بسبب احتجازها في دورتها الطبيعية، وبذلك تفقد قوتها الفاعلة، القوة التي تمكنها من منحنا الشعورَ بالألم، أو لأن الإفرازات المرضية، التي ما عادت قادرة على الانصراف، تتراكم على نفسها وبالتالي تحرمُ المنطقة التي

اكتظت بها من الإحساس). ولذلك فإن النقرس في القدمين أو اليدين أو أي ألم في الفقرات أو الأربطة له سكونٌ متقطعٌ حين يكون قد بلَّدَ شعورَ المنطقة التي يُعذِّبها. هذه كلها حالاتٌ يكون الانزعاج فيها بفعل وخزات الألم الأولية ويختفي عنفُ الألم مع مرور الوقت، حيث ينتهي العذاب بحالة من اللاشعور. السبب الذي يجعل الألم في العين أو الأذن أو السن قاسياً بشكل خاص هو أنه يتطور في نقطة محدودة، وهذا أيضاً ينطبق على آلام الرأس، على الرغم من ذلك، إذا زادت حدتها عن حد معين تتحول إلى حالة من الدوار المخدِّر. هذا إذاً الشيء المريح في شدائد الألم: إن كان الألم أشدَّ من أن يُحتمل فمن المؤكد أنه سيتوقف.

ما يجعل الناس غير المتنورين أخلاقياً منزعجين من تجربة الألم الفيزيائي هو إخفاقهم في الوصول إلى عادة الرضا مع الروح. فهم بدلاً من ذلك مشغولون بالجسد. ولذلك فإن الرجل ذا الشخصية النبيلة والمتنورة يفصل بين الجسد والروح، ويتعامل مع الأول، الجزء الهش والمتذمر من طبيعتنا، بصفته ضرورةً لا أكثر، ويتعاملُ أكثر بكثير مع العنصر الأفضل، المقدس. «ولكن من الصعب التخلي عن المتع التي اعتدنا عليها، وأن نتخلى عن الطعام ونجوع ونعطش». هذا متعب فعلاً في المراحل الأولى من الامتناع عنه. لاحقاً، تضعفُ قوة أعضاء الشهية بسبب التعب، وتموت الشهوات، فتصبح المعدة انتقائية، لا تتقبلُ أشياء كانت سابقاً لا تكتفي منها. والرغبات نفسها تموتُ وتندثر. ولا صعوبة ب التخلي عن أشياء ما عدت تشتهيها.

ونقطةٌ أخرى أن كل ألم يتوقف في لحظةٍ ما، أو على الأقل تقل حدته وقتٍ إلى آخر. علاوةً على ذلك، يستطيع المرء أن يحترس من نوبة الألم تخدام العقاقير لتخفيفه خلال بدايته، لأن كل ألمٍ (أو على الأقل كل ألمٍ

يتكرر بانتظام) يقدم للمرء تحذيرات تؤذنُ بوصوله. في المرض، المعاناة دوماً قابلةٌ للاحتمال ما دمت تزدري تهديداته.

فلا تزد من مصاعبك على نفسك أكثر مما هي عليه، وتُحمّل نفسك وزر القلق. فإذا لم يضاعف المرء من التأثيرات بفعل التفكير: الألم شيءٌ سخيف. وبالتضاد مع ذلك، إن بدأت تشجع نفسك قائلاً: 'إنه لا شيء، أو ليس بالكثير على أي حال، فلأتحمله، وسينتهي فوراً'، فإنك إذ تعتبره سخيفاً سوف تجعله كذلك فعلاً. كل شيء يتوقف على الرأي: حبُّ السلطة أو المال أو الرفاهية ليست الأشياء الوحيدة التي تقودنا فيها آراء من حولنا، بل إننا نستعيرُ من آراء الناس حتى الطريقة التي نشعر بها بالألم.

إن الرجل غير سعيدٍ بقدر ما أقنع نفسه بأنه ليس كذلك. والتذمُّر من معانيات المرء بعد أن تنتهي (تعرف هذا النوع من الكلام: 'لا أحد مرَّ بحال سيئة كهذه. العذابات والصعوبات التي تحملتها! لا أحد ظنَّ أنني سأتعافى. كم مرة تخلّت عائلتي عن الأمل في تحسني! كم مرة يأس مني الأطباء! السجناء على مشد التعذيب لم يعانوا الألم الذي عانيته') لهي شيءٌ أظنُّ يجب منعه. حتى لو كان كل ذلك صحيحاً، فإنه تاريخٌ مضى. ما الفائدة من اجترار معانياتٍ انتهت، من أن تكون تعساً الآن لأنك كنت تعساً وقتها؟ وفوق ذلك، ألا يزيد الجميع قدراً كبيراً إلى حكايات مشقاتهم ويخدعون أنفسهم أيضاً في الموضوع؟ إلى جانب ذلك، توجدُ متعةٌ في التغلب على أي شيء كان التغلب عليه صراعاً أبعد ما يكون عن المتعة. عندما تصل معاناة ما إلى نهايتها فالشعور الطبيعي هو السعادة. هنالك شيئان إذاً (تذكر المشقات في الماضي وخوف المصاعب القادمة)

يجب أن أجتنبها: الأول ما عاد يعني لي شيئاً، والثاني لما يعنِ شيئاً حتى الآن. وعندما يكون الإنسان في قبضة الصعوبات يجب أن يقول:

قد نجد المتعة في تذكر

هذه الأحداث نفسها ذات يوم.»[121]

يجب أن يضع قلبه كاملاً في الصراع ضد هذين. فإن استكان لهما خسرَ المعركة، وإذا استبسلَ ضدهما فسينتصر. ما يفعله معظمُ الناس في الواقع أنهم يشدّون على رؤوسهم ما يجب أن يحملوه فوقها، عندما يهددك شيءٌ بالسقوط فوقك، وضغطه ثقيل الحمل عليك، فهو لن يتبعك إلّا بعد أن تتحرك أنت متراجعاً فيصبح حملهُ أصعب بكثير. ولكن إذا ثَبتَّ في مكانك، وشددت عزيمتك على المقاومة، فالشيء نفسه يدفعُ إلى الوراء. انظر إلى كمية الضرب الذي يتعرض له الملاكمون والمصارعون على وجوههم وأجسادهم كلها! ولكنهم يتحملون أي شيء من أجل رغبتهم في الشهرة، وسوف يمرّون بكل ذلك لا في جولاتهم وحسب بل في تدريبهم الذي يسبقها أيضاً: تدريبهم بحد ذاته يتضمن المعاناة. دعنا نتغلب على كل هذه الأمور، فجائزتنا ليست وساماً أو إكليلاً أو نفيرَ الأبواق الداعي إلى الصمت المهيب لإعلان اسمنا، بل الفضيلةُ الأخلاقية، وقوةُ الروح، وسلامٌ ربحناه مرةً واحدة وإلى الأبد إن هزمنا الأقدار في معركتها شرَّ هزيمة ذات مرة.

قد تقول: «إني أعاني آلاماً مبرحة». حسنٌ، هل سوف يخفف من آلامك أن تتحملها مثل النساء؟ كما أن العدو يستطيع أن يلحق ضرراً

---

121. Virgil, Aeneid, I. 203

أكبر بكثير بجيشٍ يتراجع، كذلك كل صعوبةٍ تواجهنا تضغط علينا بقسوة أكبر إذا أدرنا لها ظهورنا وهربنا. «ولكنها مبرحة حقاً». ايفترض بالشجاعة أن تمكننا من تحمل ما هو غير مبرح فقط؟ هل تفضل مرضاً طويلاً أم مرضاً قصيراً وسريعاً؟ إذا كان طويلاً فسوف يكون فيه توقفٌ بين الحين والآخر، فيمنح المرء وقتاً لاستجماع نفسه وقدراً جيداً من الوقت الخالي منه، لأنه يضطر بالضرورة لأن يتوقف حتى يعاود إزمانه. المرضُ السريع والقصير له إحدى نتيجتين: إما يقضي على المرء أو ينقضي. وما الفرق إن اختفيت أنا أو هو؟ في الحالتين ينتهي الألم.

شيءٌ آخر سيساعدك وهو أن تشغل عقلك بأفكارٍ أخرى وبذلك تنجو من معاناتك. تذكر في عقلك أشياء فعلتها كانت قويمةً أو شجاعة، ومُرَّ في عقلك على أفضل الأدوار التي أدّيتها. وارجع بذاكرتك إلى الأشياء التي كانت محط إعجابك الأعظم، هذا وقتٌ لتذكر كل الأفراد الاستثنائيين في شجاعتهم الذين انتصروا على الألم: ذلك الرجل الذي قرأ بتؤدة كتاباً في أثناء استئصال عروق الدوالي عنده. الرجل الذي لم يتوقف أبداً عن الابتسام تحت التعذيب على الرغم من أن هذا أغضب جلاديه وجعلهم يجربون فيه كل أداة وحشية عندهم. إذا كانت ابتسامة غلبت الألم، ألا يغلُبه العقل؟ وهنا يمكنك أن تذكر ما شئت: البلغمَ، نوبة سعال لا ينقطع عنيفةً حدَّ أنها تلفظ أجزاءً من الأعضاء الداخلية، الحمى التي تكوي أمعاء المرء، العطش، تهشيم الأطراف في اتجاهات مختلفة وخلع المفاصل، أو – أسوأ من هذه – أن يمط المرء على مشد التعذيب أو يُحرق حياً، أو يعرَّض لصفائح محمرة من السخونة وأدوات مصممة لتعيد فتح الجروح المنتفخة وتعميقها. هنالك رجال مروا بهذه التجارب ولم يطلقوا

أنيناً واحداً. يقول جلّادوهم: 'يحتاج المزيد فهو لم يطلب الرحمة بعد... يحتاج المزيدُ فلم يزل لا يُجيب... يحتاج المزيد، لقد ابتسم فعلاً، وليست ابتسامةً مصطنعة أيضاً'. بالتأكيد الألم شيءٌ يجب أن تبتسم له بعد ذلك.

«ولكن مرضي أخذني من واجباتي ولا يسمح لي بإنجاز شيء». إن جسدك، وليس عقلك، وحده الذي يرزح تحت وطأة المرض. ولذلك فقد يقلّصُ المرضُ سرعة العدّاء أو يجعل يدي حدادٍ أو حذَّاءٍ أقل فاعلية، ولكن إن كان عقلك متعوداً على الفاعلية فما زلت قادراً على التلقين والنصح، اسمع وتعلم، استخبر وتذكَّر. ومن ثم إنك إن قابلت المرض بطريقة عقلانية، فهل تعتقد حقاً أنك لا تنجز شيئاً؟ إنك تُثبت أن المرء حتى لو لم يستطع دوماً أن يهزم المرض، فهو دوماً قادرٌ على تحمله. وهنالك مجال للبطولة، أؤكد لك، في السرير كما في أي مكان آخر. الحرب والجبهات ليست الأماكن الوحيدة التي تثبت الشخصية القوية والجسورة: شجاعة المرء ليست أقل ظهوراً في ملابس النوم. هنالك شيءٌ تتفتح أمامك فرصة إنجازه، وهو أن تجعل صراعك مع المرض صراعاً جيداً. فإذا لم تهزّك تهديداته وإلحاحه، فأنت تضرب للناس مثلاً يُحتذى. كم ستكون فرصة الشهرة كبيرة لو أننا كلما مرضنا كان لدينا جمهورٌ من المتفرجين! كُن متفرجك الخاص على أي حال، وأمتعه حدّ التصفيق.

اللذات، فضلاً عن ذلك، لها نوعان. اللذات الفيزيائية هي ما يتدخل فيها المرض، مع أنه لا ينفيها بالكامل، بل إن نظرت إلى المسألة من منظور حقيقي، فإن المرض في الواقع يزيدُ من لذّتها، فالرجل يحصلُ على متعة أكبر من الشرب بعد أن يعطش ويجد الطعام أكثر لذة بسبب جوعه. كل

ما يوضعُ أمام المرء بعد صيامه عنه يَلقى شهية مضاعفة. ولكن ليس هنالك طبيب يستطيع أن يمنع مريضه من تلك اللذات الأخرى، الأكبر والأوكد: لذاتِ العقلِ والروح. كل من يتبعها ويعرفها حق المعرفة لا يلقي بالاً لأي من استفزازات الحواس. يقول الناس: «ما أسوأ حظه، مريضٌ مسكين!» لماذا! لأنه لا يذيب الثلج في نبيذه؟ لأنه لا يحطّم الجليد ليجعله ابريقاً ضخماً يُبقي نبيذه المخلوط بارداً؟ لأن المحارات الفاخرة لا تُفتح أمامه على الطاولة؟ لأنه لا توجد ضوضاء طباخين قادمةٌ من غرفة الطعام؟ فيجلبون إليه لا الوجبات نفسها بل أجهزة الطبخ معها؟ هذه آخر تطورات الحياة الفخمة، أن يأتي المطبخُ مع العشاء إلى الطاولة كي لا يفقد أي طعامٍ حرارته ويكون كل الطعام لاسعاً في سخونته كي يُعجبَ الألسنة التي باتت كالجِلد هذه الأيام. «كم هو تعس الحظ في مرضه»، يقولون. في الواقع، سيأكل بقدر ما سيهضم. لن يكون هنالك خنزير بأكمله في مكان يتفرَّجُ عليه الناس، ليعطي انطباعاً بأنه قد نُفي من الطاولة لأنه وجبة رخيصة وقطعة لحمٍ عادية لا تليق بالطاولة، ولن تكون عربة طعامه ركاماً عالياً من صدور الطيور المقتطعة (فقد أصبح الناس يظنون أن رؤية الطائر بأكمله ليست شيئاً لطيفاً). وما السيئ في أن تُحرم من ذلك؟ قد تأكل كرجلٍ مريض، ولكنك على الأقل تأكل بالطريقة التي يجب أن يأكل بها رجلٌ معافى.

ولكن شيئاً واحداً سوف يساعدنا على تحمل كل الأدوية والمشاريب الدافئة وباقي الأمور: الأمور التي لا تطاق عند من أفسدهم البذخ، من نعّمتهم حياة الرفاهية، فيتأملون في العقل أكثر بكثير من ألمهم في الجسد. هذا الشيء الوحيد هو التوقف عن الخوفِ من الموت. وسوف نتوقف

عن الخوف منه ما إن نميز بين الأشياء الجيدة والأشياء السيئة في هذا العالم. عندها وعندها فقط سوف نتوقف عن قلقنا من الحياة كما عن خوفنا من الموت. لأن الحياة التي تنهل من التنوع والعظمة والروعة في الأشياء حولنا لا يمكن أن تنحدر إلى الملل الكئيب: الشعور بأن المرء متعبٌ من كونه إنساناً، متعبٌ من الوجود. هذا في العادة نتيجة راحةٍ خاملةٍ وغير فاعلة. الحقيقة لن تفقد سحرها في عيني من يستكشفُ عالم الطبيعة، بل يملُّ المرء من الأشياء الزائفة. وعلاوة على ذلك، حتى لو كان الموت قادماً حاملاً اسمه، وحتى لو جاء مبكراً جداً، حتى لو انتشله في ريعان حياته، فقد اختبر كل مكسبٍ يمكن أن تمنحهُ أطول حياة، فقد حصل على معرفةٍ واسعة بالعالم الذي نعيش فيه، وتعلم أن الوقت لا يضيفُ شيئاً إلى الأشياء الفُضلى في الحياة. بينما أي حياة ستبدو قصيرة لمن يقيسونها بالمتع، والتي هي بسبب طبيعتها الفارغة غير قادرةٍ على الاكتمال.

لعل هذه التأملات تسرّع تعافيك، وفي أثناء ذلك جِدْ وقتاً لمراسلاتنا. سوف يجمعنا الزمان مجدداً في يومٍ ما، وعندما يأتي اللقاء، وسيأتي، مهما كان قصيراً، فإن معرفتنا كيف نستفيد منه إلى الحد الأقصى ستجعله لقاءً طويلاً. كما قال بوسيدونيوس: «في يومٍ واحد تتفتحُ المعرفة لبعض الرجال أكثر مما يعرف غير المتنورين في أطول الأعمار». في الوقت الحالي، تشبث بأظافرك وأنيابك بالقاعدة التالية: لا تذعن للمشقّة، ولا تثق بالرخاء، وانتبه دوماً لعادات الأقدار التي تتصرف كما تشاء، فعاملها وكأنها ستفعل كل ما بوسعها فعله: ما تتوقعه منذ زمن أقلُّ صدمةً.

الرسالة (XXXI)

«عن السُكر»

تطالبني بأن أروي لك أيامي، بشكل عام وكلاً على حدة. إنك تحسنُ الظنَّ بي إن اعتقدت أنْ ليس عندي فيها ما أُخفيه. ولكن علينا أن نعيش فعلاً وكأننا على مرأى من الجميع، ونفكر أيضاً وكأن أحداً يستطيع التبصر في أعمق خبايا قلوبنا، وبعضُ الناس يقدرون على ذلك فعلاً. ما نفع إخفاء شيء عن الإنسان بينما لا شيء يخفى على الإله؟ إنه حاضرٌ في عقولنا، حاضرٌ في أفكارنا، بيد أني عندما أقول أنه «حاضر» لست أدعي أن أفكارنا لا تكون بعيدة منه أحياناً. سأفعل كما تطلبُ إذاً، وأقدم لك سجلاً بما أفعله وبالترتيب. سوف أضع نفسي تحت المراقبة فوراً وأنظر في يومي: وهذا فعلٌ عظيمُ الفائدة. ما يدمر شخصياتنا حقاً هو أن أحدنا لا ينظر في حياته إلى الوراء. نحن نفكر في ما سنفعله، وحتى ذلك فنادراً، ونخفق في التفكير بما فعلناه، ولكن كل خطط المستقبل معتمدةٌ على الماضي.

اليوم سلمَ من الأذى. لم يسلبني أحدٌ جزءاً منه. وانقسم بالكامل بين فراشي وبين قراءتي. والقليل منه وحسب أعطيته للتدريب الفيزيائي، وأنا ممتنٌ في هذا الشأن للعمر المتقدم، فالتمرين لا يتعبني كثيراً. أدورُ في مكاني قليلاً فأتعب، وهذا في الواقع نهاية التدريب حتى لأقوى الرجال. هل تهتم في معرفة مدربيَّ؟ واحدٌ يكفيني: فاريوس، صغيرٌ محبب كما تعرف، ولكن صار لازماً تغييره. أنا أبحث الآن عمن هو أصغرُ عمراً. أما هو فيصرُّ على أننا في نفس العمر الحرِج لأننا كلينا نخسرُ أسناننا. ولكنني وصلتُ إلى المرحلة التي بالكاد أجاريه فيها خلال الركض، وقبل أن تنتهي أيامي سأعجز عن مجاراته بالكامل. انظرْ ماذا يفعل التدريب اليومي بالشخص. عندما ينطلق اثنان في اتجاهين مختلفين فإن المسافة بينهما تتباعد بسرعة: إنه يصعدُ بنفس السرعة التي أهبطُ بها، وأنت تدري كم أنَّ الرحلة أسرع في الثانية منهما. ولكنني على خطأ: فالعمر الذي أنا فيه ليس «نزولاً نحو الأسفل»، بل هو عمرُ سقوطٍ عمودي.

ولكنني أظنك ترغب في أن تعرف نتيجة السباق؟ حسنٌ، جعلناهُ تعادلاً، وهو شيءٌ لا يحصل كثيراً مع العدّائين. وبعد ذلك (الذي كان نوبةً من الإرهاق أكثر منه تمريناً) أخذتُ حماماً بارداً، وكلمة بارد عندي تعني أقلَّ من الدافئ بقليل! انظر إليّ! أنا الذي كنت يوماً ما المخلصَ المشهور للحمامات الباردة، وأقدمُ احتراماتي دورياً للقناة في أول يناير وأقفز في مياه قناة العذراء بنفس الالتزام الذي أقرأ به أو أكتب أو أقول جملةً مباركةً ما في كل عام جديد لأضمن الحظ السعيد. أما الآن فقد غيرت مسرح عملياتي، أولاً إلى نهر التيبر، ومن ثم إلى بركتي الخاصة هنا، والتي حتى عندما أكون في قمة شجاعتي ولا أغش تزيلُ الشمس منها

بعض برودتها: لا تبعدُ إلا خطوةً عن الحمام الساخن! والتالي هو الإفطار، ويتضمن بعض الخبز الجاف، بلا طاولة ولا ضرورة لغسل اليدين بعد وجبة كهذه. ومن ثم أنامُ أقصرَ القيلولات. أنت تعرفُ عادتي هذه، فأغفو دقيقة أو دقيقتين، أتسلل من الصحو على غفلةٍ كما يمكن أن تقول. أجد من الكافي أن أوقف صحوتي. أحياناً أعرفُ أنني نائمٌ، وأحياناً أحزرُ أنني كنتُ نائماً وحسب...»[122]

كان زينون رجلاً عظيماً جداً كما أنه مؤسس مدرستنا الرواقية، وهي مدرسة لها سجلٌ لا يضاهى في الحياة الشجاعة والمقدسة. انظرْ إلى طريقته في استنتاج أن الرجل الجيد لا يسكر، لرغبته في ثنينا عن السُكر، يقول: «لا رجلَ سكرانَ يؤتمنُ على سر: ولذلك فالرجل الجيد لا يسكر». انظر كم يبدو سخيفاً عندما نرد باستنتاج منطقي واحد من النمط نفسه (من بين الكثير الذي نستطيع أن نقدمه يكفي مثالٌ واحد). «لا أحد يأتمنُ نائماً على سر: والرجل الجيد يؤتمن على سر: ولذلك فالرجل الجيد لا ينام...».

الآن دع كل منا وحسب يعددُ الأشخاص الذين يعرف أنهم يمكن ائتمانهم على سرٍ ولكنهم لا يمكن ائتمانهم على زجاجة نبيذ. سوف أقدم، على أي حال، مثالاً واحداً عن نفسي، فقط لأمنع نسيانه في الذاكرة البشرية! الحياة تحتاج مخزوناً من الأمثلة الجيدة، ولا نحتاج دوماً إلى العودة إلى العصور القديمة للبحث عنها. كان «لوكيوس بيسو» سكرانَ منذ اللحظة التي استلم فيها منصب آمر مدينة روما. وقضى معظم لياليه يشرب ويأكل مع أصحابه وينام بعدها حتى منتصف النهار، فالظهيرة

122. حذف حوالي 85 سطراً من هذه الرسالة لأنها غير مثيرة للاهتمام وتكرر أفكاراً مذكورة في أماكن أخرى.

عنده هي الصباح الباكر، وعلى الرغم من ذلك أدى واجباته، التي تتضمن المصلحة العامة للمدينة بأسرها، بفعالية قصوى. الإمبراطور الراحل أوجستوس [أوكتافيان] كما أيضاً تيبيريوس ائتمناه على مسائل سرية، الأول: حين عينه حاكماً لتراقيا [بين اليونان والبلقان وتركيا حالياً] بعد أن اكتمل اجتياحها، والثاني: عندما غادر روما إلى كامبانيا، تاركاً خلفه في العاصمة الكثير من قلة الثقة والكراهية. أتخيلُ أن عادات بيسو مع السكر كانت ناجحة في نظره إلى حدٍّ أن تيبيريوس عين كوسوس آمراً للمدينة، فهذا الرجل الموقر والمنضبط في باقي شؤونه كان يغرقُ في المشروب، ويملأ نفسه به إلى حد أنه مرة أغمي عليه في مجلس السناتورات – بعد أن وصل إليه مباشرةً من حفلة – واستغرق في نومٍ لم يستطع أحدٌ إيقاظه منه، فاضطروا إلى حمله إلى الخارج. ولكن هذا لم يمنع تيبيريوس من أن يكتب له (بخط يده) عدداً من الرسائل كان يعتبر محتواها غير ملائم حتى لمراسلاته مع وزرائه، وكوسوس لم يبح بسرٍ واحد، خاصٍ أو عام...

إن أردت أن تثبت أن الرجل الجيد لا يجب أن يسكر، فلماذا تفعل ذلك بالاستنتاج المنطقي؟ قل للناس كم هو مقرفٌ أن يملأ المرء نفسه أكثر مما يستطيع أن يحتمل وألا يعرف حدود معدته. قل لهم ما يفعلونه في السكر ويجعلهم يحمرون خجلاً بعد أن يفيقوا، وأن السكر ليس إلا حالة من الجنون المُفتعل ذاتياً. إذ تخيل سلوك السكران يمتد عدة أيام: هل ستشك في جنونه؟ في الواقع، الفرقُ في المدة، وليس في الدرجة. أخبرهم بمثال الإسكندر المقدوني، الذي طعن صديقه الأحقّ والأعز، كليتوس [الذي أنقذ حياته في أولى معاركه مع الفرس]، في مأدبة، ورغبَ بعدها

...موت عندما عرف فداحة ما فعله (وكان يستحق ذلك على فعلته).
...نكو يشعل كل رذيلة ويُعرّيها، ويزيل التحفظ الذي يردع الاندفاعات
نحو السلوك الخطأ. فمن يمتنعون عن المحرمات خجلاً منها أكثرُ عدداً
بكثير ممن يمتنعون بسبب ميلهم نحو الفضيلة... أضف إلى ذلك جهل
السكران بحاله: كلامه غير الواضح وغير المؤكد، وعدم قدرته على المشي
في خطٍ مستقيم، وعينه المتقلبة ورأسه العائمة، فبيتهُ نفسه يتحرك من
حوله وكأن إعصاراً يعصف به، والمعاناة التي تحصل في معدته عندما
يعتلج النبيذ...

أين المجد في القدرة على احتمال الكثير من الخمر؟ عندما يكون النصر
لك وحدك، عندما يصبح كل رفاقك حولك منهكين ويتقلبون ويتقيؤون
ويرفضون كل دعواتك لنخبٍ جديد، عندما تجد نفسك الوحيد في الحفلة
الذي لا يزال على قدميه، عندما مكنتك قدراتك القوية من هزيمة كل
الحاضرين ولم يستطع أحدهم أن يماثلك في الشرب: لا يزال برميلٌ يكفي
ليغلبك.

ما الذي دمّر ذلك الرجل العظيم والموهوب مارك أنتوني سوى شُربه
المفرط؟ وشغفه بكليوبترا القوي كالمشروب؟ فانجرَّ إلى طرق حياة أجنبية
ورذائل غير رومانية؟ هذا ما جعله عدو الدولة، هذا ما جعله غير ندٍّ
لأعدائه، هذا ما جعله متوحشاً، فأحضر رؤوس مواطنيه النبيلين إلى
طاولة عشائه، متعرفاً على ملامح خصومه وأيديهم ضمن مأدباتٍ تقامُ
بترفٍ فخم ورفاهيةٍ ملكية، لم تشفِ الخمر عطشه للدم...

مشر، إذاً، لماذا يجب على الرجل الجيد أن يتجنب السكر باستمرار، الخفانق، لا الكلمات، لإظهار قُبح السكر وإهانته. أثبت - وهذه مهمة سهلة - أن ما ندعوه ملذاتٍ إذا ما جاوزت حداً معيناً صارت عقوبات...

الرسالة (XXXII)

«فيللا سكيبيو»

ها أنذا أجلس في البيت الريفي الذي كان يوماً مِلك سكيبيو الأفريقي نفسه. إنني أكتب بعد أن قدمت احترامي لروحه الراحلة، ووقفتُ أمام مذبح مُشيد أظنه في الواقع قبرَ ذلك الجندي العظيم. إن روحه قد رحلت ولا بد إلى السماء، بل عادت في الواقع إلى المكان الذي جاءت منه. وما يقنعني بذلك ليس حجم الجيوش التي قادها (فكامبيسيس قاد جيوشاً مماثلة في الحجم وكامبيسيس ليس إلا مجنوناً ارتزق من جنونه)[23] بل ضبطُه الاستثنائي لنفسه، وحسُّه بالواجب. وإني أرى مغادرته وطنه طوعاً كالمنفيين شيئاً أحقَّ بالإجلال من انتصاراته في حروبه لأجل بلاده.

هل يبقى سكيبيو في روما؟ أم تبقى روما ديمقراطية؟ كان هذا هو الخيار الماثل أمامه. ماذا فعل سكيبيو؟ قال: «ليس عندي رغبةٌ في أن أضعف قوانينا ومؤسساتنا قيد شعرة. يجب أن يبقى كل المواطنين

---

(23) (Cambyses) كمبيسيس أو قمبيز، ملك فارس الذي اجتاح مصر (529-521 ق.م). وسكيبيو (Pubilius Cornelius Scipio) الجنرال الروماني المشهور الذي حقق النصر ضد جيوش قرطاجة بقيادة حنبعل. ومعنى ذلك لقبه (Africanus) أي الأفريقي، حيث نصره الأخير كان في موقع قرطاجة قرب تونس حالياً.

الرومان سواسية في نظر القانون. أطلب من بلادي إذاً، أن تستفيد إلى أقصى حدٍ مما فعلته لأجلها، ولكنْ من دوني. وإن كانت بلادي تدينُ لي اليوم بأنها حُرّة، فلتدعني أنا أيضاً أُثبتُ أنها حرة: فإن تطاولتْ قامتي بحيثُ صرتُ خطراً على مصالحها، فإلى الخارج بي». ألست محقاً في إعجابي بنبل الشخصية الذ دفعه إلى التقاعد؟ إلى الذهاب نحو المنفى الطوعي ليرفع عن الدولة حملاً مُخجلاً؟ وصلت الأمور إلى مكان بحيث إما تعاني الديمقراطية على يدي سكيبيو أو يعاني هو على يديها. لا يمكن للعدل قبول واحدةٍ من هاتين، فأفسحَ سكيبيو المكان لدستورها، مقترحاً أن الدولة ليست مدينةً له في رحيله أقل مما هي مدينة له في رحيل حنبعل، وانطلق نحو تقاعده في ليتيرنوم [بلدةٌ شمال نابولي].

لقد رأيت البيت المبني من حجارة مربعة الشكل، والجدار المحيط بالحديقة، والأبراج التي بنيت على جانبيه بغرض الدفاع، والبئر المتخفي تحت اخضرار الأغصان والعرائش والأبنية المحيطة والذي يحتوي على ماء يكفي حاجة جيش، والحمام الصغير الضئيل، المبني حسب القواعد القديمة في زاوية سيئة الإنارة، إذْ كان أجدادنا يعتقدون أن المكان الوحيد الذي يصح فيه للمرء أن يستحم بماء ساخن يجب أن يكون مظلماً. كان هذا ما بدأ في عقلي تأملاتٍ قدمت لي قدراً كبيراً من المتعة: مقارناً طريقة حياة سكيبيو بطريقتنا. في هذه الزاوية المظلمة الرطبة كان يجلس «رُعبُ قرطاج»، الرجل الذي تدين له روما بأنها لم تُحتلّ سوى مرةٍ في تاريخها،[124] فيغسلُ جسده المتعب من العمل في المزرعة! لأنه حافظ على لياقته عبر

124. من قبل الغال في 390 ق.م.

العمل، فينشّق الحقول بمجهوده الخاص، كما كانت الطريقة المعتادة في الأيام القديمة. وهذا هو السقف، الرخيصُ حدَّ التطرّف الذي وقف تحته وهذا البلاطُ المتواضعُ الذي حمل وزنه.

من يتحمل أن يستحم في مثل هذه الظروف في أيامنا؟ إننا نعتبرُ حالنا وضيعاً ونعيشُ كالفقراء إذا كانت الجدران لا تلمع بمرايا مدورة ضخمة ومكلفة، وإذا لم يكن رخامنا الإسكندري مُزيناً بصفائح من الرخام النوميدي، وإذا لم يكن سطحها بأكمله مزيناً بزخرفات معقدة فيها كل بهاء لوحات الجداريّات، إن لم يكن سقفنا البذخ محمّلاً بالزجاج، إن لم تكن البرك التي نُنزل فيها أجسادنا بعد أن خارت قواها من الفترات الطويلة في غرفة التعرق مؤطرة بالرخام الفاخر المستورد من ثاسوس (والذي كان في يوم من الأيام أندرَ ما يمكن أن تقع عليه عينٌ، حتى في المعابد)، إن لم تكن المياه تتدفق من صنابير فضية. ونحن حتى الآن لا نتحدث إلا عن سمكرة الرجل العادي، فما بالك بحمامات أولئك العبيد السابقين؟ انظر إلى جمهرة التماثيل فيها، وإلى الأعمدة المتناسقة التي لا تحملُ شيئاً بل وضعت لغرض الزينة وحسب، لإنفاق المال وحسب. انظر إلى شلالات الماء التي تتدفق بضجيج من طبقةٍ إلى أخرى. لقد وصلنا إلى مكان من البذخ بحيث أننا نرفض أن نمشي على شيء سوى الأحجار الثمينة.

في حمام سكيبيو هذا توجدُ شقوقٌ صغيرة – بالكاد يمكن تسميتها نوافذ – تخترق بناء الجدار بشكل يسمح بمرور نور الشمس، من دون أن يضعف دفاعات الجدار في شيء. أما الآن فقد بات بعض الناس يسمي

الحمام «بؤرة حشرات» إن لم يكن مُصمماً ليلتقط الشمس بنوافذ عملاقة طوال النهار، إن لم يستطع الشخص أن يسمرَّ في أثناء استحمامه، إلا إن كان يرى من حمامه إطلالات على الريف والبحر.

والنتيجة أن الحمامات التي تجذب الإعجاب أول افتتاحها تُنبذُ سريعاً، لأنها تعتبر قديمةً ما إن يصل الترف إلى أعجوبة جديدة، اكتشفها كي يرمي بجهوده المكلفة السابقة إلى الظلام. مرَّ زمانٌ كانت الحمامات فيه قليلةً ومتباعدة، وغير مترفةٍ بأي طريقة، ولماذا يجب أن تكون كذلك، فقد صممت للاستعمال لا للترفيه، وكان الدخول يكلفك قطعة نحاسية؟ لم تكن المياه تتدفق رشاتٍ مستمرة وكأنها نبعٌ حار، وما كان الناس يكترثون وقتها بصفاء الماء الذي يستخدمونه للتخلص من الأوساخ. بحق السماء، أي مُتعةٍ أن تدخل إحدى تلك الحمامات نصف المنارة ذات السقوف الجصية العادية، حيث تعرف أن كاتو نفسه بصفته إيديل[125] - أو فابيوس ماكسيموس، أو واحد من عائلة كورنيلي - يضبطُ سخونة الحمام بيده نفسها! إذْ مهما علت مراتب الإيديل كانت إحدى واجباتهم أن يدخلوا كل المرافق من هذا النوع المفتوح للعامة ويطبقوا معايير النظافة والدرجة الصحية من الحرارة، الكافية للاستعمال العملي، وليس الحرارة التي باتت موضة اليوم، والتي تشبه الفرن، بحيث يمكن فعلاً أن نحكمَ على العبد المدان بجريمة ما بالاستحمام حياً! ما عدت أعرف الفرق بين «حمامك ساخن» و«حمامك يغلي».

125. [Aedile منصبٌ إداري يعنى بالشؤون المدنية: صيانة للمباني العامة ونظافتها وضبطُ جودة البضائع ودقة للميزان والمكيال المستعمل في السوق، وما شابه ذلك.]

«يا للتخلف!» سوف يكونُ حكمُ بعض الناس هذه الأيام على سكيبيو لأنه لم يضع ألواحاً ضخمة من الزجاج لتسمح بمرور الشمس إلى غرفة التعرّق، لأنه لم يعتد على أن يطبخَ نفسه في نور الشمس الساطع في حمامه، ويترك الوقت يمر حتى ينضج بالكامل. «يا للرجل اللعين المسكين، لم يكن يعرف كيف يعيش، كان يستحم في مياه لم تُنقَّ وأحياناً عكرة، بل تكون طينية بعد أي مطرٍ قوي». واقع الحال أن سكيبيو لم يكترث بمثل هذه المياه، فقد دخل ليغسلَ العرق، وليس الرائحة. وماذا تظن سيكون ردُّ بعض الناس على ذلك؟ «حسنٌ إني لا أحسدُ سكيبيو، إن كانت هذه طريقة استحمامه طوال الوقت فقد كان يعيش حياة منفى حقيقية».

أجل وما هو أكثر من ذلك، إن كان لا بد أن تعلم، فهو لم يستحم كل يوم حتى. الكتاب الذين تركوا لنا سجلاً عن روما القديمة يخبروننا أنه كان غسلاً لأيديهم وأرجلهم فقط، والتي كانت تتسخ بفعل العمل طبعاً، ولا يغسلون جسمهم كاملاً إلا مرة في الأسبوع في يوم السوق. «من الواضح» سوف يعلّق أحدهم، «أنه قد مرت أوقات كانوا فيها مقرفينَ جداً». وما الرائحة التي تظنُّها تنبعث منهم؟ سأقول لك: العمل العسكري المضني، والشغل الصعب، وكل ما تطلبه حياة الرجل. الناس مخلوقات أقذر الآن مما كانوا عليه في الأزمان التي سبقت ظهور الحمامات الناصعة. ما الذي يقوله هوراس عندما يريد أن يصف رجلاً يعرفُ، بل يشتهر، بمبالغاته المفرطة في طباعه المفذلكة؟

بوكيلوس تنبعث منه رائحة الحبوب المعطرة"[126]

ضع بوكيلوس في يومنا هذا وسوف يعتبرونه "نتناً مثل معزة". ويكون في نفس موقع جارجونيوس الذي يعتبره هوراس نقيضاً له. فاليوم لا يكفي أن تستعمل المرهم المعطر، بل يجب وضعه مرتين أو ثلاثاً يومياً خوفاً من تبخره من على جسم المرء. ولن أقول شيئاً عن الطريقة التي يتفاخر بها الناس بالعطور التي يضعونها، وكأنها منهم.

وإذا شعرت بأن كلامي كله متأففٌ فلك أن تعزو ذلك إلى جو البيت! لقد تعلمت في إقامتي هنا من أيجيالوس (الذي هو مالك العقار حالياً ويولي اهتماماً كبيراً لإدارته) أن الأشجار يمكن نقلها حتى عندما تصبح كبيرة - وهو درسٌ يجب أن نتعلمه نحن العجائز الذين نغرسُ مزارع الزيتون ليستفيد منها وَرَثَتِنا - بعد أن رأيته ينقل بحذرٍ إحدى الأشجار التي أثمرت ثلاثة مواسمٍ أو أربعة. أنت أيضاً تستطيع الآن أن تستمتع بظل الشجرة التي

بطيئة في نموها، وموجودةٌ لتمنح

أحفادك الظل في السنوات اللاحقة البعيدة"[127]

على ذمة فرجيل، الذي لم يكن مهتماً بالحقائق بل بالتأثير الشعري، فغرضه متعة القارئ، وليس إرشاد المزارع. وأنتقي على ذلك مثالاً

Horace, Satires, I:2.27 and I:4-92. .126

وهوراس في الواقع كتب هذا الكلام عن روفيلوس.

Virgil, Georgics, II:58 127

واحداً، دعني أقتبس من المقطع التالي الذي لم أستطع الا أرى فيه الخطأ اليوم:

في الربيع وقت بذر الفاصولياء، وفيه أيضاً
الأخاديد المحروثة، والبازلاء، ترحب بك،
والجاورس أيضاً تستقبلُ عنايتها السنوية«[128]»

أترك لك أن تستنتج إذا ما كانت النباتات المذكورة يجب أن تُزرع في الوقت نفسه مع بعضها بعضاً، وإن كانت يجب أن تزرع في الربيع. بينما أكتب نحن الآن في شهر يونيو، ونتحضر ليوليو أيضاً، ولقد رأيت الناس يحصدون الفاصولياء ويزرعون الجاورس في اليوم نفسه.

وللعودة إلى مزرعة الزيتون، رأيت وسيلتين مختلفتين للزراعة هنا. في الأولى، تؤخذ أشجارٌ كبيرة وتُقلم أغصانها، وتقطع من مسافة قدم على الساق، ومن ثم نقلها أيجيالوس كاملة مع تاجها، مقلماً الجذور وتاركاً القاعدة الحقيقية وهي الجزء الذي ترتبط به الجذور. ووضع هذا في حفرة مضيفاً روثاً، ولم يغمرها بالتراب وحسب بل سحق التراب ودقه بقوة. يقول أنْ لا شيء يعطي نتائج جيدة مثل «رصّها نحو الأسفل» بهذه الطريقة، كما يدعوها، وما يفعله ذلك طبعاً هو الوقاية من البرد والريح، وعلاوة على ذلك يجعل الشجرة أقل قابلية لأن تميل، وبذلك يسمح للجذور التي ما زالت يافعة أن تتفرع وتتشبث بالتربة، وهي ما زالت

Virgil, Georgics, 128I:215-216 128

غضة وقابلة للانتزاع من تشبثها الضعيف بأصغر قلقلة. ويُجرِّحُ أيضاً لحاء الشجرة قبل تغطيته، لأنه (حسب قوله) تظهر الجذور الجديدة حيث يكون الخشب المدفون عارياً. والشجرة، مجدداً، يجب ألا تكون أعلى من ثلاثة أو أربعة أقدام من سطح الأرض، فهذا يضمن النمو الأخضر من الأسفل نحو الأعلى منذ البداية، بدلاً من مساحة كبيرة من الساق الجافة والفارغة من النوع الذي تجده في بساتين الزيتون القديمة.

الطريقة الثانية كما يلي: بعد أن أخذ أغصاناً من النوع الذي تجده على الأشجار اليافعة جداً: أغصاناً قوية ولكنها في الوقت نفسه ذات لحاء طري، قام بزرعها بنفس الطريقة. هذه تنمو ببطء أكبر ولكن لأنها تنمو من حيث تُقتطع فلا شيء معوجٌ أو بشعٌ فيها.

رأيتُ أيضاً نقل كرمة عنب قديمة من الشجرة التي تدعمها، وفي هذه الحالة على المرء أن يجمع معها، إن أمكن، حتى الجذور الدقيقة الشعرية، ويغمرها أيضاً بكمية أكبر من التراب بحيث تنمو الجذور من الساق أيضاً. لقد رأيت مثل هذه الزروع ليس في شهر فبراير وحسب، بل في نهاية مارس أيضاً، والعرائش تتقبل أشجار الدردار التي تدعمها وتتشبث بها. يقول أيجيالوس أيضاً أن كل الأشجار ذات السوق القاسية، إن كان يصح أن يدعوها المرء كذلك، يجب أن تُروى من مخزون مُعبأ، وإن كان هذا ناجحاً، فقد وضعنا المطر تحت سيطرتنا.

ولكنني لن أقول لك المزيد مخافة أن أحولك إلى مزارع منافسٍ لي كما جعلني أيجاليوس منافسه!

الرسالة (XXXIII)

«الدراسات الحرّة»

تريد أن تعرف موقفي من الدراسات الحرة. حسنٌ، ليس عندي أيُّ احترامٍ لأي دراسة إن كان هدفها جمع النقود. مثل هذه الدراسات غير جديرة في نظري. إنها تتضمن وضع مهارات المرء للإيجار، ولا قيمة فيها إلا بقدر ما تطور العقل من دون أن تشغله كثيراً. ويجب ألا يُنفَق عليها الوقت إلا عندما تكون قدرات المرء العقلية دون مستوى التعامل مع الأشياء الأرقى. إنها مهنتنا وليست عملنا الحقيقي. وسبب دعوة الدراسة الحرة بهذا الاسم واضح: لأنها تعتبر جديرة بالرجل الحر. ولكن هنالك دراسة واحدة تستحق هذا الاسم – لأنها تجعلُ الشخص حراً – هي السعي نحو الحكمة. مُثلها الراقية، وثباتها وروحها تجعل كل الدراسات الأخرى صبيانية وسخيفة بالمقارنة. أتظن أن فيها ما ينفعُ الدارسين عندما نجدُ بين من يدعون أنهم أساتذتها أكثر الشخصيات الوضيعة وعديمة القيمة التي قد يُضرب بها المثل بين المعلمين؟ لا بأس بأنك درست مثل هذا الشيء يوماً ما، ولكن ليس أن تدرسه الآن.

لقد طُرح أحياناً سؤال إذا ما كانت هذا الدراسات الحرة تجعل الرجل إنساناً أفضل. ولكنها في الواقع لا تتطلع إلى معرفةٍ تفيد في ذلك، ناهيك عن ادعاء ذلك. العالمُ الأدبي يشغل نفسه بالبحث في اللغة، أو التاريخ إن كان يرغبُ حقلاً أوسع، أو، إذا بسَّط مجاله إلى آخر حد: فإلى الشعر. أي هذه تمهدُ الطريق إلى الفضيلة؟ النباهةُ في الكلمات؟ تحليل المقاطع الصوتية؟ روايات الأساطير؟ وضع مبادئ علم الشعر؟ ماذا يفيدُ كلّ ذلك في تبديد الخوف؟ أو اجتثاث الرغبات؟ أو لجمِ الشغف؟ أو دعنا ننظر في الموسيقى أو الهندسة. لن تجد فيهما شيئاً يعلمنا كيف لا نخاف كذا أو نشتهي كذا – ومن يفتقرُ إلى هذا النوع من المعرفة فكل معارفه الأخرى لا تفيده في شيء. السؤال هو إذا ما كان هذا العالم يدرِّسُ الفضيلةَ أم لا. لأنه إنْ لم يكن يُدرِّسها عمداً، فهو لن ينشرها عرَضاً. وإن كان يُدرِّسها فهو فيلسوف. وكي ترى كم أن هؤلاء الأشخاص بعيدون عن أن يكونوا معلمين أخلاقيين فانظر إلى غياب الروابط بين كل الأشياء التي يدرسونها، ولو أنهم يُعلّمون شيئاً واحداً بعينه لكان الارتباط بينها جلياً. إلا إن وقعت فاستطاعوا إقناعك بأن هوميروس كان فيلسوفاً، على الرغم من أنهم ينقضون ادعاءهم بالمقاطع نفسها التي يسوقونها أدلة على ذلك. فهم في لحظة ما يجعلونه رواقياً، فلا يمنح إلا الفضيلة موافقته، ويتجنّبُ اللذة، ولا يغريه حتى عرضُ الخلود بأن يفعل شيئاً غير مشرف. وفي لحظة أخرى يجعلونه أبيقورياً، يمدحُ أسلوب حياة المجتمع الذي يمضي أيامه بسلامٍ ورغد، في جو من حفلات العشاء وعزف الموسيقى. وفي لحظة أخرى يجعلونه مشائيّاً يصنّفُ الأشياء الجيدة ثلاثة أقسام، وفي لحظةٍ أخرى ينسبونه لأكاديمية أفلاطون فيقول بأن لا شيء يقين. من الواضح

أن هوميروس لا يملك أياً من هذه الفلسفات، وذلك بالضبط لأنها تبدو كلها موجودة عنده، فالعقائد غير متوافقةٍ مع بعضها بعضاً. بل افترض أننا سلمنا لهؤلاء أن هوميروس كان فيلسوفاً، هذا يعني بالتأكيد أنه أصبح رجلاً حكيماً قبل أن يُنشد أي ملحمة، فيكون علينا أن نتعلم تلك الأشياء التي جعلته حكيماً.

وما عاد هنالك فائدة من التحقيق في أيهما أقدم، هوميروس أم هزيود، إلا بقدر فائدة معرفتي لماذا ظهرت آثار السنوات في هيكوبا على الرغم من أنها أصغر من هيلين. وأسألُ هذا العالم، أي فائدة تراها في محاولة إثبات أعمار آخيل ورفيقه باتروكلس؟ وهل أنت مهتم بأن تعرف إلى أين أودى تهيامُ عوليس به أكثر من معرفة طريقةٍ ننهي بها نحن تهيامنا الأبدي؟ ليس لدينا الوقت لننفقه في معرفة ما إذا كان قد لاقى عاصفة بين إيطاليا وصقلية أو في مكان آخر خارج العالم الذي نعرفه – وفي الواقع فإن تجوالاً مكثفاً كتجواله لا يمكن أن يكون قد حصل محصوراً داخل منطقة كهذه – بينما نحن في كل يومٍ نرتطم بعواصفنا نحن، عواصفنا الروحية، وتقودنا الرذيلة إلى كل أنواع المشكلات التي مر بها عوليس. فنحن لا ترحمنا الجميلاتُ الملهياتُ للعيون، ولا هجمات الأعداء أيضاً. ونحن مثله نصارع في أماكن كثيرة وحوشاً تُعربد في دم البشر، وأصواتاً خبيثةً تضلل آذاننا، وحطام السفن وكل أنواع الكوارث. ما يجب عليك أن تعلمني إياه هو كيف أحصل على مثل حبِّ عوليس لبلادي، لأبي ولزوجتي، و كيف أبقى متجهاً نحو تلك المثل حتى بعد حطام السفينة.

لماذا نفتح موضوع بينلوبي[129] ونتساءل هل كانت أنموذج الطهر الزوجي حقاً، أم أنها خدعت معاصريها وحسب؟ أو هل كانت تشعر في داخلها أن الرجل الذي تنظرُ إليه هو عوليس قبل أن تعرف يقيناً؟ علِّمني بدلاً من ذلك ما هو الطُهر، وكم من القيمة فيه، وهل هو في الجسد أم في العقل.

والتفتُ إلى عالم الموسيقى وأسألهُ الآتي: أنت تعلمني كيف يتناغم الجهير والرقيق، أو كيف يحصل الانسجام بين أوتار تصدرُ نغمات مختلفة. كنتُ أفضلُ أن تقدمَ لعقلي بعض التناغمِ وتدوزن أفكاري. أنت تعلمني أي المقامات حزينة، يا ليتك تعلمني كيف أضبطُ نفسي عن الغمغمة بحزن عندما تسير الحياة ضدي.

الهندسي يُعلمني كيف أقسّم أرضي، بدلاً من أن يعلمني كم يحتاج الإنسان ليملك ما يكفي. يعلمني كيف أحسب، واضعاً أصابعي في خدمة الجشع، بدلاً من أن يعلمني أنْ ليس هنالك أي فائدة على الإطلاق من هذا الحساب، وأنَّ الإنسان لا يكون أسعد إذا امتلك ثرواتٍ تُتعب المحاسبين، أو بشكل آخر: كم قيمة ممتلكات المرء حقاً إن كان سيتحول إلى صورةٍ من المعاناة لو أُضطرَّ إلى عدِّ ما يمتلكه بنفسه. ماذا تفيدني قدرتي على تقسيم قطعة من الأرض إلى قطعٍ متساوية إذا كنت عاجزاً عن اقتسامها مع أخي؟ ما فائدة قياس الأكر بدقة تفوق المسطرة إذا كنت أنزعج عندما يتعدى جارٌ متطاولٌ على شيءٍ طفيفٍ من أرضي؟ الهندسي يعلمني كيف أتجنب خسارةَ أصغر جزء من أرضي، ولكنْ ما أريد أن

129. [في الأوديسة زوجة عوليس التي تحايلت لرفض من يطلبونها في غيابه، والشخصيات المذكورة في هذه الفقرة كلها من الأوديسة والإلياذة]

أتعلمه هو كيف أخسرها كلها وأبقى مُبتسماً. 'ولكنني أطردُ من الأرض التي امتلكها والدي وجدّي قبلي!' حسنٌ وماذا يعني ذلك؟ من كان يملك الأرض قبل جدك؟ هل أنت في موقع يسمح لك بتحديد المجتمع، ناهيك عن الفرد، الذي امتلكها في الأصل؟ لقد دخلتها مستأجراً، وليس مالكاً مطلقاً. مستأجراً عند من؟ عندَ وريثك، وهذا إنْ كنت محظوظاً فقط. إن العارفين القانونيين يقولون إن الاستحواذ الفردي لا ينطبق على الأرض التي كانت في الأساس ملكية عامة. حسنٌ، ما تمتلكه وتدعي أنه لك هو في الواقع ملكيةٌ عامة، أو ملكية البشرية بالأحرى. آهٍ يا لعجائب الهندسة، الهندسيون يحسبون مساحات الدوائر، ويستطيعون اختزال أي شكلٍ إلى مربع، ويستطيعون أن يقيسوا المسافات بين النجوم. لا شيء خارج قدرتهم عندما يأتي الموضوع للقياس. حسنٌ إن كنت خبيراً إلى هذه الدرجة، قِسْ لي روح إنسان، قل: أهي عملاقة أم صغيرة؟ يمكنك أن تُعرف خطاً مستقيماً، ما نفع ذلك إن كنت لا تعرف ماذا تعني الاستقامة في الحياة؟

وأصِلُ الآن إلى الذي يتفاخر بمعرفته بالأجرام السماوية:

والتي نحو فلكها يتحرك زحل البارد
الأفلاكُ التي يجول فيها عطارد المُشتعل."[130]

130 Virgil, Georgics, I:336-337 والمقصود من انتقاد سينيكا هو للمنجم، لا عالم الفلك طبعاً.

ما الذي نكسبه من مثل هذه المعرفة؟ هل يُفترض أن أقلق عندما يتعارض زحل والمريخ؟ أو عندما يغيب عطارد مساءً في حضور زحل الكامل؟ بدلاً من أن أتعلم أن هذه الأجرام كلها حميدةٌ بقدر بعضها بعضاً؟ وغير قادرة على التغير في أي حال: إنها تنجرُّ على طريق لا تستطيعُ الإفلات منه، حركتها محكومة بسلسلة لا انقطاع لها من الأحداث المحتومة، فتعيدُ التجلّي في حلقاتٍ ثابتة. هي إما تُحرِّكُ، أو تؤذِنُ، بكل الأحداث التي تقع في الكون. إذا كان كل حدثٍ نتيجةً لها فكيف يفيدني مجرد الوعي بشيء لا يتغير؟ إن كانت علاماتٍ على أحداث ستحصل فما الفرق إذا وعيت بالمسبق أشياء لا تستطيع الفرار منها؟ سوف تحصلُ أعلمت بها أم لم تعلم.

إذا راقبت إسراع الشمس وراقبت
النجوم تمضي في السماء، ففي اليوم
الذي يأتي غداً لن تكون مخطئاً
ولن تجرّك الليالي الخادعة الصافية.[131]

لقد اتخذتُ تدابير احتياطية أكثر من كافية كيلا أنجرّ خلف الظواهر الخداعة. وفي هذه النقطة ستعترض: «هل تستطيع أن تقول حقاً (في اليوم الذي يأتي غداً لن أكون مخطئاً؟) أيّ شيءٍ يحصلُ ولا يتوقعه المرء لا بدَّ أنه يثبتُ خطأه». حسنٌ، إني لا أعرف ما الذي سيحدث، ولكنني أعرف ما

131. فرجيل، Georgics، I:424-426. يبدو أن سينيكا هنا يقتبس خطأً عن فرجيل. فهو يتحدث في نسختنا عن أطوار القمر وليس عن النجوم. وأبيات فرجيل هذه في الواقع جزء من مقطع يتعلق بعلامات تقلب الطقس.

هو قابلٌ للحدوث، ولا شيء منه سوف يدفعني إلى التذمّر. أنا مستعدٌ لكل شيء. إذا أفلت مني شيءٌ، فأنا سعيد، بل إن اليوم الذي تتحدث عنه يثبتُ خطئي إذا عاملني بلطفٍ، ولكن حتى حينها فلست مخطئاً فعلاً، فكما أعرف أن أي شيء قابلٌ لأن يحصل أعرفُ أيضاً أنه ليس بالضرورة أن يحصل. فأتطلع إلى الأفضل وأستعد للأسوأ.

عليك أن تتحملني إذْ أخالفك هنا، فلا شيء سوف يقنعني بقبول الرسامين في لائحة الفنون الحرّة، أكثر من أن أقبل النحاتين، وبنّائي الرخام، وكل العاملين في تصنيع البذخ. أنا مجبرٌ أيضاً لأن أرفض على حدٍ سواء أولئك العاملين في الزيت والغبار: المصارعين، وإلا سأضطر إلى أن أقبل في القائمة من يعملون في العطور والطباخين وكل من يضعون مواهبهم في خدمة اللذات. إني أسألك، ما هو الحُرُّ في البشر الذين يتقيؤون الطعام الذي أكلوه كي يأكلوا المزيد؟ فيحشون أجسادهم حتى تمتلئ وتجوعُ عقولهم وتخمل؟ هل ننظر إلى هذا بصفته إنجازاً تحررياً لشباب روما؟ الذين دربهم أجدادنا على الوقوف بانتصاب ورشق الرماح وحملِ الحراب ومداراة الأحصنة وصيانة السلاح؟ ما كانوا أبداً يعلمون أولادهم شيئاً يمكنهم تعلمه في وضع مُستلقٍ. وعلى الرغم من ذلك، فإن هذا النوع من التدريب لا يعلِّمُ أو ينمي القيم الأخلاقية أكثر من الآخر. فما الفائدة في آخر المطاف من سيطرتك على حصان والتحكم به خلال قفزه السريع إنْ كنت تنجرف أنت نفسك بمشاعر مطلقة العنان بالكامل؟ ما فائدة هزيمة خصمٍ إثر خصمٍ في حلبة المصارعة أو الملاكمة إن كان غضبك يهزمك؟

«إذاً نحن لا نستفيدُ أي شيءٍ من الدراسات الحرة؟» قد تسألني. فيما يخص شخصيتنا لا، ولكننا نستفيد منها بقدر كبير في اتجاهات أخرى، بالضبط كما تلك الفنون الأدنى بوضوح التي كنا نتحدث عنها، والتي أساسها استعمال اليدين، فهي تقدمُ وسائل الحياة الضرورية مع أنها لا تفيد شيئاً في الشخصية. لماذا إذاً نقدِّم لأولادنا تعليماً حراً؟ ليس لأنه قادرٌ على تحسين أخلاقهم، بل لأنه يجهزُ العقل للحصول على القيم الأخلاقية، تماماً مثل التمكن في قواعد النحو، كما كانت تدعى في الأيام القديمة، والتي كان يدرسها الأولاد في التعليم الأوّلي: إنها لا تعلم الفنون الحرّة ولكنها تحضِّرُ الأرضية لمعرفتها في المساق الصحيح، وكذلك حالُ الشخصية: الفنون الحرّةُ تفتح الطريق لها بدلاً من أن تحمل الشخصية على تلك الطريق بنفسها...»[132]

وفي هذا الإطار أشعر أن علي أن أنظر في الصفات الفردية للشخصية. الشجاعة هي تلك التي تنظر إلى ما يوقد الخوفَ في قلوب الناس: فتزدريه، وتحتقر وتتحدى وتهدم كل الأشياء التي ترعبنا وتقيّدُ الحرية البشرية بالسلاسل. هل تقويها الدراسات الحرة بأي طريقة؟ خذ الإخلاص، الصفة الأكثر قدسية التي يمكن أن يحملها قلبُ إنسان: منيعةٌ ضد الإفساد بالرشوة، ولا يجرّها أي اندفاع وراء العواطف نحو الخيانة، هي التي تصرخ: «اضرب، واحرق، واقتل، ولن أتحدَّث! وكل ما أوغلَ تعذيبك مسبارهُ نحو أسراري سأخفيها أعمق!» هل تقدر الدراسات الحرة على صنع مثل هذه الروح؟ خذ التحكم بالنفس، الميزة التي تضبطُ

132. حُذف هنا حوالي 45 سطراً من الأصل اللاتيني بسبب قلة أهميتها النسبية.

خام اللذات، فتصرف بعضها كلياً، ولا نستطيع تقبلها، وبعضها الآخر تكتفي بتنظيمه، متوثقةً من أنها ضمن الحد الصحي، ولا تقتربُ من اللذات من أجل اللذات وحسب أبداً، فهي تستوعب أن الحد المثالي في الأشياء التي ترغبها ليس كمية الرغبة، بل الكمية التي تحتاج إليها. أما الإنسانيةُ فهي الصفة التي تمنع الإنسان من التعالي على رفيقه، أو من أن يكون حاداً: في الكلمات وفي الأفعال وفي العواطف، وتبدي الكرم واللطف للجميع، فتجد في مُشكلات أي شخص آخر مشكلاتها، وكل شيء يفيدها ترحب به في المقام الأول لأنه سيكون ذا فائدة للآخرين. هل تلقّنُ الدراسات الحرة هذه المواقف؟ لا، ليس أكثر مما تلقن البساطة أو التواضع أو الانضباط، أو الاقتصاد والإنفاق السليم، أو الرحمة... الرحمة التي تعصمك من دم شخصٍ آخر وكأنه دمك، لمعرفتك بأنه ليس للإنسان أن يهدر الإنسان.

سيسألني أحدهم كيف أقول أن الدراسات الحرة لا تأخذنا نحو الأخلاق بينما قلت تواً إنه لا وصول إلى الأخلاق بدونها. جوابي كالتالي: لا وصولَ إلى الأخلاق بدون الطعام أيضاً، ولكن لا علاقة للأخلاق بالطعام. السفينة لا تبدأ إلا من الخشب الذي تبنى منه، وهذا لا يعني أن الخشب «يساعدها». ليس عندك سبب لتفترض أنه لمجرد أن x شيء لا يمكن من دونه أن تكون y فهذا يعني أن y جاءت نتيجة لـx. بل من الممكن الجدال بأن الوصول إلى الحكمة ممكنٌ جداً دون الدراسات الحرة، فمع أن القيم الأخلاقية أشياء تحتاج الدراسة، فهي لا تُدرك بهذا النوع من الدراسات. وعلاوة على ذلك، أي أساسٍ عندي أفترض عليه أن رجلاً لا يعرف الكتب لن يكون رجلاً حكيماً؟ فالحكمة ليست في

الكتب. الحكمة لا تنشر الكلمات بل الحقائق، ولست واثقاً: لعلَّ الذاكرةَ أجدرُ بالاعتماد عليها وأكثر حذقاً عندما لا تمتلك مراجع خارجية تعود إليها؟

لا شيء صغيرٌ أو محشورٌ في الحكمة، إنها شيء يتطلب الكثير من المساحة للتحرك. هنالك أسئلة تحتاج الإجابات في المواضيع الفيزيائية كما الإنسانية، أسئلة عن الماضي والمستقبل، أسئلة عن أشياء أبدية وأشياء عابرة، أسئلة عن الزمن نفسه. في موضوع الزمن وحده هذا انظر كم لدينا أسئلة. بدايةً، هل له وجودٌ بحد ذاته؟ هل بدأ مع الكون، أو وجد قبله على أساس وجودِ شيء ما قبل وجود الكون؟ ثمة أسئلة لا تحصى حول الروح وحدها: من أين تأتي وما هي طبيعتها، أين تبدأُ وأين تنتهي، وكم من الوقت تبقى في الوجود، هل تعبر من مكان إلى آخر، فتغير منزلها نوعاً ما متنقلةً بين كائنات حية متتالية وآخذةً أشكالاً مختلفة في كل منها؟ أم أنها لا تخدم إلا عمراً واحداً ومن ثم تنطلق لتجوب الكون؟ هل هي مادةٌ جسدية أم لا؟ ما الذي ستفعله عندما تتوقف عن التمثّلِ في هيئتنا؟ كيف تستعمل حريتها عندما تفلتُ من هذا القفص هنا؟ وهل ستنسى ماضيها وتصبح واعيةً لحقيقتها الطبيعية منذ اللحظة التي تترك فيها الجسد وتغادر نحو بيتها الجديد العالي؟ أياً كان فرع العلم الفيزيائي أو الأخلاقي الذي تتعامل معه، لن تحصل عل راحة من كثرة المسائل التي تحتاجُ تعلمها أو التحقيق فيها. وحتى نمنح المسائل من هذا الحجم والمجال استقبالاً غير محدودٍ في عقولنا، يجبُ علينا إهمال كل شيء فارغ. الفضيلةُ لن ترغم نفسها على دخول الحيز الضيق الذي نعرضه عليها، شيءٌ بهذا الحجم

فتفرَّغ من كل شيءٍ آخر إذاً، وافتح قلبك لها بشكلٍ يحتل مساحة واسعة.

كامل.

ولكنه شيءٌ جميلٌ بالتأكيد أن يكون المرء عارفاً في شتّى المواضيع. حسنٌ، في تلك الحالة دعنا نحتفظ بالكم الذي نحتاجه منها. ألا ترى أن من الواجب تقريع من لا ينظمُ بيته؟ فيضع أغراضاً تافهة على نفس الطاولة التي يعرض عليها أثمن مقتنياته؟ فكيف يكون حالُ من يعجُّ عقله بأثاث الدراسة الفارغ؟ الرغبة في معرفةِ ما هو أكثر من كافٍ شكلٌ من الإفراط. وبعيداً عنه، فإن هذا الهوس بالدراسات الحرة يدفع الناس إلى أن يصبحوا مدرسيِّين ومُزعجين وقليلي أدب، ومملين معجبين بأنفسهم، فهم لا يتعلمون ما يحتاجونه، ببساطة لأنهم يمضون وقتهم في تعلم أشياء لا حاجة لهم بها. كتب العالم ديديموس أربعة آلاف عمل: كان يكفي أن يقرأ وحسب هذا العدد العملاق من الكتب عديمة الفائدة حتى أشعر بالشفقة عليه. في هذه الكتب يناقش أسئلة مثل أصل هوميروس، ومن كانت أم أينياس الحقيقية، وما إذا كانت حياة الشاعر أناكريون فاسقةً أكثر منها سكّيرة، وإذا ما كانت «سافو» الشاعرة تنامُ مع كلّ من يطلبُ منها، وأشياء أخرى يجدرُ بالمرء أن ينساها لو كان يعرفها حقاً! لا تقل لي الآن أن الحياة طويلة بما يكفي لهذا النوع من الأشياء!

بل حتى عندما نصلُ إلى كُتّاب مدرستنا نحن أستطيع في الواقع أن أعرض عليك الكثير من الأعمال التي يمكن أن تستفيد من التقليم القاسي. المرءُ يتكلف كمية كبيرة من الوقت (وآذانُ الآخرين تتكلف كمية

كبيرة من الضجر) قبل أن يحصل على إطراءات من نوع «يا له من شخصٍ مُطلع!» دعنا نرضى بالصفة الأقل موضةً: «يا له من رجلٍ جيد!»...[133]

ماذا عن التفكير في كم من الوقت تخسرُ عبر الانشغال الدائم في المسائل الرسمية أو الخاصة أو مسائل الحياة اليومية الاعتيادية؟ مثل النوم، والصحة السيئة؟ قسْ حياتك: إنها ببساطة لا تتسعُ إلى كل هذا الكثير. أنا أتحدث عن الدراسات الحرّة، ولكن انظر إلى كم الكتابة الفارغة وعديمة الفائدة عند الفلاسفة. حتى هم انحدروا إلى مستوى تحديد الاستعمالات المختلفة للمقاطع الصوتية ومناقشة المعاني الصحيحة لحروف الجر والعطف. لقد صاروا يحسدون عالم فقه اللغة والرياضيات، وقد استحوذوا على كل العوامل السطحية من تلك الدراسات، ونتيجة ذلك أنهم يعرفون كيف يكرسون عنايتهم واهتمامهم بخطابهم أكثر من تكريس مثل هذه العناية لحيواتهم. استمع ودعني أخبرك أي عواقب محزنة يؤول إليها التنميقُ عندما يتطرف في زيادته، وأي عدوٍ يصبحُ للحقيقة. بروتاغوراس[134] يعلن أن من الممكن مناقشة جانبي أي خلافٍ وسؤالٍ بنفس القوة، ويتضمن ذلك حتى سؤال ما إذا كان الإنسان يستطيع أن يجادل جانبي أي سؤال بنفس القوة! نوسيفانس[135] يعلن أن الاشياء التي تبدو أنها توجد، فهي موجودةٌ وحسب بقدر ما هي غير موجودة.

133. حُذف 15 سطراً (المقاطع 39 إلى 40، وهي المزيد من الأمثلة على الدراسة عديمة الفائدة).

134. Protagoras فيلسوف يوناني من القرن الخامس قبل الميلاد، شكاكٌ في الآلهة، وهو القائل: "الإنسانُ معيارُ كلّ الأشياء".

135. Nausiphanes 135 فيلسوف يوناني من القرن الرابع قبل للميلاد، تبنى نظرية ديموقريطس في الذرات، ودرّس ابيقور.

بارمينيدس[136] يعلن أن كل هذه الظواهر موجودة، إلا مجموعها. أما زينون الإيلي فقد رفض كل هذه الصعوبات عبر تقديمه واحدة جديدة: يعلنُ أنْ لا شيء موجود. المدارس البيروية والميجارية والإريترية والأكاديمية[137] كلها تتبع إلى حد ما خطوطاً مشابهة، والأخيرة قدمت لنا فرعاً جديداً من المعرفة: اللا معرفة.

حسنٌ، كل هذه النظريات يجب أن ترميها فوق تلة الدراسات الحرة الفارغة. الناس الذين ذكرتُهم أولاً يقدمون لي معرفة لن تفيدني، والآخرون ينتزعون مني أي أملٍ بالحصول على أي معرفةٍ على الإطلاق. المعرفة الفارغة خيرٌ من عدم المعرفة. أحدُ الجانبين لا يقدم لي أي نورٍ يرشدُ فهمي في البحثِ عن الحقيقة، والآخر يقتلعُ عيني. إذا صدقت بروتاغوراس فلا شيء يقين في الكون، إذا صدقت نوسيفانس فهنالك يقينٌ واحد: أنْ ليس ثمة يقين. وإذا بارمينيدس، يوجد شيءٌ واحد، وإذا زينون الإيلي، فلا يوجدُ حتى الواحد. ماذا نكون نحن إذاً؟ والأشياء التي تحيط بنا؟ والأشياء التي نعيش منها؟ كوننا كله، إذاً، ليس أكثر من شبهِ

136. Parmenides فيلسوف يوناني من القرن الخامس قبل الميلاد، عاش في إيطاليا، يعتبر مؤسس للمنطق، قادته دراسته لفعل 'يكون' إلى إنكار حصول التغير في أي شيء، معارضاً هرقليطس. وزينون إيلياء (أو الإيلي) من تلامذته، ولدَ حوالى 490 ق.م واشتُهر بتناقضاته حول الحركة التي بقيت مبحثاً في الفلسفة حتى العصر الحديث، وحاول مقاربتها عدد ضخم من الفلاسفة على تنوع مشاربهم وعصورهم، مثل أرسطو، وتوما الأكويني، وبرتراند راسل.

137. [البيروية (Pyrrhonean) نسبة إلى الفيلسوف بيرو pyrrho (حوالى 275-365 ق.م) ويعتبر للشكك الأول في اليونان، بدأت المدرسة بعد عدة قرون من حياته، وهي إحدى المدرستين اللتين تحتويان على تقليد الشك في العالم الإغريقي الروماني، والثانية اكاديمية أفلاطون. الميجارية Megarian، أسسها تلميذ سقراط: إقليدس الميجاري Euclid of Megara وازدهرت في القرن الرابع قبل الميلاد. الإريترية Eretrian اسسها تلميذ سقراط: 'فايدو' Phaedo، والمعروف عن عقائدها قليل. والأكاديمية Academic التي اسسها أفلاطون في أثينا.]

بالحقيقة، أو ربما هو شبهٌ خدّاع، أو ربما تشبيه لا حقيقة فيه أبداً. من الصعب القولُ أيُ هؤلاء الناس يزعجني أكثر، الذين يريدون لنا أن نقرَّ بأننا لا نعرف أيَّ شيء، أم الذين يريدون حرماننا من مجرّد الرضا بأن نعرف أننا لا نعرف شيئاً.

الرسالة (XXXIV)

«الفلسفة والتقانة في تطور البشرية»

من يستطيع أن يشكك يا عزيزي لوكيليوس في أن الحياة هبةٌ من الآلهة الخالدة؟ ولكن، الحياة الجيدة: هبةٌ من الفلسفة. يتبع من ذلك النتيجة المؤكدة بأن دَيننا للفلسفة أكبر من دَيننا للآلهة (لأن الحياة الجيدة نعمةٌ أكبرُ من الحياة وحسب) لولا أن الفلسفة نفسها شيءٌ منحته الآلهة أيضاً، فهم لم يعطوا أحداً معرفة الفلسفة أعطيةً، ولكنهم منحوا الجميع قدرة الحصول عليها. فلو أنهم جعلوا الفلسفة نعمةً يمتلكها الجميع بلا استثناء، لو أننا نولد في حالة من التنور الأخلاقي، لحُرِمَت الفلسفة من أفضل صفاتها: أنها واحدة من الأشياء التي لا تستطيع الأقدارُ أن تعطينا إياها أو تأخذها منا. بينما في حالنا هذه، فهنالك نبلٌ وروعةٌ في الحكمة لأنها لا تسقط وحسب في حظ المرء، بل كلُّ إنسان يحصّلها بجهوده الخاصة، ولأن المرء لا يذهب إلى أي أحد آخر غير ذاته ليجدها. ما الذي كان ليستحق الإعجاب به في الفلسفة لو أنها توزَّعُ بالمجان؟

للفلسفة مهمة واحدة هي كشف حقيقة العالمين الإنساني والإلهي. و لا يفارق جانبها أبداً الضميرُ الديني، وحس الواجب، والعدالة وكل «صحبة الفضائل» المتناسجة المترابطة. لقد علّمت الفلسفة البشر أن

يعبدوا ما هو مقدس، ويحبوا ما هو إنساني، تعلمنا أنه للآلهة السلطةُ، وبين البشر الرفقة. تلك الرفقة بقيت سليمة زماناً، قبل أن يحطم جشع البشر المجتمع، ويُفقر حتى الذين جلب لهم أكبر الثروات، لأن البشر يفقدون كلَّ شيء ما إن يرغبوا في كل شيء.

أما الرجال الأوائل على هذه الأرض، وذريتهم المباشرة، فقد اتبعوا الطبيعة النقية، واتخذوا شخصاً واحداً قائداً وقانوناً لهم، يخضعون بحريتهم للفرد ذي الفضل الأعلى. إن طريقة الطبيعة هي إخضاع الأسوأ للأفضل. في الحيوانات الغبية يكون المسيطرُ غالباً الأضخم أو الأقوى. الثور الذي يقود القطيع ليس الضعيف، بل الذي انتصر على باقي الذكور بضخامته وعضلاته. في قطيع الفيلة الأطولُ هو القائد. والموقع الأعلى بين البشر لصاحب الفضلِ الأعلى. لذلك اعتادوا اختيار حاكمهم حسب شخصيته. وهكذا كان الناس محظوظين جداً لما كان الرجل منهم لا يقدر أن يكون أقوى من الآخرين إلا إن كان رجلاً أفضل منهم. إذْ لا خطر في أن يملك الإنسان القدر الذي يحبُّ من السلطة إذا كان يعتمد الرأي القائل إنه لا يملك السلطة إلا ليفعل واجبه.

في هذا العصر إذاً، الذي يشيرُ إليه البشر بشكل عام على أنه العصر الذهبي، كانت الحكومة – كما يقول بوسيدونيوس – في يد الحكماء. حافظوا على السلم، وحموا الضعيف من الأقوى، أمروا بأشياء ونَهَوا عن غيرها، ووضحوا ما هو مفيد من غيره. ضمنَ بُعدُ نظرهم لناسهم ألا ينقصهم شيء، بينما تصدت شجاعتهم للأخطار، وأتى إخلاصهم بالازدهار والخير لأتباعهم. أن تحكم يعني أن تَخْدُم، لا أن تقرر. لا أحد كان يجرب سلطته في الذين يدينُ لهم بالسلطة في المقام الأول. ولا كان

عند أحدٍ سببٌ أو ميلٌ لارتكاب الظلم، لأن الذين حكموا جيداً كانوا يطاعون جيداً على نحوٍ مساوٍ، وما كان الملك يستطيعُ أن يهدِّدَ أتباعه بشيء أسوأ من تخليه عن الحكم.

ولكن مع تسلل الرذائل تدريجياً وما نتجَ عنها من تحول للمُلكيات إلى طواغيت، أصبحنا نحتاجُ القوانين، وهي قوانين بدأ بوضعها أصلاً الحكماء. سولون[138]، الذي أسس أثينا دولة ديمقراطية، كان واحداً من سبعة رجال في العصور القديمة يُحتفى بهم لحكمتهم. ولو أن العصر نفسه أنتج ليكرجوس[139] لأضفنا اسماً ثامناً إلى ذلك العدد المُبجل. قوانين زالبوكوس وكاروندناس[140] لا تزال تُقدَّر. لم يدرس هذان الرجلان القوانين في الحياة العامة، ولا في قاعات المحكمة، بل تعلما المبادئ الدستورية التي أسساها (في صقلية والتي كانت وقتها في ذروة ازدهارها، وعلى امتداد المناطق اليونانية من إيطاليا) في المنعزل السرِّي عند فيثاغورث، الذي بات الآن مُبجلاً ومشهوراً.

حتى الآن أتفق مع بوسيدونيوس. ولكنه يدعي أن الفلسفة اكتشفت التقنيات المستخدمة في الحياة اليومية. هذا أرفض الاعتراف به. لن أدعي للفلسفة الفضلَ الذي أتت التقنية. يقول بوسيدونيوس: «إن الفلسفة هي التي علمت الرجال كيف يشيدون المباني في الزمن الذي كانوا فيه متفرقين

138 Solon مشرِّع أثيني ورجل دولة (639-559 ق.م)، كما كتب الشعر للترفيه وللدفاع عن مواقفه السياسية.

139 Lycurgus مشرع شبه أسطوري لإسبارطة، يشك في وجوده فعلاً، وما نعرفه عنه وصل من كتابات فلاسفة ومؤرخين كأفلاطون وبوليبيوس.

140 Zaleucus زاليوكوس مشرع يوناني من القرن السابع قبل الميلاد، وضع قوانين للمدن التي أنشأها اليونان في إيطاليا.

وكانت مساكنهم أكواخاً أو سفوحاً محفورة أو جذوع أشجار مجوّفة». أنا من جهتي لا أستطيع أن أؤمن بأن الفلسفة مسؤولة عن اختراع هذه الإنجازات الهندسية الحديثة التي ترتفع طابقاً تلو الآخر، أو مدنِ اليوم التي تزدحم الواحدة منها تلو الأخرى، ليس أكثر من اختراعها خزانات السمك، تلك الأحواض المصممة لتنقذ شره الإنسان من خطر العواصف وتضمن له البذخ في ماءٍ آمنٍ خاصٍ به، إذْ مهما هاجت البحارُ العالية تبقى الأنواع المختلفة من الأسماك في أحواضها جاهزةً وسمينة. هل ستقول لي فعلاً أن الفلسفة علمت الدنيا استخدام المفاتيح والمتاريس على الأبواب؟ والتي لا بدَّ أنها كانت بادرةً من الجشع؟ هل هي الفلسفة التي أنشأت المباني المتطاولة التي نعرفها اليوم؟ مع كل الخطر الذي تعنيه للساكنين فيها؟ لم يكن كافياً على ما يبدو أن يستخدم الإنسان أي غطاءٍ يجده، وأن يجد ملجأ في الطبيعة من نوع ما بلا إرهاقٍ ومن دون استخدام المهارات. صدقني إن ذاك العصر الذي سبق وجود المهندسين والبنَّائين كان عصراً سعيداً. أما نحتُ جذوع الخشب على شكل مربعٍ وقطع الأعمدة الدقيق بالمنشار على خط مرسومٍ محدد: كل هذه الأشياء جاءت مع البذخ.

أول الرجال فلّقوا خشبهم بالأوتاد»[٤]

أجل لأنهم لم يكونوا يحضِّرون سقف قاعةٍ تقام فيها ولائم، ولم تكن أخشاب الصنوبر أو التنوب تُجرُّ باستمرار في الشوارع مهتزة في موكب طويل من العربات لكي تصبح دعامات سقوفٍ تنوءُ بالذهب المزخرف.

Virgil, Georgic, I:144 .141

كوانحهم كانت محمولة على عمودٍ متشعب في أحد الطرفين، وباستخدام الأغصان المربوطة ببعضها بعضاً وأكوام ورق الشجر المائلة يهيئونها حتى تنلمطر الغزير. هذا هو نوع السقف الذي كانوا يعيشون تحته، ومع ذلك كانت حياتهم خالية من الهموم. تحت سقوف القش عاش الرجال الأحرار، بينما العبودية تسكن بين الرخام والذهب.

أختلف أيضاً في مسألة أخرى مع بوسيدونيوس وهي اعتقاده بأن الأدوات اخترعها في البداية الحكماء. وعلى أساس ذلك فما الذي يمنعه أن يقول أن الفلاسفة هم من:

اكتشفوا بعدها طرق صيد الحيوانات،

والتقاط الطيور بالصمغ، وإرسال الكلاب في أنحاء الغابة.«142»

إنها فذاذة الإنسانية، وليست حكمتها، التي اكتشفت كل هذه الأشياء. أختلفُ معه مجدداً عندما يقول أن الحكماء هم الذين اكتشفوا تعدينَ الحديد والنحاس (عندما ضربت صاعقة شجرة وخلَّف الحريق سيلاً من المعدن الخام الموجود على سطح التراب). إن من يكتشف شيئاً كهذا هو من يكرس نفسه لهذا النوع من الأشياء. ولا أجده سؤالاً فطناً – كما يقول بوسيدونيوس – إن كان استعمال المطرقة بدأ قبل ملقط الحديد أم بعدها. كلاهما اخترعهما شخص ما ذو عقلٍ نبيه لمّاح، ولكن ليس شخصاً له صفةُ العظمة أو الإلهام. والأمر ذاته ينطبق على كل عمل يتطلب ظهراً محنياً والنظرَ باتجاه الأرض.

142. Virgil, Georgics, I:139-140

الإنسانُ الحكيمُ إذاً يتبع طريقة حياة بسيطة، وليس ثمة مفاجأة في ذلك إذا ما نظرتَ كمْ يتدبرُ لتقليل تعبه في هذا العصر الحديث. إني أسألك، كيف لك أن تبجّل دايدالوس وديوجين[143] في الوقت نفسه؟ قل أي هذين الإنسان تعتبره رجلاً حكيماً؟ الذي اخترع المنشار؟ أم الذي، عندما رأى طفلاً يشرب من الفراغ بين يديه، التقط كأسه من جعبته وكسره أيضاً، مؤنباً نفسه على غبائه وحمله مقتنيات لا تلزم طوال ذلك الوقت؟ ومن ثم أوى إلى جرّةٍ للنوم؟ واليوم، قل لي أيُّ هؤلاء تراه الحكيم: الذي يكتشف طريقة لرشّ عطر الزعفران إلى ارتفاع هائل بأنابيب مخفية، ويملأ القنوات بتيار متدافع من الماء، والذي يبني سقف قاعة المأدبة بألواحٍ قابلةٍ للتبديل بحيث يستطيع أن يغير جو القاعة مع كلّ طبقٍ من الطعام؟ أم الذي يثبت لنفسه وللآخرين أن الطبيعة لا تطالبنا بما هو صعبٌ أو مستعصٍ وأننا نستطيع العيشَ دون عامل الرخام والمهندس، أننا نستطيع أن نكسي أنفسنا من دون الحرير المستورد، وأننا نستطيع أن نحصل على احتياجاتنا العادية لو أننا نرضى بما تقدمه الأرض على سطحها. لو أنهم قبلوا وحسب الاستماع إلى هذا الرجل، لفهم البشر أنهم في غنىً عن الطهاة المحترفين كما هم في غنىً عن العسكر.

ذلك العرق من الرجال الذي وجد الاعتناء بالجسد قضية سهلةً وواضحة، لربما لم يكونوا فلاسفة، ولكنهم كانوا قريبين جداً من الفلسفة. الأشياء الضرورية نحصل عليها بتعب قليل، إنها الفخامات التي تتطلب الشقاء والجهد. اتّبع الطبيعة ولن تشعر بالحاجة للصنّاع. إنها رغبة الطبيعة

143. [دايدالوس للمخترع الأسطوري في الميثولوجيا اليونانية، وتنسبُ إليه شتى الاختراعات الواقعية والخيالية، وديوجين (مر ذكره) الفيلسوف الكلبي الذي عاش أبسط حياة ممكنة في أثينا، رافضاً أعرافها]

الا نشغل أنفسنا بأشياء كهذه. لقد جهزتنا بكل ما نحتاج إليه كي نكون راضين. «ولكن الجسد العاري لا يحتمل البرد»، وماذا يعني ذلك؟ ألا تستطيع جلود الحيوانات البرية والمخلوقات الأخرى أن تقدم لنا حماية أكثر من كافية من البرد؟ أليس صحيحاً أن كثيراً من الناس يغطون أجسادهم بقماش من لحاء النبات، وأن الريش يُحاك إلى بعضه بعضاً ليصبح قماشاً، وأنه وحتى اليوم لم يزل أغلب السكيثيين[144] يرتدون فرو الثعالب والفئران، والتي هي ناعمة الملمس وتصد الرياح؟ هل ستقول لي أيضاً بأن أوائل أي شعبٍ، أياً كان اسمه ومهما علا شأنه، لم ينسجوا ذاتَ زمنٍ قطع القصب ويكسوها بالطين العادي ومن ثم غطّوها بالعشب الأخضر ومواد برية أخرى ليصنعوا سقفاً يقيهم برد الشتاء؟ فينساب المطر على السقف دون أن يسبب أي مشكلة؟ «ولكننا نحتاج سقفاً كثيفاً يقينا حر الشمس في الصيف». وماذا في ذلك؟ ألم تترك لنا العصور السابقة ما يكفي من الملاجئ التي حفرتها أفعال العصور، أو أي سبب آخر قد يتخيله المرء، بحيث أصبحت كهوفاً؟ ومجدداً، أليس صحيحاً أن القبائل التي تسكن الصحراء الأفريقية تتخذ ملجأً في حُفرٍ في الأرض مصنوعة من الطين؟ كما يفعل أناس آخرون غيرهم لا يجدون سوى الأرض الساخنة نفسها مهرباً من درجات الحرارة القاسية جداً؟ لقد أعطت الطبيعة كل الحيوانات طريقاً بسيطاً إلى الحياة، ولم تحرم الإنسان وحده فتجعل عيشه مستحيلاً من دون كل تلك المهارات. الطبيعة لا تطالبنا بشيء عسيرٍ، ولا شيء يحتاج إلى تدبرٍ مؤلم كي تستطيع الحياةُ الاستمرار. لقد ولدنا في العالم والأشياء جاهزة بين أيدينا، نحن الذين

144. [Scythians السيكيثون، قبائل مرتحلة عاشت في سكيثيا: بين شرق أوروبا وروسيا حالياً.]

جعلنا كل شيء صعب المنال عبر احتقارنا لما يأتي بسهولة. الملجأ والملبس ووسائل تدفئة الجسد والطعام كلها أشياء باتت تتطلب جهداً جهيداً اليوم، وكانت مطروحة للتناول ببساطة في السابق، ومجانية للجميع، ويمكن الوصول إليها بجهد بسيط. في كل شيء كان الحدُّ يتوافق مع الحاجة. إننا نحن، وليس أي أحد آخر، الذين جعلنا هذه الأشياء نفسها مكلفة ومنمقة ولا سبيل إليها سوى عبر عدد ضخم من التقنيات المعقدة.

الطبيعة تكفينا كل ما تطلبه منا. البذخ أدار ظهره للطبيعة وصار يستحث نفسه كل يوم أكثر فأكثر وينمو عبر القرون، دافعاً بعقول الناس نحو تطوير الرذائل. أولاً بدأ بالسعي خلف الأشياء غير الجوهرية، ومن ثم خلف الأشياء المؤذية، وأخيراً قام بتسليم العقلِ للجسم وأمرهُ بأن يكون عبداً للجسد مطيعاً له في كل لذاته ونزواته. كلُّ تلك الصنائع التي تسبب الجلبة أو الحركة الفوضوية في المدينة هي من شغل الجسد الذي كان يوماً ما في موقع العبد يُعطى الأوامر، فأصبح الآن السيد ويُحَضَّرُ من أجله كل شيء. هذه هي نقطة بداية ورشات النسج وهندسة البنيان، والمُزكّيات التي يستعملها الطهاة، والحركات الشهوانية التي يؤديها مدرِّسو الرقص، وحتى الأغاني الشهوانية ناقصة الرجولة. ولماذا؟ لأننا أضعنا قوانين الطبيعة التي وضعت للإنسان حداً لرغباته، بحيث لا يسعى إليها إلا عندما تدعو الضرورة لذلك الإشباع. أن ترغب اليوم بما هو كاف وحسب يجعل الناس يظنونك بدائياً وقذراً.

من المذهل يا لوكيليوس كم هو سهل حتى على الرجال العظام أن ينجرفوا بعيداً عن الحقيقة وراء مجرد متعة التعلق بموضوع. أنظر إلى

بوسيدونيوس، وهو في رأيي من أكثر من قدموا للفلسفة، عندما يصف كيف، في المقام الأول، بعض الخيوط تُشبك والأخرى تُنسل من لفيفتها الصوفية الخام. ومن ثم كيف تُشد خيوط السداة بشكل عمودي عبر تعليق الأوزان، وكيف تُجعل اللُحمة (التي تحاك على طرفي قماش السداة القاسي من الجانبين لتجعله أنعم) مضغوطةً وكثيفة باستخدام المِضرَب. وما هو يعلنُ أن الفلاسفة هم الذين اخترعوا فن الحياكة أيضاً، ناسياً أن الفلاسفة كانو قد اختفوا مع وصول هذا النوع المتقدم نسبياً من الحياكة الذي فيه:

السداةُ تُربط بالإطار، ومن ثم خيوطها

تُفرّقُ بالقصب، واللحمة تُثبّت

في المكوك المدبب وتضغط نحو مكانها

بأسنان المشط المحفورة العريضة(١٤٥)

ولربما فكر بطريقة مختلفة لو أنه حظي برؤية مناسج عصرنا هذا التي تنتج ثياباً لا تغطي شيئاً، ثياباً لا تقي حياء المرء ناهيك عن أن تحمي الجسد! ومن ثم ينتقل بحديثه إلى الفلاحين ويقدم وصفاً مفصلاً لكيفية حرث الأرض بالمحراث أول مرة، ومن ثم مرة جديدة كي تسمح الأرض – بعد أن تصبح رخوة – بمزيد من المساحة للجذور كي تنمو، ويصف زرع البذور واقتلاع الحشائش الضارة لمنع النباتات البرية من تخريب المحصول. وكل هذا أيضاً من إنجازات الفلاسفة عنده، كما لو أن

---

145. Ovid, Metamophoses, VI:55 (على ما يبدو أنه اقتباس غير سليم).

المزارعين (الآن وعلى مر العصور) لا يكتشفون يوماً بعد يوم الكثير من الطرق الجديدة لتحسين إنتاج التربة.

ولم تكفه هذه المهن، فيستمرُّ بالحطِّ من شأن الفلاسفة، هذه المرة إلى المخبز، فيقول لنا أننا بدأنا بإنتاج الخبز عبر تقليد الطبيعة. يقول: «القمح يدخل الفم ويُطحنُ بسطح الأسنان القاسي، وكل ما يفلتُ من الطحن يعود باستخدام اللسان للأسنان ليُطحن من جديد، وأخيراً يختلط القمح باللعاب الذي يسمح له أن ينزلق نزولاً في الحلق بسهولة، وعندما يصل إلى المعدة، يُطبخ على حرارة هادئة، ومن ثم يمتصه النظام. وباتخاذ هذه العملية نموذجاً قام أحدٌ ما بوضع حجر خشن فوق آخر ليقلد الأسنان، واحدٌ ثابت والثاني قابل للحركة، ومن ثم يَطحنُ القمح باحتكاك الأحجار مع بعضها بعضاً وتتكرر العملية حتى يصبح طحيناً ناعماً. ومن ثم يَرش عليه الماء ويحركه حتى يصبح عجيناً، ويشكّله على هيئة رغيف. وهذا طُبخ للمرة الأولى في فرن مصنوع من الطين على رماد حار، ومن ثم جاء التطور التدريجي للأفران والأدوات الأخرى التي يمكن التحكم بحرارتها حسب الرغبة». وهكذا حتى كاد بوسيدونيوس يقول أن الفلاسفة اخترعوا صنعة تفصيل الأحذية!

والواقع أن كلَّ هذه الأشياء اكتُشفت فعلاً باستعمال العقل، ولكن ليس بالعقل في صيغته المثالية. لقد اخترعها أناس عاديون، وليس فلاسفة، بنفس الطريقة التي اختُرعت بها القواربُ التي نعبر بها الأنهار والبحار، والتي صُممت أشرعتها لتلتقط هبوب الريح، وتحصد طاقة تيار الماء في دفّة السفينة كي تعدل مسارها حيث تشاء (والفكرة أخذت من

الأسماك، التي تقودُ طريقها باستخدام ذيلها، والذي تكفي حركة بسيطة منه لتغير اتجاه حركة السمكة السريعة). يقول بوسيدونيوس «كلُّ هذه الأشياء اخترعها فيلسوفنا، ولكنها كانت أقل أهمية من أن يُعنى بها بشكل شخصي، ولذلك منح معرفتها لصغار أتباعه». لا، بل الواقع أن هذا النوع من الأشياء لم يخترعه أحد سوى صنف الناس الذين يجعلونه شغلهم الشاغل اليوم. ونحن نعلمُ أن بعض هذه الاختراعات لم تظهر إلا ضمن الذاكرة القريبة، مثل النوافذ الزجاجية التي تسمح بدخول الشمس أو الحمامات المُسخنة بأنابيب مبنية في جدرانها كي تحافظ على الحرارة معتدلة في أعلى أجزاء الحمام وأسفلها. وهل علي أن أذكر البلاط الذي تعجُّ به معابدنا وحتى بيوتنا؟ أو الكتل المستديرة والمصقولة التي نصنع منها الأعمدة ونضع على كاهلها مبانيَ وأروقةً كاملة قادرةً على حمل حشود كبيرة من البشر؟ أو رموز الكتابة المختصرة التي تمكننا من تدوين حتى الخطابات السريعة جداً بحيث تجاري اليدُ سرعة اللسان؟ هذه اختراعات العبيد المتدنين. الفلسفة فوق كل ذلك، فهي لا تدرب يدي المرء: بل هي مُعلمةُ عقول الرجال.

تريد أن تعرف أليس كذلك؟ ما هو الذي اكتشفته الفلسفة، ما هو الذي أنجزته؟ ليست رشاقة حركات الرقص، ولا تنوع الأصوات التي تنتجها الأبواق والمزامير عندما تحول الأنفاس عبر المرور في الآلات إلى نغمات. ولا هي تعمل في تصنيع الأسلحة أو بناء الجدران أو أي شيء مفيد في الحرب. بل إن صوتها للسلام، تدعو به البشرية جمعاء إلى العيش بتناغم. وليست، وأصر على ذلك، مُصنِّعة المعدات اللازمة للاحتياجات اليومية الضرورية. لماذا نجعلها مسؤولة عن مثل هذه الأشياء الوضيعة؟

تستطيع أن ترى فيها صانعةً فن الحياة بحد ذاته. ولها فعلاً سلطة على كل الفنون: فالنشاطات التي تخدم الحياة بالمصنوعات هي خدمٌ أيضاً بالضرورة لدى من تقوم الحياةُ كلها على خدمتها: الفلسفة تجعل هدفها حالةَ السعادة. هذا هو الاتجاه الذي تفتحُ الفلسفة طرقه وتقودنا فيه، فترينا ما هو الشرّ الحقيقي وما هو مجرد شرورٍ ظاهرية. وتعري عقول الرجال من التفكير الفارغ، وتمنحنا عظمة راسخة، وتقمعُ العظمة المنتفخة بالاستعراض الفارغ، فتضمن لنا ألا نقع في الشك بين ما هو عظيمٌ وما هو مُنتفخ. وتعطينا معرفةً عن الطبيعة بأسرها، وعن ذاتها هي أيضاً. تشرح لنا ما هي الآلهة، وما هي طبيعتها...»[146]

يقول بوسيدونيوس: «إن أناكريسيس[147] اكتشف عجلة صنع الفخّار، والتي تشكل حركتها الدائرية الجرار الطينية». وبما أن عجلة الفخار مذكورة في شعر هوميروس، فيريدنا أن نصدق أن المقطع الموجود لدى هوميروس هو المزيف، وليس قصّتُه. وأنا أقول أن أناكريسيس ليس صاحب الاختراع، وحتى لو كان صاحبه، فقد اكتشفه كفيلسوف، أجل، ولكن ليس عبر استعمال قدراته كفيلسوف، تماماً كما يفعلُ الفلاسفة الكثير من الأشياء من دون استعمال قدراتهم كفلاسفة. افترض على سبيل المثال أن فيلسوفاً كان هو العدّاء الأول، سوف يفوز بسباق بسبب قدرته على الركض، وليس لأنه فيلسوف. كنتُ أودُّ لو أعرض على

146. تم حذف حوالي 17 سطراً (من 28 إلى 30، يبدو فيها أن سينيكا يدعي بأن للفلسفة معرفة كاملة ويقينية حول حقيقة الأمور الدينية أو الكونية)

147. أناكريسيس (Anachrisis) أحد من يسمون الحكماء القدماء السبعة، عاش في القرن السادس قبل الميلاد. يبدو أنه بشّر بالحياة البسيطة التي اعتنقها الكلبيون لاحقاً، وأنه أُعدم لمحاولته إدخال الطقوس الدينية اليونانية إلى بلاده سكيثيا (جنوب روسيا حالياً).

بوسيدونيوس صانع الزجاج وهو ينفخ بأنفاسه أوانيَ متنوعة لا تقدر على صنعها أمهر الأيدي، وهذه اكتشافات كلها ظهرت بعد اختفاء الحكماء.

ويقول: «يروى أن ديموقريطس هو الذي اكتشف قوس القنطرة، وفكرتُها هي ضمُّ خطٍ منحنٍ من الأحجار المثبتة في زوايا مختلفة قليلاً عن بعضها بعضاً إلى الحجر الذي هو واسطة عقد القوس». وهذا طبعاً غير حقيقي أبداً، إذْ لا بد أن الجسور والبوابات وجدت قبل زمن ديموقريطس، والجزء الأعلى منها غالباً ما يكون له انحناءة. ويبدو أنه قد أفلت من ذاكرتك يا بوسيدونيوس أن ديموقريطس نفسه اكتشف طريقة لجعل العاج أكثر طراوة، وطريقة لتحويل الأحجار الصغيرة إلى «زمرد» عبر غليها، وهي طريقة لم تزل مستخدمة اليوم لتلوين أحجارٍ معينة. قد تكون هذا التقنياتُ ترجعُ إلى فيلسوف فعلاً، ولكن ليس عبر قدراته كفيلسوف، لأننا نرى أيدي أشخاصٍ، لا حكمة عندهم على الإطلاق، تصنع أشياء بالجودة نفسها، بل بمهارة ودقة أعلى.

ما الذي حقَّق فيه الفيلسوف؟ ما الذي كشفه للنور؟ في المقام الأول، الحقيقة والطبيعة (لأنه على عكس بقية عالم الحيوان اتَّبع الطبيعة باستعمال ما هو أكثر من عينيه، والعيونُ بطيئة في استيعاب الألوهة). وثانياً، قاعدة للحياة، تناغِمُ الحياة مع الأشياء الكونية. وعلّمنا لا أن نعترف بالآلهة وحسب بل أن نُطيعها، وأن نتقبلَ كل ما يحصلُ تماماً كما لو أنه أمرٌ من الأعلى. لقد علمنا ألا نستمع إلى الآراء الفاسدة، وأن نزن كل شيء ونقيمه حسب معايير حقيقية. لقد أدان الرغبات التي تحتوي الندم جزءاً لا ينفصل عنها، ومدحَ الأشياء الجيدة التي سوف ترضينا دائماً. وأمامَ

مرأى الجميع، جعلَ الإنسان الذي لا يحتاج الحظ الرجلَ الأكثر حظاً من بين الجميع، والرجلَ الذي هو سيدُ نفسه سيِّدَ الكل.

الفلسفة التي أتحدث عنها ليست التي[148] تُخرج الإنسان من الحياة العامة، والآلهةَ من العالم الذي نعيش فيه، وتُسلم الأخلاق إلى اللذة، لا بل هي الفلسفة التي لا تعتبر شيئاً جيداً إلا إذا كان مُشرفاً، وهي منيعةٌ عن الإغواء بعطايا البشر والأقدار، وقيمتها النفيسة بحد ذاتها تكمن في أنها لا يمكن أن تُشترى بأي ثمن. ولا أؤمن أن هذه الفلسفة كانت موجودةً في الحقبة البدائية عندما كانت القدرات التقنية لم تزل مجهولة وكانت المعرفة المفيدة تتأتى عبر التجربة العملية، أو أنها تأتي من عصرٍ كان سعيداً، عصرٍ كانت فيه عطايا الطبيعة متوفرة بالمجان للجميع من دون استثناء قبل أن يقسمَ الجشع والبذخ البشر ويجعلانهم يتخلون عن شراكتهم من أجل النهب. إن رجال تلك الحقبة لم يكونوا فلاسفة، حتى لو تصرفوا كما يليق بالفلاسفة أن يتصرفوا.[149] ليس هنالك حالٌ أخرى من الحياة البشرية تستحق تقديراً أكبر من الذي تستحقه هذه. لو أن الإله سمح لإنسانٍ أن يهيئَ الأشياء على هذه الأرض ويمنح أهلها عاداتهم الاجتماعية، فإن هذا الإنسان لن يرضى بأي نظام آخر غير الذي تقول التقاليد أنه كان موجوداً في حقبة أولئك البشر، الذين بينهم...

لم يخطط الفلاحون الحقول المحروثة

ورسم خطوط الحدود التي تقسم الأرض

---

148. يقصد مدرسة الفلسفة الأبيقورية.

149. أي 'حسب ما تملي الطبيعة'.

بين مالكيها كانت خطيئة، الرجال تشاركوا
في ما يجلونه، والأرض نفسها منحتهم للملك
كل الأشياء بسخاء دون أن يطلبوا."[150]

اي عرق من الرجال أكثر حظاً منهم؟ بالتشارك تمتعوا بالطبيعة. الطبيعةُ رأت لدى كل رجل حاجات للبقاء على قيد الحياة كما يرى الأب او الأم. وما عناه ذلك هو ملكية غير متنازع عليها تعودُ للمجتمع كله. أستطيع ان أقول أن عرق الرجال هذا عرقٌ لا يضاهى في ثروته، إذْ يستحيل أن ترى متسولاً فيه.

في هذه الحالة المثالية انفجر الجشع، الجشعُ الذي يسعى إلى تخبئة شيء ما والاحتفاظ به لنفسه، فلم ينجح سوى في أن يجعل كل شيء آخر ملكية احد آخر وقلّص ملكيته هو إلى جزء بسيط من الثروة اللامتناهية التي كانت سابقاً. الجشع أتى بالفقر، لأنه باشتهاء كل الممتلكات خسرَ كلَّ ما كان يملك. ولهذا السبب، وعلى الرغم من أنه قد يجتهد لتعويض خساراته، ويستحوذ ملكية إثر ملكية بالشراء أو بإرغام جيرانه، ويوسع أراضيه حتى تشمل مقاطعات بحالها، فلا يزال يقول أن 'عنده بعض الأملاك' بينما يستطيع فعلياً أن يسافر رحلات طويلة عبر البحار من دون أن يغادر ملكياته: ليس هنالك حد معينٌ نصل إليه يعيدنا إلى نقطة البداية، فإننا حتى إذا بذلنا كل جهدنا فسوف نملك الكثير، ولكننا يوماً ما كنا نملك العالم.

150. Virgil, Georgics, I:125-128.

الأرض نفسها، دون حرث، كانت أكثر إنتاجاً، وكانت محاصيلها أكثر من كافية لاحتياجات الناس الذين لا يغزون بعضهم بعضاً. و كلّما وهبت الطبيعة شيئاً للناس وجد الناسُ متعة في تعريف الآخرين بما اكتشفوه بقدر متعتهم باكتشافه. لا أحد كان يستطيع أن يتفوق على أحد او ان يتفوق عليه أحد. كان كل شيء مقسماً بتساوٍ بين أناس يعيشون في تناغمٍ تام. ما كان الأقوياء قد بدؤوا بمدِّ قبضتهم نحو الضعفاء، وما كان الشخص الجشعُ قد بدأ بتخبئة المقتنيات لنفسه، كي يكتنزها لاستعماله الخاص مانعاً بذلك الإنسان الآخر من ضروريات الحياة، والكل كان يهتم بالآخر كما يهتم بنفسه. الأسلحة كانت غير مستعملة، وكانت الأيدي لما تزل غير متسخة بدماء البشر ونصلها يستعمل حصراً مع الوحوش البرية.

كانوا يتّقون الشمس في أكواخ من الخشب السميك، ويعيشون في مسكن عادي جداً تحت سقف من ورق الشجر يقيهم شرور الشتاء والمطر: أولئك الناس قضوا ليالي مطمئنة دون تنهيدة انزعاج واحدة. ونحن في رفاهيتنا الملونة نرتمي ونتقلَّبُ قلقين، تطعننا اهتماماتٌ واخزة. أي نوم مريح منحته الأرض القاسية لأولئك البشر! لم يكن عندهم سقوف محفورة أو مكسيةٌ فوقهم. كانوا يستلقون في العراء، وتسري النجوم فوقهم بينما تدفع السماءُ نحو الأمام بحركة الخلق العظيمة وتقطع رحلتها العفوية إلى ما دون خط الأفق المرسوم على جسد الليل البديع. فكانت أنبلُ الإطلالات متاحة لهم في الليل والنهار، مستمتعين بلذة الفرجة على كوكبات النجوم تنزلق من على قمة السماء، وأخرى غيرها، كانت مختفية، تبزغُ من تحت الأفق لترتقي وتأخذ مكانها. لا بد وأنها

كانت منعة أن يجوب الإنسان الأرض منعماً بالروائع الملقاة في كل جانب من حوله. أما أنت الآن وبعكس ذلك، بصفرُ وجهك من أي صوت يصدرُ في بيتك، وإن كان ما سمعته صريراً ما من خشب الأرض فستركض مذعوراً في ممراتك المزخرفة بالجداريات. هؤلاء الناس لم يكن عندهم قصور بحجم البلدات. الهواءُ العليل والنسمات الطليقة في الفراغ المفتوح، والظل العفوي لشجرة أو حجر، والينابيع ذات النقاء الكريستالي، والجداول التي تجري كما تشاء في قنواتها الطبيعية قبل أن تلوثها أعمال الإنسان بالأنابيب أو آلاتٍ أخرى، ومروجٌ جمالها لا يدين بشيء لفن الإنسان: هذه كانت البيئة التي تحيط بأماكن عيشهم في الريف، مساكنُ تُزيَّن بلمسات الريفيين البسيطة. كان هذا منزلاً متوائماً مع الطبيعة، منزلاً يستمتع المرء بالحياة فيه، فلا يخاف منه ولا عليه، بينما بيوتنا اليوم تتسببُ بقسم كبير من مخاوفنا.

مهما كانت الحياة التي عاشوها جميلة وعفوية، لم يكونوا حكماء، فهذا اللقب محصورٌ بأرقى الإنجازات جميعاً. على أي حال، فأنا آخرُ من سينكر عليهم أنهم كانوا بشراً ذوي روح راقية، وليسوا بعيدين سوى خطوة واحدة، إن صحَّ التعبير، عن أن يكونوا آلهة. لا يمكنُ الجدل بأن هذه الأرض، قبل أن تهترئ، قد أنتجت ذرية أصلح حالاً. ولكن على الرغم من أنهم جميعاً امتلكوا شخصية أكثر صلابة من الموجودة اليوم وذات قدرة أعظم على العمل الشاق، فمن الحقيقي بنفس الطريقة أن شخصياتهم لم ترقَ إلى الكمال الحقيقي. لأن الطبيعة لا تعطي الإنسان الفضيلة: إن التحول إلى رجل جيد فنٌ. من الحقيقي أنهم لم يبحثوا عن الذهب والفضة والأحجار الكريستالية في أبعد بقاع الأرض. وكانوا لا

يزالون رحيمين حتى مع الحيوانات الغبية. كان الإنسانُ بعيداً جداً عن ان يقتل الإنسان، لا بسبب الاستفزاز أو الخوف وحسب، ولا من أجل العرض والمتعة. ما كانوا يرتدون ثياباً مطرزة بعدُ، وكانوا لمّا يحصلوا على أثواب مرزركشة بالذهب، ولا حتى قاموا بتعدين الذهب. ولكن الحقيقة على الرغم من ذلك هي أن براءتهم كانت بسبب جهلهم وليس لأي سبب آخر. هنالك فرق شاسع بين أن تختار عدم فعل الخطأ من جانب وألا تعرف كيف تفعل الخطأ أصلاً من جانبٍ آخر. كانت تنقصهم الفضائل الجوهرية: العدالة والرؤية الأخلاقية وضبط النفس والشجاعة. كانت هنالك صفات مقابلة ليست بعيدة عن كل واحدة من هذه الصفات، وكان لها مكانةٌ في حياتهم البدائية، ولكن الفضيلة لا تأتي إلا إلى الشخصية التي عُلِّمت ودُرِّبت بعناية شاملة وقِيدَت نحو لمعة من الكمال عبر التدريب المتواصل. نحن نولدُ من أجلها، ولكننا لا نولد حامليها. حتى في أفضل الناس، فقبل أن تنمي الفضيلة لن تجد سوى خامتها، وليس الفضيلة نفسها.

الرسالة (XXV)

«حريق ليون، وتقبل الفناء»

صديقي ليبراليس قلقٌ بعض الشيء في الوقت الحالي بعد أن وصلت أخبار دمار احتراق مدينة ليون بأكملها. إنها كارثة قد تهزُّ أي إنسان، ناهيك عن شخص مخلص عاشقٍ لبلدته الأم. هذا الحدث جعله يتوجه نحو صلابة الروح تلك التي طورها – بشكل طبيعي – عندما اضطر إلى مواجهة ما كان يراه مخاوف ممكنة. ولكن من الطبيعي عدم وجود أي توقعات مسبقة لمثل هذه الكارثة غير المعهودة، إذ لا سوابق لها: الكثير من المدن عانت من أضرار الحرائق، ولكن إحداها لم تُمحَ بالكامل بفعل حريق. حتى عندما تشتعل أبنيتها بفعل أيدي الأعداء فإن اللهب ينخمدُ في العديد من المواضع، وحتى إذا أُعيد إضرامها باستمرار فهي نادراً ما تأكل كل شيء بحيث لا تترك ما تحطمه الأدوات. الهزات الأرضية، أيضاً، نادراً ما كانت مدمرة وعنيفة حد أن تسحق مدناً بأكملها. وفي الواقع ما وقعَ من قبلُ حريقٌ واحدٌ قط لم يترك وراءه شيئاً يأكله حريقٌ آخرُ بعده. ولكن في هذه الحالة فإن ليلة واحدة قد دمرت كوكبة من الروائع المعمارية، كلٌّ واحد منها قادرٌ بذاته على أن يكون فخر مدينة

باسرها. في خضم السلام جاءت ضربة ما كان أحد يتوقع مثيلتها حتى في الحرب. من يصدق ذلك؟ في الوقت الذي يُعلّق فيه الصراع الحربي في كل مكان، والسلم يملأ أرجاء العالم، فإن ليون، جوهرة الغال، قد ضاعت بالكامل. دائماً ما تمنحُ الأقدار لمن تضربهم فرصةً ليترقبوا القادم ويخافوه، فسقوطُ أي شيء عظيم يتطلب وقتاً في العادة، ولكن هنا كانت ليلةٌ واحدة هي الفرق بين مدينة جبارة... ولا مدينة على الإطلاق، بل إنها تدمرت في واقع الأمر في وقتٍ أقل من الوقتِ الذي أصفُ فيه دمارها لك.

على الرغم من عزيمته ورباطة جأشه في مواجهة مصاعبه الخاصة، فإن صديقنا ليبراليس صُدم عميقاً بالأمر، وعنده بعض السبب في اختلال توازنه. ما هو غير متوقع يكون تأثيره أكثر تحطيماً، وعدم التوقُّعِ يضيف إلى ثقل الفاجعة. لم يحصل أنَّ قلة بصيرةِ امرئ قد قللت من أساه. هذا سبب يجعلنا نتوثق من ألا يأخذنا شيءٌ على حين غرة. يجب أن ندفع بأفكارنا أمامنا عند كل منعرج ونضع في عقلنا كل إمكانية، بدلاً من التفكير بمجرد المسار المعتاد للأحداث. إذ عن أيّ شيء تتوانى الأقدار عندما تقررُ أنْ يسقط شيءٌ ما من علياء جبروته؟ وأيُّ شيء لا تبالغُ من اعتدائها عليه كلما زاد ألقه وجاذبيته؟ اعتداءاتها لا تأتي دوماً عبر طريق واحد، ولا حتى عبر طريق واضح جيداً. أحياناً تستدعي أيدينا نحنُ أنفسنا كي تهاجمنا، وأحياناً ترضى باستخدام قدراتها الخاصة لتخترع لنا أخطاراً ليست ذنب أحد. وما من لحظة تسلمُ من ذلك: في خضم اللذات تجد ينابيع المعاناة. في وسط السلم تطلُ الحرب برأسها، والمتاريس التي تحمي المرء تتحول إلى مصادر قلق، الصديق يصير خصماً والحليف يصير

عدواً هدوء الصيف تقلقه عواصفُ مفاجئة أعنف من مثيلاتها في الشتاء. وفي غياب أي عدو فإننا نعاني من كل ما يستطيع العدو أن يفعله بنا. والازدهار الفائض عن حده، إن لم يوقفه شيء، يخترعُ أدواتَ دماره. المرضُ يصيبُ حتى من يعيشون الحيوات الأكثر عقلانية، والسلُّ يصيب الناس ذوي الأجساد الأقوى، والانتقامُ يستهدفُ البريئين، والعنفُ الأكثرَ انعزالاً. للأقدار طريقتها في اختيار وسيلة ما غير مسبوقة لممارسة قوتها على من نسوا وجودها. يومٌ واحدٌ يبدد كل ما أنشأه إعمارٌ متتابع على مر وقتٍ طويل من الزمان وتطلَّبَ عدداً كبيراً من الأعمال المنفصلة وحُسنَ الطالع الوفير من السماء. أن نقول «يوم» مبالغة كبيرة في وصف الكوارث التي تتسارع واثبة نحونا: ساعة، بل لحظة من الزمن تكفي لإسقاط إمبراطوريات. لكان مريحاً بعض الشيء لحالتنا وقلة حيلتنا لو أن كل الأشياء تذوي بالبطء الذي تأتي به إلى الوجود: ولكن والحال كما هي، فالنمو كسولٌ والدمار خاطف.

لا شيء باقٍ، سواء للفرد أو للمجتمع، أقدارُ الرجال والمدن تنجرف سوياً نحو الأمام. الذعر يضرب في خضم الوسط الأكثر سكينة. وتندفع الكوارث من الزاوية الأقل توقعاً من دون أي جلبة تنبهنا. الدول التي صمدت في الحروب الأهلية كما في الخارجية تنهارُ فجأة من دون أن ترتفع يدٌ ضدها. كم هي قليلة الأمم التي جعلت ازدهارها حالةً باقية! لهذا نحتاج إلى تخيل كل احتمال وأن نقوي الروح كي تتعامل مع الأشياء التي يمكن أن تحصل. تمرَّنْ عليها في عقلك: النفي، التعذيب، الحرب، دمار السفن. قد ينتزعك سوء الحظ من بلدك، أو ينتزع بلدك منك، قد ينفيك في البرية – هذه الأماكن نفسها التي تكتظُّ بجموع البشر قد تصبح عراءً.

يجبُ أن نرى كل إمكانيات حظنا البشري ماثلةً أمام عيوننا. يجب أن نتوقع لا كل ما يحدث في العادة وحسب، بل كل ما هو قابلٌ لأن يحدث.

إن كنا لا نريد أن نُفاجأ ونُصعق بالأحداث النادرة وكأنها غير مسبوقة فعلينا تأمل الأقدار بشكل شامل وعميق. فكرْ كم مرةً سقطت بلداتٌ في آسيا أو في اليونان بهزة أرضية واحدة، وكم ابتُلِعت قرىً في سوريا ومقدونيا، وكم مرة عاثَت هذه الكوارث خرابها في قبرص، فتهاوت مدينتها بافوس على نفسها غير مرة! يوماً بعد يوم نسمع أخبار مدينة أُبيدت بأكملها، ولكن كم هو صغيرٌ عددنا في العالم الذي تصله هذه الأخبار بهذه الكثرة! دعنا إذاً نواجه ضربات الأقدار ونستوعب أن مهما كان الذي حصل فهو لا يكون أبداً بالجدية التي تصوره بها الشائعات.

إذاً فقد احترقت مدينة، مدينة ثريةٌ وهي فخرُ المقاطعات التي تنتمي إليها على الرغم من منزلتها الخاصة دونهن، فقد كانت متربعةً على تلة وحيدة وليست تلة ذات أبعادٍ ضخمة.[151] ولكن الزمن سوف يكنسُ آثار كل واحدة من تلك المدن التي تسمع اليوم عن جلالها وروعتها. انظر كيف تقوضت أساسات المدن اليونانية التي كانت مشهورة يوماً ما حتى ما بقي ما يدلُّ على أنها كانت موجودة. وليست الأيدي البشرية هي الوحيدة التي تهدم، ولا وحدها المباني التي تشيدها الأيدي البشرية هي التي يهدمها مرور الزمن. سلاسلُ الجبال تتهاوى، ومناطقُ بأكملها

151. [تمتعت ليون بنفوذ خاص في الغال، فهي تتربع على ملتقى نهرين، وتصك عملتها، وتذكير سينيكا (الذي يكتبُ هذا الكلام من معتزله الأخير للحياة السياسية هرباً من بطش نيرون) بتموضعها فوق هضبة ليس إلا تورية للإشارة إلى روما التي تدعى 'مدينة الهضاب السبع'، كما سيشير بعد قليل إلى أن الأقدار نفسها قادرة على أن تطال الإمبراطور والإمبراطورية، ويذكر باحتلال روما سابقاً.]

مطمئن وغطت الأمواج نقاطَ علّامٍ كانت يوماً ما بعيدة عن مرأى البحر. القوة الرهيبة لنار البراكين والتي تمنح قمم الجبال بريقها قد أكلتها وتركتها بقاماتٍ قصيرة بعد أن كانت قمماً شاهقة ومناراتٍ تطمئن البحارة. أعمال الطبيعة نفسها تعاني، فمن العدل وحسب إذاً أن نتحمل سقوط المدن بتسليم. فهي لا تقف إلا كي تسقط. هذا ما ينتظرها في نهاية المطاف، سواءٌ أكان انفجاراً تحت الأرض يرمي الثقل الذي فوقه، أم عنف فيضان المياه تحت الأرض حتى تحطم كل ما في طريقها، أو انفجاراً بركانياً يكسر قشة الأرض، أو العمر (ولا شيء حصينٌ منه) الذي يتجاوزها رويداً رويداً، أو الوباءُ الذي يقضي على سكانها ويسببُ خراب المنطقة المهجورة. من المملّ تعداد كل الطرق التي قد يتخذها القدر في التدمير. ولكنني أعرف شيئاً واحداً: كل أعمال البشر الفانين تخضع تحت حكم الفناء، نحن نعيش بين أشياء محكومة بالاندثار.

هذه إذاً هي التأملاتُ المواسية التي أقدمها لصديقنا ليبراليس، والذي تشتعل بداخله محبة لا تهدأ لمسقط رأسه، ولكنها ربما تدمرت كي ينهض فيها شيءٌ أرقى، فلطالما مهدت العقبات الطريق نحو الازدهار العظيم. الكثير من الأشياء لم تسقط إلا كي ترتقي إلى مرتفعات مجيدة. إن تيماجينيس، الذي يحقدُ على ثراء العاصمة، كان يقول أن الشيء الوحيد الذي يقلقه من الحرائق هو يقينه بأنها سوف تؤدي إلى أبنيةٍ أفضل من التي احترقت. في مدينة ليون أيضاً، يفترض المرء أن الجميع سوف يجتهد في الترميم لتكون إنجازاً أعظم وأنبل مما كان. عسى أن يكون لذلك العمل عمرٌ يبقى على الزمان، وعسى أن تحرس الأساس الجديد طوالعُ ميمونةٌ أكثر سعادة تحفظهُ وقتاً أطول بل لربما طوال الزمان! هذا هو العام المئة منذ

ولادة المدينة، وحتى حد الإنسان فهذا العمر بالكاد حلّه الأقصى. أسسها بلانكوس[152] في منطقة محتشدة بالسكان: ولكن كم ضربةٍ عاتية تحملت خلال عمر إنسان!

لذلك يجب تدريب الروح على استيعاب حظها وتقبله. يجب أن ترى أن الأقدار لن تتوانى عن شيء، وأنها تملك السلطة نفسها على الإمبراطور والإمبراطورية كليهما، وتمارس هذه السلطة نفسها على المدن كما على البشر. ليس ثمة مسوغ للحقد في كل هذا. لقد دخلنا إلى عالم تمضي فيه الحياة تحت هذه الشروط. إن كنت راضياً بذلك فاخضع لها، وإن لم تكن كذلك فاخرج، من أي طريق يرضيك. طبعاً عليك أن تزدري الظّلمَ الذي يساق ضدك شخصياً، ولكن ما دام هذا الشرط ملزماً للأعلى والأدنى على قدم سواء، فعِش في سلام مع قدرك، القدرِ الذي يحلُّ عُرى كل الروابط. ما من مبررٍ لاستعمالنا قبورنا وأنواع الأضرحة المتنوعة التي نراها على قارعة الطريق مقاييسَ لقاماتنا: كل الناس متساوون في الرماد. نحن نولد غير متساوين، ونموت متساوين. وكلماتي تنطبق على المدن بقدر ما تنطبق على الذين يعيشون فيها. أرديا[153] احتُلَّت، وكذلك روما. إن واضع القوانين العظيم لا يرى فروقاً بيننا حسب مولدنا أو شهرة أسمائنا، إلا لربما خلال حياتنا. أما عند الوصول إلى نهاية الفناء فهو يعلن: «أزيلوا هذه الخيلاء، كل ما تحمله الأرض سوف يخضع الآن لقانون واحد من دون استثناء». ما نُجبَرُ جميعاً على المرور به، به نتساوى. لا أحد

---

152. Lucius Munatius Plancus جنرال مميز، وحاكم مقاطعة، وقنصل في 42 ق.م.
153. Ardea بلدةٌ في منطقة منخفضة غير بعيدة عن روما.

يتم حرمانه من رفيقه، ولا أحد يستطيع أن يكون واثقاً أكثر من غيره من بقائه حياً في الغد.

درس الإسكندر ملك مقدونيا ذات مرة علم الهندسة، الرجل المسكين، لقد عرف كم هي صغيرةٌ الأرض حقاً، تلك الأرض التي ملك منها قسماً ضئيلاً، أجل إنه لمسكين، لأنه لا بد اكتشف أن لقبه مزيف، فمن يستطيع أن يكون «العظيم» في منطقة ضئيلة الأبعاد؟ على أي حال، المسائل التي كان يتعلمها كانت تحتاج الدقة وتتطلب الاستغراق والإمعان، وليست من نوع الأشياء الذي يمكن أن يفهمه شخص مجنون يلقي بأفكاره وراء البحار. قال: «علمني الأشياء السهلة» وعندها أجابه معلمه: «هذه الأشياء متساوية للجميع، فهي صعبة بالقدر نفسه على الكل». حسنٌ، تخيل أن الطبيعة تقول لك «هذه الأشياء التي تتذمر منها متساوية للجميع. لا أستطيع أن أعطي أحداً شيئاً أسهل. ولكن أي أحد يشاء يستطيع أن يجعلها سهلةً على نفسه». كيف؟ بالنظر إليها بسكينة متوازنة.

لا بد لك أن تختبر الألم والجوع والعطش وأن تشيخ (إذا افترضنا أنك ضامنٌ بقاءك طويلاً بين الأحياء) وأن تمرض، وأن تعاني الخسارة، وأن ترحل في النهاية. ولكنك لست مضطراً لتصديق ثرثرة الناس حولك: ليس في هذه الأشياء ما هو شرير، أو غير قابل للتخفيف، أو حتى صعب. هؤلاء الناس يخافونها بسبب اتفاق رأيهم فيها. هل ستخافُ من الموت إذاً كما يمكن أن تخاف من حكايةٍ يقولها أحدٌ ما؟ أي شيء أكثر غباءً من رجلٍ يخاف كلمات الناس؟ صديقي ديميتريوس يعبر عن ذلك ببلاغةٍ

لطيفة حين يقول، كما يكرر عادةً: «كلامُ غير المتنورين كأصوات قرقعة معدتهم»، ويسأل: «أي فرق عندي إذا تذمروا من فوق أو من تحت؟»

أي غباء محض أن تخاف من أن يسلبك أصحاب السمعة السيئة اسمك الحسن؟ فكما أن خوفك من خبرٍ ما قد يتبينُ أنه غير صحيح، فكذلك الخوف من الأشياء التي لا سبب للخوف منها سوى الرأي العام. أي أذىً قد يصيب شخصاً إذا تلطخت سمعته بالثرثرة الفارغة؟ يجب ألا نسمح لها حتى أن تجعلنا نكره الموت، وهو نفسهُ صاحب سمعةٍ سيئة، ولكن لا أحد من الذين يشهِّرون به قد اختبره حقاً، فمن العجلة إدانته إذاً من دون معرفة شيء عنه، وقبل اختباره فعلاً. ولكن هنالك شيءٌ واحداً تعرفه وهو التالي: كم هو كبير عدد الناس الذين يكون الموتُ نعمةً لهم، كم من الناس يحررهم من العذاب والحاجة والمرض والمعاناة والإرهاق. ولا أحدَ يملكُ سلطة علينا ما دام الموت ضمن سلطتنا.

الرسالة (XXXVI)

«العناية بالصحة والسفر»

لقد هربت إلى بيتي في نومينتوم[154] - هربت من ماذا؟ احزر. المدينة؟ لا، بل حمى. وبالضبط خلال مداهمتها دفاعاتي أيضاً، فقد تمكنت مني أصلاً وحزم طبيبي رأيه بأن النبض المضطرب على غير إيقاعه الطبيعي بداية الحمى. حينها أمرت فوراً بتجهيز عربتي، وعلى الرغم من أن باولينا حاولت ثنيي، أصرّيت على الركوب بعيداً. ظللت أكرر كلمات معلمي جاليو حين بدأ يصاب بالحمى في أكايا. ركب سفينةً على الفور، وأكد للجميع أن المرض سببه مكان إقامته وليس بنيته. قلت ذلك لباولينا. إنها لا تتوقف عن مطالبتي بالاعتناء بصحتي، وفي الواقع، بعد أن استوعبت أن عافيتها نفسها تعتمدُ على صحتي، فقد بدأتُ بإيلاء بعض الاهتمام بنفسي. ولذلك، على الرغم من أن العمر الكبير جعلني أفضل في تحمل الكثير من الأمور، فها أنا أفقدُ أفضلية العمر المتقدم. يخطر لي أنَّ داخل هذا الإطار العتيق يوجد رجلٌ يافعٌ، والإنسان يكون أقل قوة في شبابه.

154. مينتانا حالياً، في أيطاليا الوسطى، حيث امتلك سينيكا مزارع عنب مشهورة بإنتاجها.

وحصيلة الأمر أنني عندما أخفقت في إقناعها بالمزيد من الشجاعة في حبها لي، فقد نجَحَتْ هيَ في جعلي أزيد من الحب والاهتمام بنفسي.

إذْ لا بد من التنازلات أمام المشاعر الصادقة. ثمة أوقاتٌ على المرء فيها – مهما كانت دواعيه ملحة – أن يبتلعَ نفس موته الأخير مجدداً إلى فمه ويقفل شفتيه بإحكام، حتى لو أن هذا باتَ تعذيباً، ببساطةٍ مراعاةً لأحبَّاء المرء. الرجل الجيد يجب أن يستمر بالحياة بالقدر الذي يتوجب عليه، وليس بقدر ما يحب فقط. إن الرجل الذي لا يقدّر زوجته أو صديقه بما يكفي ليبقى حياً أكثر قليلاً، الذي يصر على الموت رغماً عنهما، هو شخصية موغلةٌ في إرضاء الذات. إن هذا واجبٌ على الروح أيضاً تفرضه على نفسها حين تطلبهُ ببساطة رغبةُ العزيزين والمُقربين. ليس إذا وعندما شعرت بالرغبة في الموت، بل أيضاً إذا وعندما بدأت تنفذ هذه الأمنية، يجب أنْ تتوقف هنيهةً لتراعي احتياجاتهم.

العودة إلى الحياة كُرمى لروح أخرى علامة روحٍ نبيلة. إنه شيء فعله الرجالُ العظيمون عدداً من المرات. ولكن، أن تعتني بعمرك الكبير بشكل أفضل مستوعباً أن هذا سيسعدُ أحداً من القريبين منك، أو أنه في مصلحتهم، أو ربما يرضيهم (وهذا على الرغم من أن المكافأة الأعظم للشيخوخة هي أنها تمكنك من قلة الاكتراث نسبياً بالاعتناء بنفسك، وتسمحُ لك بأسلوب حياة أكثر مغامرة)... أن تفعل ذلك لهو أيضاً، في فكري، علامة على الإحسان الأرقى الممكن. وعلاوة على ذلك فهو يجلب لك قدراً غير قليل من السعادة والثواب: فهل هناك ما هو أحلى من أن تجد أنك عزيزٌ على زوجتك حدَّ أن تصيرَ أكثر عزةً لدى نفسك؟

ويمكنها تصحيح ميولنا في أن تجعلني مسؤولاً عن قلقي أنا، وعن قلقها على نفسي.

أتوقع أنك متشوقٌ للاستماع إلى تأثير ذلك في صحتي، أقصد قراري المتهورة؟ حسنٌ، ما إن غادرت جو المدينة القمعي ورائحة دخان الأفران التي تتدفق منها حاملةً سحابة الرماد المؤذية حتى بدأت ألاحظ تغيراً في حالتي على الفور. لك أن تتخيل كم شعرت بقوة أكبر عندما وصلت إلى عرائش العنب! وخضت في طعامي ملتهماً إياه، وكأنني أرعى لأول مرة في عشب الربيع! والآن وقد عدت إلى طبيعتي مجدداً، فإن ذلك الشعور بالكسل وعدم الارتياح الجسدي والعقلي كله قد انتهى، وبدأت أنهمك في بعض العمل بكامل قواي.

ولكن هذا ليس شيئاً تسببه البيئة المحيطة وحدها، إلا إذا كان العقل في خلوة نفسه، مستعداً لأن يوفر عزلته الخاصة حتى في اللحظات المزدحمة. بل على العكس، إن الرجل الذي يقضي وقته متنقلاً من منتجعٍ إلى آخر باحثاً عن السلام والهدوء سوف يجدُ في كل مكانٍ يزوره ما يمنعه من الاسترخاء. تقول الحكاية أنَّ شخصاً اشتكى إلى سقراط من أن السفر إلى الخارج ما أفاده في شيء قط، وجاءه الجواب: «وماذا كنت تتوقع؟ فأنت تأخذ نفسك معك في رحلاتك؟» أي نعمة كانت لو أن البشر يستطيعون ببساطة أن يتركوا أنفسهم وراءهم! هؤلاء الناسُ قلقٌ وعبءٌ على أنفسهم، ومصدرٌ لتحطيم المعنويات وللقلق. ماذا يفيدك السفر وراء البحار، وأن تنتقل من مدينة إلى مدينة. إن كنت تود أن تَفلت من الأشياء التي تؤذيك، فما تحتاجه ليس أن تكون في مكان مختلف، بل أن تكون

شخصاً مختلفاً. افترض أنك وصلت إلى أثينا، أو قل إنها رودس - اختر البلد التي تعجبك - فأي فرقٍ تصنعه صفة المكان؟ أنت لن تستورد معك إلا ما أنت عليه. ستبقى تنظر إلى الثروة على أنها شيءٌ له قيمة: وفقرك سيسبب لك العذاب، بينما فقرك (وهذا أكثر ما يثير الشفقة في الموضوع) فقرٌ خيالي. مهما كنت تملك فهنالك من يملك المزيد، وعلى قدرِ هذا المزيد ستحسبُ نفسك منقوصاً الأشياء التي تحتاجها. شيءٌ آخر ستعتبره ذا قيمة وهو النجاح في الحياة العامة، وفي تلك الحالة سوف تستاء عندما ينتخب فلان قنصلاً (بل حتى عندما يُعاد انتخاب فلان)، وستغار كلما رأيت اسم شخصٍ يتكرر كثيراً على لوائح الشرف. سوف يتوقد طموحك باندفاع محموم حتى تجعلك رؤيةُ أي أحد أمامك في السباق تحسبُ أنك الأخير.

الموت سوف تظنّه أسوأ الأشياء، على الرغم من أن لا شيء سيئ فيه سوى ما يأتي قبله: الخوف منه. سوف تصعق خوفاً من الأخطار الوهمية كما الحقيقية، وتطاردك مخاوف خيالية. ماذا يفيدك إذا وجدت طريقاً عبر كل تلك القلاع الأرغوسية واستطعت الهروب عبر خطوط العدو؟"[155]

السلام نفسه سيزرع فيك مخاوف جديدة، فإن كان عقلك قد اختبر سابقاً صدمات الرعب فلن يبقى عندك ثقةٌ حتى في الأشياء الآمنة تماماً. ما إن يعتاد العقل على الذعر بلا تفكير حتى يصبح عاجزاً حتى عن الحفاظ على سلامته. لأنه يهرب من الاخطار بدلاً من أن يتخذ خطوات لتحاشيها، ونحن أكثر عرضةً لها بكثير ما إن ندير ظهرنا لها.

Virgil, Aeneid, III:282-283..155

أن تخسر من تحب ستعتبره أصعب الضربات احتمالاً، بينما في الواقع ذلك بسخف البكاء على سقوط الأوراق من على الأشجار الجميلة لتضيف إلى سحر بيتك. حافظ على حسٍ من التناسق في موقفك نحو كل شيء يسعدك، واستفد واستمتع بأفضل ما تستطيع من وقتك معه ما دام لك. في لحظة ما سوف تحمل الصدفة أحدهم بعيداً، ولكن سقوط الأوراق ليس صعب الاحتمال، لأنها تنمو مجدداً، وليس أصعب من ذلك أن تحتمل خسارة الذين تحبهم وتعتبرهم ينيرون وجودك، لأنهم حتى إن لم ينموا مجدداً فسوف يُستبدلون. «ولكن من يأتون بعدهم لن يكونوا مثلهم أبداً». لا، ولا أنت ستكون مثلك. كل يوم، وكل ساعة يحدثان فيك تغيراً، مع أن أفعال الزمان تبدو أوضح في الآخرين، ولكنها فينا أقل وضوحاً، لأنها ليست أمام عيوننا: الآخرون يُختطفون منا، أما نحن فنُسرق من أنفسنا خلسة.

ألن تعطي أياً من هذه الاعتبارات أي تفكير، ولن تستعمل أبداً علاجاً لجروحك؟ بدلاً من أن تزرع بذور القلق في نفسك وتأمل بهذا، أو تيأس من الحصول على ذاك؟ إن كنت عقلانياً فستفعل الأمرين معاً: فلا تأمل بدون شيء من اليأس، ولا تيأس بدون شيءٍ من الأمل.

أي خيرٍ جلبه السفر بحد ذاته لأي أحد؟ لم يضبط يوماً ما شهوة أحدهم، لم يتحكم في مرةٍ بعصبية رجل غضوب أو يخمد اندفاعات عاشق، بل إنه في الواقع لم يشفِ شخصيةً من ضعفها. لم يمنحنا هبة المحاكمة، ولا وضع نهاية للمواقف الخاطئة. كل ما يفعله هو إلهاؤنا بعض الشيء، عبر جدَّة ما يحيط بنا، كالأطفال المسحورين برؤية شيء لم

يصادفوه من قبل. علاوة على ذلك، فإن عدم اتزان العقل هذا، وهو مسألة خطيرة، يتضاعف بسببه، فالحركة بحد ذاتها تزيد من تقلبه واضطرابه. هذا يفسر لماذا ينطلقُ بعض الناس نحو مكانٍ بحماسةٍ كبيرة، ثم تراهم أكثر تحمساً للابتعاد عنه، مثل الطيور المهاجرة التي لا تتوقف إلا حتى تغادر مجدداً.

السفر سيمنحك معرفة عن البلدان الأخرى، سوف يريك جبالاً ذات خطوط جديدة عليك بالكامل، وامتدادات من السهول غير المعهودة، ووديانا تسقيها الينابيع الدائمة، سوف يسمح لك بتأمل الصفات المميزة لهذا النهر أو ذاك، الطريقةالتي يرتفع بها النيل مثلاً في فيضان الصيف، أو كيف يتوارى دجلة عن الأنظار ومن ثم، عند نهاية رحلته تحت الأرض، يعود للظهور وتدفقه لم ينقص، أو كيف تتلوى تعرجات نهر «مياندر»[156]، وهي الموضوع المفضل لكل شاعر مبتدئ، انحناءً إثر الآخر، ومرةً تلو الأخرى تمضي بعيداً عن سرير النهر ومن ثم تعود إلى مسار مختلف قبل أن تدفق إلى جدولها الخاص. ولكن السفر لن يجعلك رجلاً أفضل أو أكثر عقلاً. هذا شيء نبذل لأجله وقتاً في الدراسة وقراءة أعمال الحكماء، لتتعلم الحقائق التي ظهرت من أبحاثهم، ونتابع نحن أنفسنا البحث عن إجابات لم تكتشف بعد. هذه هي طريقة تحرير الروح التي ما زالت تحتاج إلى الإنقاذ من حالة العبودية التعسة.

بل في الواقع، ما دمت لا تزال جاهلاً ما يجب أن تتوجّه إليه وما يجب أن تتجنبه، ما هو جوهريٌ وما هو سطحي، ما هو سلوك مستقيم

156. Maender نهرٌ في غرب تركيا، يدعى الآن Büyük Menderes.

ومشرف وما هو عكس ذلك، فإن ترحالك لن يكون سفراً بل انجرافاً. كل هذا الهرع من مكان إلى آخر لن يقدم لك الراحة، لأنك تسافر في صحبة مشاعرك الخاصة، وتتبعك مشكلاتك على طول الطريق. ويا ليتها تلحق بك وحسب! إذْ كانت ستبقى وراءك بعض الشيء، ولكنها ليست خلف ظهرك: بل إنك تحملها عليه! ولذلك تثقل عليك بنفس الغيظ المزعج حيثما تحلّ. الطب، وليس بقعة ما من العالم، هو ما يحتاجه رجل مريض. افترض أن شخصاً كسر رجله أو خلع مفصله، فإنه لا يركب في عربة ويسافر في سفينة: بل يدعو طبيباً لتصحيح الكسر أو تصويب الخلع. حسنٌ إذاً، عندما تكون روح المرء ملتوية أو مكسورة في عدة نقاط، فهل تتخيل أنك تستطيع علاجها بتغيير المنظر؟ أتحسبُ ذلك النوع من الضرر ليس جدياً؟ بحيث يمكن معالجته بمجرد التنزه؟

السفر لا يجعل الإنسان طبيباً أو خطيباً: ليس ثمة فنٌ واحد يمكن الحصول عليه عبر الوجود في مكان ما بدلاً من آخر. فهل يمكن للحكمة إذاً، وهي أعظم الفنون على الإطلاق، أن تُلتقط في سياق نزهة؟ ثق بكلامي في هذا الشان، لا توجد رحلة تستطيع أن تبعد عنك الشهوات، أو النزوات أو الغضب، أو المخاوف. لو وجدت لانطلق إليها عرق البشر بأسره. ما دمت تحمل مصادر تعبك معك، ستستمر هذه المتاعب بالتحرش فيك وابتلائك حيثما تجولت على الأرض أو في البحر. هل يفاجئك أن الهروب لا يفيدك في شيء؟ إن الأشياء التي تهرب منها معك طوال الوقت.

ما عليك فعله إذاً هو تغيير أساليبك والتخلص من العبء الذي تحمله. اضبط شهواتك ضمن حدود سليمة، وطهّر كل أثر للشر من شخصيتك. إن أردت الاستمتاع برحلاتك فعليك أن تجعل رفيقك في

السفر رفيقاً جيداً. وما دمت تعاشر شخصاً لئيماً وجشعاً فسوف تبقى شخصاً مهووساً بالمال أنت نفسك. ما دمت تبقى في صحبة متعجرف، فسيدوم التصاق الغرور بك. لن تودّع الوحشية ما دمت تنام تحت نفس السقف مع جلّاد. مصاحبة الزناة لن تزيد رغباتك إلا اشتعالاً. إن كنت تود أن تتجرد من رذائلك فعليك أن تبتعد فوراً عن أمثلتها في الآخرين. البخيل والمحتال والمتنمر والغشاش سوف يؤذونك كثيراً بمجرد أن يكونوا حولك. انتقل إلى صحبة أفضل: عِش مع كاتو أو لايليوس أو توبيرو"''". وإن كان لك مزاج في مصاحبة الإغريق فصادق سقرط وزينون: الأول سيعلمك كيف تموت إن أُجبرت على ذلك، والثاني كيف تموت قبل أن يُفرض عليك ذلك. عِش مع كريسيبوس، عِش مع بوسيدونيوس، سوف يمنحانك معرفة عن الإنسان والكون، سيقولان لك: كنْ فيلسوفاً عملياً، لا أن تُمتِّعَ مستمعيك بكلمات اللغة الذكية، بل أن تُحصِّن روحك وتحضرها ضد أي شيء يتهددها. لأن المرفأ الوحيد الآمن في بحر الحياة الهائج المتقلب هذا هو رفضُ الاكتراث بما سيحمله المستقبل، والوقوف بجاهزية وثقة وصدر مفتوح متقبلاً دون تملصٍ أو ارتعاد أي شيء ترميه الأقدار نحوك.

عندما خلقتنا الطبيعة منحتنا تطلعات نبيلة، وكما أعطت بعض الحيوانات الوحشية، وغيرها الجُبن، وغيرها المكر، كذلك أعطتنا روحاً من الطموح المجيد، روحاً تأخذنا في رحلة للبحث عن حياة – لا آمنة – بل ذات شرف أعظم، روحاً تشبه الكون نفسه، وتتبعه نموذجاً لها بقدر ما تستطيع الخطوات الفانية. إنها ترمي بنفسها نحو الأمام واثقةً من الشرف

---

157. Gaius Laelius Minor لايليوس، سياسي روماني أصبح قنصلاً في 140 ق.م، أحد الأرستقراطيين الذين اعتنقوا المبادئ الرواقية.

Quituns Aelius Tubero توبيرو، رواقي روماني مميز من القرن الأول قبل الميلاد.

والاحترام، هي سيدةُ كل الأشياء وفوق كل الأشياء، وعلى ذلك ينبغي ألا تخضع لشيء، وألا ترى في شيء حملاً يكفي ليحني كتفي رجل.

أشكال ترعب النظر، شقاء وموت"١٥٨"

ليست كذلك على الإطلاق إذا ما استطاع المرء اختراق الظلمة المحيطة والنظر إليها مباشرةً. كثيرةٌ هي الأشياء التي سببت الرعب في الليل وتحولت إلى مواضيع للضحك في الصباح التالي.

أشكال ترعب النظر، شقاء وموت

يقول شاعرنا فرجيل – على وجه حق – بأنها مرعبة، ولكن لا ترعب الواقع، بل «النظر»، بكلمات أخرى تبدو مرعبة ولكنها ليست كذلك في الواقع. ولكن ما هذا الشيء الذي تقول لنا الأساطير أنه مرعب إلى هذا الحد؟ لماذا يا لوكيليوس، أسألك، يجب أن يخاف أي رجل حقيقي من الشقاء أو أي إنسان من الموت؟ ألتقي باستمرارٍ أشخاصاً يظنون أن ما ليس بوسعهم فعله يستحيلُ فعله أصلاً، الذين يقولون أن تحمل الأشياء التي نتحدث عنها نحن الرواقيين أبعد من قدرات الطبيعة البشرية. كم من الرفعة أرى في قدرات هؤلاء الناس، ولا يبدو أنهم قادرون على رؤيتها! إني أراهم قادرين مثل الآخرين على هذه الأمور، ولكنهم لا يفعلون. وفي أي حال: من هو الذي حاول هذه التعاليم فوجدها غير ممكنة؟ من لم يلحظ أنها أسهل بكثير خلال الانهماك بها؟ نحن لا نفقد ثقتنا لأن هذه الأمور صعبة، بل هي صعبة لأننا تنقُصُنا الثقة.

---

158. Aeneid, VI: 277.

إن كنت ما زلت تحتاج مثالاً فخُذ سقراط: رجلٌ عجوزٌ عانى قسطه الكامل من المعاناة، وتلقى كل ضربة استطاعت الحياة توجيهها إليه، وبقيَ غير منهزم لا بالفقر في بيته ولا بالشقاء المستمر كالعذاب الذي لاقاه في خدمته العسكرية. وإلى جانب ما كان مضطراً للتعامل معه في المنزل: من جهة زوجته وطباعها الناشزة ولسانها النكد، أو أبنائه العصاة، الأشبه بأمهم من أبيهم، فقد عاش حياته كلها إما في فترة حرب أو في ظل الطغيان أو في ظل 'ديمقراطية' تفوقُ الحروب والطغاة في فظائعها. دامت الحرب اثنين وعشرين عاماً، وبعد أن انتهى القتال، سُلّمت الدولة إلى رحمة الطغاة الثلاثين، وعددٌ كبير منهم يُعادون سقراط. وجاءت الضربة القاضية باتهامه وإدانته بأفظع الجرائم: اتُّهم بالكفر وإفساد جيل الشباب، وقال من اتهموه أنه ألّبهم للثورة ضد الإله وآبائهم والدولة. بعد ذلك جاء السجن والسمُّ. وكل ذلك كان تأثيره قليلاً على روح سقراط، بل لم يؤثر حتى على تعابير وجهه. أي حكاية إنجازٍ نادرة ورائعة! حتى اللحظة الأخيرة، لم ير أحدٌ سقراط في مزاج من الفرح أو الاكتئاب. في كل صعود وهبوط بقي متزن الطبع في وجه الأقدار.

أتود مثالاً آخر؟ خذ مثال ماركوس كاتو الأقرب عهداً، الذي تهافتت الأقدار عليه بطريقة أكثر شراسة وإمعاناً، فوقفت في طريقه في كل نقطة حتى في النهاية، عند موته، ولكنه أثبت أن الرجل الحر يستطيع أن يعيش متحدياً القدر وأن يموت متحدياً القدر. أمضى عمره إما خلال الحرب الأهلية أو في ظروف تطور الصراع الأهلي. وليس أقل جدارة من سقراط بأن نقول عنه أنه نجا بنفسه من العبودية[159] (إلا إن كنت ربما ترى أنَّ

159. في هذه النقطة غير الواضحة من النص اخترت تبنيث قراءة Serviti se eduxisse التي يقترحها haase.

بومباي وقيصر وكراسوس[160] كانوا دعاةً للحرية). كانت بلاده في حالة من الاضطراب الدائم ولم يرَ أحدٌ أبداً تغيراً في كاتو. في كل موقف وُضع فيه ثبت أنه لا يزال الرجل نفسه، في منصبه كبريتور، أو في خسارته الانتخابات، أو عندما تعرض للهجوم في المحكمة، كحاكم لمقاطعته، على المنصة العامة وفي ساح الحرب، أو في الموت نفسه. في تلك اللحظة أيضاً، لحظة الخوف على الجمهورية، حيث وقف قيصر من طرف وإلى جانبه عشرة فيالق من أعتى المحاربين وكل موارد الدول الأجنبية ودعمها أيضاً، ومن الجهة الأخرى وقف بومباي الذي رأى في نفسه نداً لكل هؤلاء، وبينما كانت الناس تتأهب للانتقال إلى أحد الجانبين، قرر كاتو وحده تأسيس ما يشبه حزباً يقسمُ على الدفاع عن الجمهورية. لو حاولت أن تتخيل الصورة بنفسك فسوف ترى من الجانب الأول الناس بعامتها، الغوغاء المتأهبة للثورة، ومن الجانب الآخر السناتورات المبجلين على مر الزمان في روما، الأرستقراطيين والفرسان. ودونَ الجانبين ترى كاتو والجمهورية، يقفان بينهما بإصرار. أؤكد لك أن ستعجب من المنظر عندما ترى

ابن أتريوس، وبريام الملك،

وآخيل غاضبٌ على الاثنين.[161]

إذ يُدينُ كاتو أمامك الاثنين، ويحاول ثنيهما عن القتال. والطريقة التي ألقى فيها بصوته بينهم كانت كالتالي: «لئن انتصر قيصر أقتلُ نفسي، ولئن انتصر بومباي أرحلُ إلى المنفى». ما الذي يمكن أن يخشاه رجلٌ حكمَ على نفسه، في النصر أو في الهزيمة على حد سواء، بمثل هذين المصيرين اللذين

160. [الثلاثة كانوا طامعين بالسلطة وأطرافاً في الحرب الأهلية التي دارت من أجلها ولم تتوقف تماماً إلا بانتهاء الجمهورية وبدء الإمبراطورية على يد أوغسطس (أوكتافيان).]

161. Virgil, Aeniad, I: 458.

يشابهان ما قد يفرضهما عليه عدوٌ ساخطٌ؟ وهكذا مات، منفذاً حكمهُ على نفسه.

وسترى أيضاً قدرة الرجل على مواجهة الشدائد: قطع صحراء أفريقيا الشمالية مترجلاً على قدميه ومتقدماً جنوده. وترى أن العطش يمكن احتماله أيضاً: لم يكن يخلع درعه، طاوياً الصحراء المحرقة بالشمس مع بقايا جيشٍ منهزم، جيشٍ بلا إمدادات، وعلى الرغم من ذلك كان آخر من يشرب كلما وصلوا إلى ماء. سترى أن الإنسان يستطيع ألا يكترث كثيراً لا برفعة المنصب ولا بوصمة الرفض: في يوم خسارته للانتخابات لعب بالكرة في موقع الانتخابات. سترى أن الرجال قادرون على تحدي جبروت رؤسائهم: لأنه عندما كان لا أحد يجرؤ على إهانة قيصر أو بومباي إلا ليحصل على حظوة الآخر، فقد تحدى كاتو الاثنين معاً. سترى أن الإنسان يستطيع ألا يكترث بالموت كما بالمنفى: فقد حكم على نفسه بالاثنين، وبالحرب حتى يتقرر أحدهما.

نستطيع إذاً أن نظهر موقفاً بنفس القوة إذا اخترنا ببساطة أن نزيح العبء من على رقابنا. ولكن أولاً علينا رفضُ حياة المُتع، فهي تجعلنا ضعيفين وشبيهين بالنساء، فالمتع لجوجةٌ في طلباتها، والأكثر من ذلك أنها تجعلنا لجوجين في طلباتنا من الأقدار. ومن ثم علينا أن ننظر بدونية إلى الثروة، فهي أجرُ العبودية. الذهب، والفضة، وكل شيء آخر لا لزوم له وتزدحم به منازلنا، يجب التخلصُ منه. الحرية لا تُنال بلا تضحية. إن كانت قيمتها راقيةً في نظرك، فيجبُ أن ترى في كل ما دونها قيمةً دنيا.

الرسالة (XXVII)

«نصائح للحياة الآمنة»

أجل، سوفَ أقدم لك بعض الملاحظات حول العيش بأمانٍ أكبر. أنت من جانبك يجب أن تستمع بانتباه إلى النصح الذي أقدمه لك، كما لو أنك تأخذ تعليمات العناية بصحتك في أرديا.

فكر الآن في الأشياء التي تدفع بالإنسان إلى تدمير الإنسان: سوف تجد أنها الأمل والحسد والكراهية والخوف والحقد. الحقد أقل المجموعة أهميةً، حدَّ أن بعض الرجال اتخذوه ملجأً للحماية. لأن الرجل إذا شعر بالحقد تجاه إنسان ما، فإنه يدوسه ولا شك، ولكنه يمضي بعدها قدماً. لا أحد يتبع سياسة مستمرة من الإيذاء تجاه رجل لا يشعر نحوه إلا بالحقد. حتى في المعركة يُترك الرجل الذي على الأرض، ويكون القتال مع الواقفين. وإذا أتينا إلى الأمل، فما دمت لا تملك شيئاً يثيرُ غرائز التملك والجشع لدى الآخرين، ما دمت لا تملك شيئاً خارج إطار المعتاد (لأن الناس يحسدون أصغر الأشياء إن كانت نادرة أو غير معروفة)،[162] فلا

162. النص في المخطوطة هنا فاسد. وتبنيتُ هنا تنقيحات si rara, sip arum nota الذين يقترحهما Madvig, Buecheler.

قلق من الشخصيات الجشعة. الحسدُ تفلت منه إن لم تُبرز نفسك لانتباه الآخرين، إن لم تتبجح بممتلكاتك، إن تعلمت أن تحتفظ برضاك لنفسك. الكره يأتي إما من الإهانة، وهذه تستطيع تجنبها عبر الامتناع عن استفزاز أي أحد عن عمد، أو يكون بلا مبرر: وهنا تكون اللباقة الاعتيادية هي ما يحميك. هذا النوع من الكره كان وبالاً على الكثيرين، حيث يُكره الرجال دون أن يكون لهم عدوٌ فعلي. وفي ما يخص ألا تُخافَ فيكفيك أن ثروتك عادية وطبيعتك رحبة التعامل. يجب أن يرى الناس أنك لست شخصاً من الخطر إهانته: ويجب أن يكون التصالح معك بسيطاً وموثوقاً. وأضيفُ، أن تُخاف في بيتك الخاص مصدر للمشكلات بقدر أن تُخافَ خارجه - سواءٌ أكان عبداً أم حراً: ليس ثمة رجلٌ عاجزٌ عن إيذائك. علاوةً على ذلك: أن تُخاف يعني أن تَخاف: لم يستطع أحد أن يلقي الفزع في قلوب الناس ويستمتع بسكينة الفكر لنفسه. يبقى إذاً الحقد.

الشخص الذي يجعل الحقد حليفه، الذي يُكره لأنه يختار أن يُكره، يسيطرُ على توازن الميزان. سلبيات الحقد ينقضها امتلاك الصفات المحترمة، ومصادقة من يملكون نفوذاً على شخص ما يملك النفوذ اللازم. من الجدير الارتباط بمثل هؤلاء الناس النافذين، من دون أن تكون مربوطاً بهم حدَّ أن تكلفك حمايتُهم ما هو أسوأ من الخطر الأصلي.

ولكن لا شيء يساعد حقاً كالبقاء صامتاً، متحدثاً مع الناس أقل ما يلزم. لأن في الحديث سحراً، شيئاً محفزاً وغداراً ينتزعُ الأسرار منا كما يفعل الحب والخمر. لا أحد يحتفظ بما يسمع لنفسه، ولا أحد سيكرر ما

سمعه دون أن يضيف شيئاً. ولا أحد يخفق في أن يكتم السر ومن ثم يسكتُ عن اسم من أخبره به. كل إنسان بلا استثناء عنده شخصٌ يبوحُ له بكل ما يسمعه. حتى لو افترضنا أنه يضع حاجزاً على لسانه الثرثار فيحصره بمستمعٍ واحدٍ وحسب، فسوف يجلب ذلك حشداً من المستمعين. هكذا يصبح ما كان سراً قبل قليل إشاعةً ذائعة.

عدم الإساءة إلى الآخرين أبداً تقدم للإنسان كثيراً من السلام الفكري. الناس الذين لا يستطيعون ضبط أنفسهم يعيشون حياةً عاصفة وغير منظمة، ممضينَ وقتهم في حالة من الخوف تتناسب مع الأذى الذي سببوه للآخرين، غير قادرين أبداً على الاسترخاء. بعد كل فعلٍ يرتعدون مصعوقين، فضمائرهم دوماً تطالب بإجابة، ولا تسمح لهم بالمضي قدماً نحو أشياء أخرى. توقُّعُ العقاب يعني أن تعانيه، وأن تستحقه يعني أن تتوقعه. قد يتوفر ظرفٌ ما يمنح الحصانة لصاحب الضمير المعتل، ولكنه أبداً لا يمنحه الحرية من القلق، لأن الشخص يرى أنه حتى لو لم يُكتشف أمره حتى الآن، فثمة دوماً احتمال أن يكشف. يصبح نومه قلقاً. كلما تحدث عن إساءة قام بها أحدهم يفكر بإساءته هو، التي لا يراها خافية كما يتمنى، فلا يستطيع طمسها من ذاكرة الناس. المذنب قد يحالفه الحظ فينجو من القبض عليه، ولكنه لا يطمئنُ إلى ذلك أبداً.

الرسالة (XXXVIII)

«تقبل الخيانة وإطاعة الرغبة الإلهية»

أين بصيرتك الأخلاقية تلك؟ أين حدة الإدراك تلك؟ أو شجاعتك؟ أشيءٌ بهذه التفاهة يزعجك؟ لقد رأى عبيدك في انهماكك في الشغل فرصتَهم للهرب. فليكن، لقد خذلك الأصدقاء، إذْ دعنا أرجوك نتركُ لهم هذا الاسم الذي أخطأنا في منحهم إياه، ولننادهم به لزيادة عارهم، ولكن واقع الحال ببساطة أنك قد تحررت إلى الأبد من أشخاص كنت تهدر وقتك فيهم، وكانوا يعتبرونك لا تُطاق، إلا لنفسك. لا شيء غير اعتيادي أو مفاجئ في كل ذلك. أن يحزنك ذلك هو بسخافة أن تتذمر من رذاذ لوث ثيابك في الشارع، أو أنك اتسخت حيث كانت الأرض طيناً. على المرء أن يتقبل الحياة بنفس شروط الحمامات العامة، أو الحشود، أو السفر. سوف ترمى بعض الأشياء نحوك، وبعضها سيصيبك. الحياة ليست شيئاً ناعماً، بل هي طريقٌ طويلٌ بدأته: عليك توقع الانزلاق والتعثر والوقوع، وستتعَب وتتمنى – كاذباً – موتك. في موضع ما سوفَ يفارقك رفيق، وفي غيره سوف تدفن آخرَ، وفي غيره أيضاً سوف تخاف منه. هذا هو نوع الأشياء التي تصادفك على طول هذه الرحلة الوعرة.

أتريد الموت؟ دع الشخصية تستعد لأن تواجه كل شيء، اجعلها
تستوعب أنها وصلت إلى أرض يلعب فيها الرعد والبرق، أرضٍ فيها
الغمُّ والعناية الانتقامية حطّا رحالهما ويسكن المرض الشاحب والعمرُ
العجوز الموحش»[163]

هذه هي الصحبة التي عليك أن تعيش معها أيامك. لن تستطيع الفرار منها، أما ازدراؤها فتستطيعه. ولسوف تزدريها إن توقعت - بفعل التأمل المستمر - أحداث المستقبل. كل الناس أكثر شجاعة في مواجهة ما حُضِّرَ له طويلاً، حتى المعاناة، يمكن تحملها إذا تم التدرب عليها مسبقاً. أما أولئك غير المستعدين، من الجانب الآخر، يصعقونَ ذعراً بأقل الأحداث شأناً. يجب أن نحرص ألا يأخذنا شيءٌ على حينِ غرة. وبما أنها الغشامة هي - بلا استثناء - ما يجعل الشيء أكثر قسوة مما هو عليه في الواقع، فإن عادة التأمل المستمر هذه سوف تضمن أن لا شكل من المحن سوف يلقاك غرّاً تاماً.

«لقد تخلى عني عبيدي!»... آخرون تعرضوا للنهب والتجريم والهجوم والخيانة والضرب ودسّ السم والافتراء - اذكر أي شيء يخطر لك، ستجد أنه قد حصلَ مثله للكثير من الناس. أنواع شتى من الرماح تطيرُ ونحنُ أهدافها، بعضها بات مغروزاً في جسدنا والآخر يتوجه نحونا في هذه اللحظة نفسها، والباقي بالكاد يخدشنا خلال مروره نحو غيرنا من الأهداف. دعنا لا نذهل لأشياء وُلدنا من أجلها، أشياء يجب ألا يتذمر منها أحد، لسبب بسيط هو أنها واحدةٌ على الجميع، أجل واحدةٌ على

163. Vrgil, Aeniad, VI. 274-275.

الجميع. فقد يعاني الرجلُ لاحقاً مما أفلت منه حتى الآن. إن عدالة القانون لا تعني أن تأثيره يشعرُ به الجميع بنفس القدر، بل أنه فوق الجميع سواسية. فلنرسِّخ حس العدالة هذا بثبات في رؤوسنا وندفع – بلا تذمر – ما علينا من الضرائب على حالتنا الفانية. الشتاء يجلب البرد وعلينا أن نرتعش، الصيف يجلب الحر وعلينا أن نتصبب عرقاً. المناخ السيئ ينهك الصحة ونضطر لأن نمرض. في مكان ما أو آخر سوف نضطر إلى مواجهة وحوشٍ برية، وبشرٍ أيضاً، وهم أخطرُ من كل تلك الوحوش. الفيضانات ستسلبنا شيئاً، والنار شيئاً آخر. هذه شروط وجودنا التي لا طاقة لنا على تغييرها. ما نستطيع فعله هو تبني روحٍ نبيلة، روحٍ تليق برجلٍ نبيل، حتى نتحمل بشجاعة كل ما ترسله الأقدارُ في إثرنا ونناغمَ إرادتنا مع إرادة الطبيعة. فالتحولاتُ في آخر المطاف هي وسيلة الطبيعة لتنظيم مملكتها المرئية هذه: السماء الصافية تلي الغائمة، بعد الهدوء تأتي العاصفة، الرياح تتّبع أدواراً في هبوبها، النهار يلحق بالليل، وبينما يرتقي جزء من السماء يغرقُ الآخر. بفعل الأضداد تستمر الأبدية.

هذا هو القانون الذي تحتاج عقولنا إلى التصالح معه. هذا هو القانون الذي يجب أن تتبعه وتطيعه. يجب أن تفترض أن أي شيء يحدث كان لا بد من أن يحدثُ، وتمتنع عن الاحتجاج على الطبيعة. ما لا تستطيعُ الشفاء منه عليك احتماله وأن تصيخ السمع بلا تذمر إلى الإله الذي بوجوده تكون الأشياء. فاشلٌ الجندي الذي يتبع قائده متذمراً. دعنا إذاً نتلقى أوامرنا مستعدين وسعيدين، ولا نفرُّ من الصفوف في أثناء المسير، مسيرِ هذا النسيج المجيد من الخلق، حيثُ كل شيء نعانيه منه ليس إلا خيطاً. ودعنا نخاطب جوبيتر، الذي تدير يده المُرشدة هذا العمل الجبار، كما فعل

رفيقنا في الرواقية كليانسز، في سطوره الأبلغ تعبيراً، والتي أنا معذورٌ في ترجمتها - لربما - بما أنني أتبع المثال الذي خطّه سيد البلاغة سيسرو. إذا أعجبتك ترجمتي فهذا رائع، وإن لم تعجبك فاعلم على الأقل أنني كنت أتخذ سيسرو قدوةً:

قُدني يا سيد السماء المبجلة،

قدني، أبتي، حيث تشاء.

أقف هنا متأهباً ومتشوقاً لطاعتك.

وحتى لو رغبت عنك، فسوف أذهب مُرغماً

لأعرف المعاناة والخزي والرذيلة، حيث كنتُ أقدرُ

أن أتبعك وأكون فضيلاً أيضاً. فالقدر

يقود المريدين، والراغبون عنه يجرُّهم معهُ.(164)

دعنا نتكلم ونحيا هكذا. وليجدنا القدر مستعدّين ومتشوقين. ها أمامك روحك النبيلة، تلك التي تضع نفسها في يد القدر، وفي الكفة الأخرى عندنا الروح المنحطة الضئيلة التي تُصارع، ولا ترى شيئاً صحيحاً في ترتيب الكون، وتريد أن تصلح الآلهة بدلاً من أن تصلح نفسها.

164. القديس أوغستين يقتبس قطعة كليانسز هذه على أنها لسينيكا (De Civitate Dei, V:8).

الرسالة (XXXIX)

«الفيلسوف، والمعلّق، وعالم اللغة»

الموضوع الذي تسألني عنه أحدُ مواضيع المعرفة التي لا مبرر لها سوى المعرفة نفسها. على الرغم من ذلك، وبالضبط لأنه مبررٌ إلى هذا الحد، فأنت في عجلة شديدة وممتعضٌ من انتظار موسوعة الأخلاق التي أجمعها لك في هذه اللحظة بالذات. حسنٌ سأعطيكَ جوابك فوراً، ولكنني أولاً سوف أقول لك كيف أن هذه الحماسة للتعلم، والتي أراها تشتعل فيك، يجب وضعها تحت السيطرة وإلا سوف تكون عقبةً أمام نفسها. المطلوب ليس الانتقاء العشوائي من المعرفة ولا الجموح الجشع نحوها ككل. الوصول إلى الكل يكون عبر أجزائه، ويجب تعديل الحِمْل ليلائم استطاعتنا. يجب ألا نأخذ أكثر مما نستطيع أن نحتمل. يجب ألا تحاول امتصاص كل ما ترغب فيه، بل ما تملك متسعاً له وحسب. ببساطة تبنَّ المقاربة الصحيحة وسوف تجد في آخر المطاف أن عندك مساحة لكل ما ترغب، إذْ كلما هضمَ العقلُ أكثر توسع أكثر.

أتذكر نصيحة أعطاني إياها أتالوس في الأيام التي كنت فيها عملياً أضرب حصاراً حول قاعة محاضراته، كنتُ دوماً أول من يصل وآخر من يرحل، وأشده إلى نقاش في نقطة ما أو أخرى حتى خلال تمشِّيه، فقد كان

دائماً حاضراً من أجل طلابه، وليس فقط موجوداً. قال لي «من يُعلّم ومن يتعلم يجب أن يهدفا إلى الأمر نفسه: تحسين الثاني منهما». الشخص الذي يذهب إلى فيلسوف يجب أن يعود بشيء ذي قيمة كل يوم، يجبُ أن يعود إلى المنزل رجلاً أصحَّ أو على الأقل أكثر قدرة على أن يصبح كذلك. وسوف يفعل: لأن قوة الفلسفة عظيمةٌ بحيث أنها لا تساعد من يُكرِّس نفسه لها وحسب، بل تتعدّى إلى من يحتكون بها أيضاً. إن الذي يخرج في الشمس، سواء قصد أم لم يقصد، سوف يسمرُّ. الزبائن الذين يجلسون وقتاً طويلاً في متجر العطور يحملون رائحة المكان الذي كانوا فيه. والناس الذين كانوا مع فيلسوف لا بد سيشتقون منه شيئاً ذا فائدة حتى لقليل الانتباه منهم. انتبه إلى أنني أقول قليل الانتباه وليس العدواني.

«هذا كله جيدٌ جداً، ولكن ألا نعرف جميعاً بعض الأشخاص الذين جلسوا عند أقدام الفلاسفة سنينَ من دون أن يحصلوا على شذرة حكمة؟» طبعاً أعرف، ومنهم أناس مثابرون ومجدون بصدق أيضاً. أنا أفضل أنا أدعوهم مستأجري الفلسفة، لا تلامذتها. بعضهم يأتي لا ليتعلم بل ليسمع الفيلسوف وحسب، كما ننجذب إلى المسرح من أجل الترفيه، كي نمتِّعَ آذاننا بمسرحية، أو موسيقى، أو خطبة. سوف تجد أن قسماً كبيراً من حضور الفلاسفة يتألف من هذا النوع الذي يعتبر قاعة محاضراته مكاناً لأوقات الاستراحة. ليسوا مهتمين بتخليص أنفسهم من عيوبها هناك، ولا بالحصول على أي قواعد للحياة يختبرون بها شخصيتهم، بل يستمتعون ببساطة بلذات الاستماع. وأقرُّ أن بعضهم يأتي حاملاً دفاتره، ولكن ليس كي يسجلوا محتوى المحاضرة، بل كلمات منها كي يكرروها أمام آخرين لا يستفيدون منها مثلهم. بعضهم يتأثر بالمشاعر النبيلة التي يسمعها، فتستنيرُ وجوههم وأرواحهم ويندمجون مع مشاعر المتحدث،

فيدخلون في نشوة كالقساوسة الخصيان الذين يُدخلونَ أنفسهم في نوبة من النشوة، واحداً تلو الآخر، عند الاستماع إلى صوت ناي «فريجي»[165]. ما يأسرهم ويثيرهم ليس طنين الكلمات الفارغة، بل رونق المحتوى الفعلي لكلمات المتحدث: أي تعبير عن الشجاعة، أو التحدي الجسور للموت أو الأقدار، سيجعلك ترغب في ترجمة ما سمعته إلى أفعالٍ فوراً. يتأثرون بعمق بالكلمات ويتمثَّلون في لحظتها ما يأمرهم به الفيلسوف — وكانوا سيتغيرون فعلاً لو أن التأثير يدومُ في عقولهم، لولا أن هذا الحماسة المهيبة لا يقاطعها فوراً ذلك المُحبطُ للسلوك النبيل: الحشد. قليلون جداً ينجحون في الوصول إلى بيتهم في الحالة نفسها من الإلهام.

من السهل إلى حد كبير أن تثير في المستمع رغبةً بما هو مُشرف، لأن الطبيعة وضعت في كل واحد منا أساساتِ الفضائل، أو زرعت بذورَها. فنحن نولد من أجلها كلنا، وعندما يأتي شخصٌ بالمُؤثر اللازم، فإن تلك الصفات تستيقظ من نومها في روح الشخص، إذا صح التعبير. ألم تلاحظ كيف أن المسرح يهمهم موافقاً كلما قيل شيءٌ نعترف جميعاً بحقيقته ونقبله بالإجماع؟

الفقير ينقصه الكثير، الجشعُ ينقصه كلُّ شيء

الرجل الجشع لا يفيد أحداً،

ولكنه لا يؤذي أحداً أكثر مما يؤذي نفسه.[166]

165. [القساوسة الذين يعبدون الأم الكبرى سيبل Magna Mater Cybele، إلهةٌ تبنّتها روما خلال الحروب البونية الثانية، والناي الفريجي نسبة إلى منطقة فريجيا في الأناضول.]

166. يُعتقد أن الاقتباس، والاثنين اللذين يتلوانه، قطعٌ من مسرحيات بوبليوس سيروس.

إن أبخلَ من نعرفهم سوف يصفقون لهذه السطور ويستمتعون بسماع عيوبهم تُجلَدُ بهذه الطريقة. تخيل الآن كم أن هذا قابل لأن يحصل أكثر عندما يقول هذه الأشياء فيلسوف، مُرصِّعاً خطبة النصح السليم بأبيات الشعر المنظومة لتُعمِّق إحكامها في العقول غير المتنورة. لأنه كما كان يقول كليانسز: 'متطلبات الشعر المحصورة في وزنٍ واحدٍ تمنح معنى المرء قوة أكبر بكثير، بنفس الطريقة التي يصدر فيها النَّفَسُ صوتاً أضخم بكثير إذا ما مررته عبر بوقٍ ضيقٍ وطويل قبل خروجه الأخير من الفتحة المتوسعة في النهاية'. عندما يُستخدَم الإيقاع، عندما تنضغطُ الفكرة نفسها في بحرٍ شعريٍ محدد، تطير الفكرة محلقةً مثل الرمح المرمي من ذراع عتيدة. الكثير مثلاً يقال عن احتقار المال، ويُقال للمرء بعبارات طويلة أن على الرجال البحثَ عن الثروات في الروح وليس في العقارات الموروثة، وأن الرجل ثريٌ إذا واءمَ نفسه مع قدراته المحدودة وجعل نفسه غنياً بالقليل. ولكن أبياتاً كالتالي يجدها المستمع أكثر نفاذاً:

لا يحتاج إلا قليلاً من يرغب بالقليل.

ويحصل على أمنيته، من أمنيته الحصول على ما يكفي.

عندما نسمع هذه الأبيات وأخرى غيرها، فإننا نشعر بأننا مُلزمون بالاعتراف بحقيقتها. تجدُ من لا يشبع غليلهم أيُّ ثراءٍ يعجبون ويصفقون لمثل هذه الأبيات، بل يدّعون بغضهم للمال. عندما تراهم في مزاج كهذا تابع ضغطك عليهم لإيصال فكرتك، مراكماً إياها فوقهم، دونما أي لعب على الكلام أو المنطق أو السفسطة أو أي من ألعاب الذكاء الفكري العقيمة. تحدث ضد حب المال. تحدث ضد البذخ. وعندما ترى

أنك وصلت إلى شيء واستطعت التأثير في مستمعيك، زد ضغطك من جديد. من الصعب تصديق ما يمكن إنجازه باستعمال هذا النوع من الخُطب، المصممة لشفاء الناس، والموجهة بشكل كامل لخير المستمعين. عندما تكون الشخصيةُ منفتحة للتأثير يسهلُ ربحها، وإيقاظُ شغفها بما هو نبيلٌ ومشرف. عندما تكون شخصية المرء لَمّا تزل قابلة للتشكُّل، ولم تفسُد إلا بعض الشيء، فإن الحقيقة تخترقُ بعمقٍ إن وجدت لنفسها المُرافِع الصحيح.

من جهتي أنا، على أي حال، عندما سمعت أتالوس يشرح القضية ضد عيوب الشخصية، والذهنيات الفاسدة والشرور في حياتنا بشكل عام، كثيراً ما كنت أشعر بحس من التورُّط الحزين الذي يعيشه الجنس البشري، وكنتُ أنظرُ إليه على أنه إنسانٌ متسامٍ ارتقى فوق حدود الطموح الإنساني. وهو نفسه كان يستخدم الكلمة الرواقية 'ملك' ليصف نفسه، ولكنه بدا لي أكثر من ملك، بدا لي شخصاً له الحق في أن يحاكم سلوكَ الملوك وشخصيتهم. وعندما بدأ يمدح لنا فضائل الفقر، ويرينا كيف أن كل ما يزيد على احتياجاتنا الفعلية ليس إلا حملاً غير ضروري، يُثقلُ على حامله، كنت أتمنى أن أخرج من قاعة المحاضرة تلك رجلاً فقيراً. عندما بدأ يكشف لنا لذاتنا ويوصينا، إلى جانب الاعتدال في الحمية، بالطهارة الفيزيائية وبعقلٍ غير ملوثٍ مثلها، غير ملوثٍ لا باللذات المحرَّمة وحسب بل أيضا بتلك غير الضرورية، كنتُ أتحمس لأن أسيطر على شهيتي للطعام والشراب بعزيمة. والنتيجة أن بعضاً من ذلك، يا لوكيليوس، بقي معي طوال حياتي. لأنني بدأت الأمر كله بحماسة وطاقة عظيمتين، ولاحقاً، بعد عودتي إلى الحياة العامة، استطعت الحفاظ على

بضعة مبادئ من التي انطلقت بصحبتها تلك الانطلاقة الواعدة. هكذا انتهى بي المطاف بالتخلي عن المحار والفطر بقية حياتي (فهي ليست طعاماً حقاً لنا بل مقبلاتٌ تحثُّ الذين أكلوا ما يكفي على التهام المزيد، وهو أكثر ما يرغبه النهمون ومن يحشون أنفسهم فوق استطاعتهم، لأنها أطعمة تطلع بسهولة نزولها. ولهذا أيضاً امتنعت طوال حياتي عن استخدام العطر، أفضل رائحة للجسد هي اللارائحة. وللسبب ذاته لا يجد الخمر طريقه إلى معدتي. وهو أيضاً سبب تجنبي طوال حياتي للحمامات الساخنة، مؤمناً بأنها شيءٌ مؤنث، ولا فائدة أيضاً من طهو جسد المرء وإتعابه بالتعرق المستمر. بعض الأشياء التي كنت ودعتها عادت للظهور، ولكن على الرغم من ذلك، فحيثُ لم أستطع التمسك بالامتناع الكامل، نجحتُ في وضع حدٍ ما، وهو شيءٌ بالكاد يبعد خطوةً عن الامتناع الكامل (بل قد يكون أكثر صعوبة، فالإرادة قد تستطيع ترك بعض الأشياء بسهولة، بينما التزام الاعتدال في استعمالها صعب).

الآن بعد أن بدأت بالبوح لك بحماستي المتوقدة للفلسفة في شبابي مقارنة بمحافظتي عليها في عمري الكبير، فلن أخجل من الاعتراف بالمشاعر الجياشة التي ألهمني إياها فيثاغورث. كان الفيلسوف سوتيون يقول لنا أن فيثاغورث – ومن بعده كوينتوس سيكستيوس – كان نباتياً، ولكل منهما سبب مختلف جداً، ولكن لكل منهما سببه المدهش. سيكستيوس يعتقد أن لدى الإنسان ما يكفيه من الطعام دون إراقة الدماء، وأن الناس عندما أكثروا من تمزيقهم اللحوم حتى صار متعة، فقد تشكلت لديهم عادةٌ وحشية. ويجادل أيضاً بشكل عام أن بذخ الناس شيءٌ يجب تقليله، وكانت عنده أسبابه في أن تنوع الحمية ممارسةٌ غير

متوافقة مع بنيتنا الفيزيائية ومضرة بالصحة. أما فيثاغورث فكان يؤمن بصلة قُربى بين كل الكائنات وأن هنالك نظاماً من تبادل الأرواح يتضمنُ تقمص الروح من وعاء جسدي إلى آخر. إذا صدقنا فيثاغورث فليس ثمة روحٌ تمرُّ بالموت، ولا حتى بتعليقٍ للوجود، إلا ربما في لحظةَ الانتقال إلى الجسد الآخر. ليس الآن وقت نقاش المراحل التي على الروح إتمامها أو النقطة التي تستطيع عندها أن تتم تجوالها عبر التناسخ بين الكائنات الأخرى لتعود إلى الشكل البشري. يكفي لأهدافنا الحالية معرفةُ أنه أدخل إلى قلوب الناس رعباً من ارتكاب جريمة ذبح الأب أو الأم، نظراً لاحتمال أنهم قد يصادفون من دون أن يعرفوا روح أحد أسلافهم فيفظّعون فيها بالسكين أو الأسنان، على افتراض أن روح القريب لربما سكنت في جسد الحيوان. بعد أن ناقش هذه النظرية ودعمها بأدلةٍ من وضعه، كان سوتيون يقول: «لا يمكنك أن تقبل فكرة انتقال الأرواح من جسدٍ إلى آخر؟ وأن ما ندعوه الموت ليس إلا انتقالاً إلى مسكن جديد؟ لا يمكنك أن تقبل أن روحاً كانت لإنسان سوف تقطن في وحش بري؟ أو في أحد حيواناتنا الداجنة؟ أو في مخلوقات تسكن الأعماق؟ لا يمكنك أن تقبل أن لا شيء يفنى على هذه الأرض بل ببساطة يمرُ بتغيرٍ في المكان؟ وأن عالم الحيوان، وليس فقط الأجرام السماوية التي تدور في أفلاكها الثابتة، يتحرك في حلقاتٍ وتسيرُ أرواحهُ في أفلاكها المدارية الخاصة بها؟ حسنٌ، بما أن هذه الأفكار قد تبنَّاها رجال عظام فعليك على الأقل أن تُعلّق حكمك القطعي، وأن تحافظ على عقلٍ منفتح بخصوص الموضوع بشكل عام: لأنه إن كانت هذه الأفكارُ صحيحة، فإن الامتناع عن أكل أجساد الحيوانات يعني البراءة من الجُرم، وحتى إن لم تكن صحيحة،

سوف تبقى معيشةً مقتصدة: إذْ ما الذي تخسره في تبنّيك كل ذلك؟ كل ما أحرمك منه هو ما تقتاتُ عليه الأسود والنسور».

حمستني هذه التعاليم كي أصبح نباتياً، وبعد أن مرت سنة وجدت الأمر عادة ممتعة وسهلة. وبدأت أشعر أن عقلي أكثرُ نشاطاً بسببها - مع أنني لست اليوم بهذه الثقة من ذلك. أظنكَ تودُّ أن تعرف كيف تخليت عن هذه الممارسة. حسنٌ، تصادفت سنوات شبابي مع سنوات حكم تيبريوس، حين وصلت إلى البلاد طوائف دينية معينة أجنبية وبدأت تروج لنفسها، وقد كان الامتناع عن أكل لحوم الحيوانات - من بين أشياء أخرى - يعتبر دلالة على اعتناق مثل هذه الخرافات. ولذلك، وبناء على طلب والدي، والذي لم يكن يخاف حقاً من اعتقالي ولكنه يحتقر الفلسفة، عُدت إلى عاداتي الطبيعية. وفي الحقيقة لم يعانِ لإقناعي باعتماد حمية كاملة. من بين الأشياء الأخرى التي كان يوصي بها أتالوس: الفراشُ القاسي، وهذه ما زلت ثابتاً عليها حتى في عمري الكبير، النوع الذي لا يظهرُ عليه شكل الجسد النائم فوقه. أقول لك هذا كله لأريك الحماسة المتقدة التي ينطلق بها المبتدئ، باحثاً عن الأهداف الأرقى، شرطَ أن يُقدم له أحدهم التعاليم والتشجيع.

الأمور في الواقع تميل إلى الذهاب في الاتجاه الخطأ، وجزءٌ من اللوم يقع على عاتق أساتذة الفلسفة، الذين يعلّمون اليوم كيفية الجدل بدلاً من كيفية الحياة، وجزءٌ على عاتق تلامذتهم، الذين يأتون إلى الأساتذة لا بهدف تنمية شخصيتهم، بل فكرِهم. والنتيجة كانت تحول الفلسفة، دراسةُ الحكمة، إلى فقه اللغة: دراسة الكلمات.

الهدف الذي نضعه نصب أعيننا له تأثيرٌ كبير – في آخر المطاف – في الطريقة التي نقارب بها أي موضوع. إن شاء المرء أن يصبح عالماً في الأدب، فإنه عند تصفحه فرجيل وقراءته للعبارة البديعة:

لا يستعاد، الوقت يطير بعيداً"[167]"

فهو لا يقول لنفسه: «علينا أن نُجهدَ أنفسنا، فالحياة تتركنا خلفها إن لم نسرع، والأيام تمضي راكضةً بنا، حاملةً إيانا معها. نُخفقُ في استيعاب الوتيرة التي تنقضي بها، ها نحن نضعُ خططاً مفصَّلةً للمستقبل ونتصرف كما لو أن معنا كل الوقت في العالم، بينما الهاوية تحيطُ بنا من كل جانب».

لا طبعاً، بل سوف يكون هدفه أن يلاحظ أن فرجيل دوماً ما يستعمل كلمة «يطير» عندما يتحدث عن انقضاء الزمن السريع.

أيام الحياة الأجمل لنا نحن البشرُ المساكين

تطيرُ أولاً. يتلوها المرضُ والمعاناةُ،

العمر الكبير القاتم. ويد الموت الصارمة

عديمة الرحمة، تزحف نحونا."[168]"

الشخص الذي يفكر بالفلسفة هو الذي يأخذ الكلمات كما يجب أن تؤخذ. يقول «فرجيل لا يقول عن الساعات أنها (تعبر) بل (تطير)، وهو أسرع نوع من الحركة». ويقول لنا أيضاً أن أفضلها هو أول ما ينقضي. النبيذُ الذي يصبُّ أولاً هو الأصفى في الزجاجة، فالذرات الأثقل وأي

.Georgics, III:284 .167

.Georgics, III:66-68 .168

عكرٍ يرسبُ في القاع. وكذلك حياة البشر: الأفضل يأتي أولاً. فهل سوف نسمح للآخرين أن يُفرغوه كي يبقى لنا العكر؟ دع تلك الجملة تستقر في عقلك، واقبلها بلا مساءلة كما لو أنها من فم عرافة:

أيام الحياة الأجمل، بالنسبة إلينا نحن البشرُ المساكين تطيرُ أولاً.

لِمَ الأفضل؟ لأن ما سيأتي غير مؤكد. لم الأفضل؟ لأننا في شبابنا قادرون على التعلُّم، عندما يكون العقل سريع الالتقاط وقابلاً للتدريب نستطيع أن نوجهه إلى أهدافٍ أفضل. لأن هذا وقتٌ جيدٌ للعمل، للدراسات لإبقاء عقولنا يقظة ومشغولة، وللنشاط المرهق لتمرين أجسادنا. الوقت المتبقي لنا بعد هذا تميزه اللامبالاة النسبيةُ والكسل، وهو أقربُ بكثيرٍ إلى النهاية. دعنا نتصرف بناء على ذلك بكامل عزيمتنا إذاً. فلنقاطع كلَّ الملهيات ولنعمل على هذا وحده، خوفاً من أننا إن لم نفعل سنتأخر ويتجاوزنا الزمن، ويأتي يومٌ نستوعب فيه سرعة طيران هذا الزمن الذي نعجز عن إيقافه. كل يوم يطلعُ يجب أن نرحب به ونحسبه فوراً قد نقص من ممتلكاتنا كما لو أنه أفضل يوم يمكن تخيله. يجب أن نلتقط ما يطيرُ ماراً بنا.

هذه الأفكار لا تخطر أبداً للشخص الذي ينظر إلى الأبيات المقتبسة من عيون عالمِ الأدب. لا يتأمل أن أيامنا الأولى هي أفضل أيامنا بالضبط لأنها «يتلوها المرض والمعاناةُ»، بينما العمر الكبير يراقبنا من أعلى، يحلّق فوق رؤوسنا وعقولنا لما تزل ممتلئة بالشباب. لا طبعاً، فتعليقه سيكون أن فرجيل دوماً ما يزاوجُ بين «المرض» و«العمر الكبير» (وليس ذلك دون سبب جيد: بل إنني لأصف العمر الكبير بحد ذاته بأنه نوع من المرض

العضال). والعالم يلاحظ أيضاً النعت المرتبط بالعمر الكبير، مشيراً إلى أن الشاعر في المقطع المقتبس يتحدثُ عن «العمر الكبير القاتم» بينما في مقطع آخر يكتب:

حيث يسكن المرضُ الباهتُ والشيخوخة القاتمة[169]

ليس هنالك ما هو مفاجئ في أن البشر المختلفين يجدون اهتماماتهم الفردية المختلفة في الأشياء الواحدة. في المرج نفسه تبحث البقرة عن العشب، والكلب عن أرنب، واللقلق عن سحلية. وعندما يفتحُ مُعلِّقٌ، وعالم آداب، ومخلصٌ للفلسفة، كتاب سيسرو (الدولة)، فإن كلاً منهم يركِّزُ انتباهه في اتجاه مختلف. فالفيلسوف يذهل من أنه استطاع قول كل هذا الكم في الكتاب انتقاداً للعدالة. والمعلِّقُ، عندما يقرأ الكتاب ذاته، يضيف هذا النوع من الحواشي: «هنالك مَلِكان لروما واحد منهما بلا أب والآخر بلا أم، أمُ سيرفيوس مسألة فيها عدمُ يقين، وأنكوس، حفيدُ نوما، ليس له أبٌ مسجل». ويزيد في ملاحظاته أن «الرجل الذي نمنحه لقب ديكتاتور ونقرأ عنه في كتب التاريخ بنفس الاسم كان يسميه الرومانيون الأوائل Magister Populi (سيد العامة)، وهذا اللقب باقٍ حتى اليوم في السجلات الأوغورية[170]، وكون من يعينه سيد العامة نائباً له يُسمى Magister Equitum (سيد الفرسان) لهو دليل على صحة ذلك». وهو يضيف أن «رومولوس[171] مات خلال كسوف للشمس»

Aeneid, VI:275 .169

170. [Augurs الكهنة الذين يمارسون قراءة الطالع، وكان لهم دور فاعل في سياسة روما القديمة، والجمهورية، وتقلص مع مجيء الإمبراطورية.]

171. مؤسس روما حسب تراثها الأسطوري.

وأن «حقَّ الاستئناف إلى [تصويت] العامة كان معترفاً به منذ فترة الملكية على الأقل، وهنالك أدلة على ذلك في السجلات البونتيفكية[172]»، وهو رأي العديد من الدارسين، وبالخصوص فينيستيلا». بينما العالم الأدبي عند قراءته الكتاب نفسه، فإن أول ما يسجله في ملاحظاته هو استعمال سيسرو لـreapse بدلاً من re ipse، وsepse أيضاً بدلاً من se ipse [أي يلصق اللواحق بالكلمات]. ومن ثم يمضي متفحصاً التغيرات عبر السنوات. حيث على سبيل المثال، يستخدم سيسرو التعبير: «بما أننا عدنا إلى الـcalx بسبب مقاطعته هذه»، فإنه يلاحظ أن calx كان الاسم الذي استعمله الرومان القدماء للتعبير عن (خط النهاية) في الستاديوم، والذي نسميه اليوم creta [الكلمتان حرفياً تعنيان الجص: خط أو علامة من الطبشور]. والشيء التالي الذي يفعله هو تجميع الأبيات المذكورة في الكتاب على لسان الشاعر إنيوس، وخصوصاً تلك التي تتحدث عن سكيبيو أفريقيا:

لا أحد، عدوٌ أو روماني، يستطيع أن يقدِّرَ قيمة إنجاده ويعطي إنجازاته حقها.[173]

من هذا المقطع يدعي العالم أنه يستنتج أن كلمة (إنجاد) عند الرومانيين القدماء ما كانت تعني تقديم المساعدة وحسب بل خدماتٍ بحد ذاتها، حيث إنيوس يتضمن العدو في عدم قدرته على تقدير

172. [Pontiff الكهنة الأعلى مرتبة والأكثر سطوة في روما القديمة، والكلمة بقيت حية لاحقاً في الكنيسة الكاثوليكية.]

173. قطعة من ملحمة ضائعة.

الخدمات التي أداها سكيبيو لروما. ومن ثم يهنئ نفسه على اكتشاف المصدر الذي اختار فرجيل منه استعارة ما يلي:

من فوق رأسه بوابات السماء العظيمة تُرعِد.»[174]

فيقول لنا أن إنيوس سرق الفكرة من هوميروس وأن فرجيل سرقها من إنيوس، لأن هنالك بيتين من شعر إنيوس (محفوظين في كتاب سيسرو المذكور: «الدولة») هما كما يلي:

إن كان أي فانٍ يستطيعُ أن يرتقي درجات السماء

فلي وحدي تنفتح بوابات السماء المجيدة.

ولكن يكفي هذا، وإلا فلسوف أنزلق في ثياب العالم أو المعلّق أنا نفسي دون أن أشعر. نصيحتي لك هي التالي: ما نسمع الفلاسفة يقولونه وما نجده في كتاباتهم يجب أن يخدِمَ سعينا نحو الحياة السعيدة. يجب أن نتصيَّد قطع التعاليم المفيدة، والأقوال الحماسية النبيلة في فكرها (وليس التعابير القديمة أو الغريبة أو التشابيه المزينة ومجازات الكلام) وأن نتعلمها جيداً حدَّ أن تصبح الكلمات أعمالاً. لا أحد في رأيي يخذلُ الإنسانية بنفس فداحة الذي يدرُسُ الفلسفة كما لو أنها مهارة تجارية، ومن ثم يعيش بطريقة مختلفة عما يأمر الناس به. فمن هم مبتلون بكل عيبٍ يشجبونه بمثابة إعلان متنقل عن عدم جدوى تدريبهم. هذا الرجل لا يفيدني كمعلم إلا كما يستفيدُ المرء من تسليم دفة السفينة لرجلٍ مصاب بدوار البحر خلال العاصفة: لأن عليه إحكام العوارض حين تضربها الأمواج

174. Georgics, III:200-201

من بين يديه، وأن يصارع البحر بنفسه، وينقذ أشرعته من الرياح: ماذا يفيدني ربانٌ مصعوقٌ ويتقيأ؟ وتخيَّلْ كم أن عاصفة الحياة أصعب من أي عاصفة تضرب قارباً. المطلوب يدٌ تقودُ، وليس تتحدث. وبصرف النظر عن ذلك، فما يقوله هذا النوع من الرجال، كلّ ما يرمونه إلى جمهور محتشد، ينتمي إلى شخصٍ آخر. فالكلمات قالها أفلاطون، قالها زينون، قالها كريسيبوس وبوسيدونيوس وحشدٌ آخر من الرواقيين أمثالهم. دعني أريك كيف يثبت الرجال أن كلماتهم لهم: يفعلونَ ما يعظون به.

والآن وقد أكملتُ الرسالة التي أردتُ أن أوصلها، فسوف أبدأ من هنا بتلبية رغبتك. ولكنني سأرسل ما طلبته منِّي في رسالةٍ جديدة، فلا يصح وصولك متعباً ذهنياً إلى موضوعٍ شائكٍ يحتاجُ أذناً نبيهةً ومدققة.

الرسالة (XL)

«تنوع الأساليب الأدبية في العصور»

تسألني لماذا يظهر أسلوب أدبي فاسدٌ في فترات معينة، وكيف يمكنُ لعقلٍ موهوبٍ أن يُنمِّي ميلاً نحو خطأ ما أو آخر (وينتج عن ذلك شيوع أسلوب عرضٍ طنان في وقت ما، وفي وقت آخر أسلوبٌ رخو، يشابه أسلوب الأغاني). ولماذا في أحد الأزمنة يفوز بالقبول خيالٌ منمق وفي زمن غيره جملٌ ذات طبيعة مقتضبة تلميحية تخاطب الذكاء أكثر من الأذن. ولماذا مرَّت فترات استُغِلَّت فيها التشابيه بلا خجل. الإجابة تكمن في شيء نسمعه حولنا كثيراً، شيءٌ جعله اليونانيون مثلاً: (كلام المرء كحياته)، وكما أن تعبير كل فرد عن نفسه يشابه أفعاله، فكذلك الأمر في حالة الأمة ذات الأخلاق المنحدرة التي تميلُ نحو أشكال التعبير الفخمة وتعكسُ السلوك العام للمجتمع. الأسلوب الأدبي الفخم علامةٌ على مجتمعٍ بَذِخ – على فرض أنه الأسلوب المفضَّل والمقبول، وليس يظهر عند كاتبٍ هنا أو هناك وحسب. لا يمكن للفكر أن يخالفَ الروح. إذا كانت الروح سليمة، إذا كانت مقومة جيداً وتملك الكرامة والتحكم بالنفس، فإن الفكر سوف يكون صاحياً وعقلانياً أيضاً، وإذا كانت

السابقة ملوثة فالأخير سوف تتفشى فيه العدوى أيضاً. لقد لاحظت ولا بد كيف تتلكأ أطرافُ المرء ويجرُّ رجليه إذا كانت روحه ضعيفة؟ وكيف يظهر نقص الطبيعة الأخلاقية في مشيته ذاتها إن كانت روحه مدمنة على الحياة الرخوة؟ وكيف إذا كانت روحه حيوية ومنطلقة تكون خطواته نشيطة؟ وكيف إن كانت تعاني من الجنون أو حالة أخرى من الغضب، فإن جسده يتحرك بطريقة غير مضبوطة، بهيجان بدلاً من مشي؟ أليس معقولاً أن تأثير الروح هذا ينطبق أكثر على فكر المرء؟ ففكره مرتبطٌ بشكل كامل مع روحه، فهي تشكله ويستجيب لها ويتطلع إليها للإرشاد؟

إن طريقة حياة ماكيناس معروفة إلى حد أن لا ضرورة لوصف مشيته، وطبيعته المُتبعة للذات، وشغفه بإظهار نفسه، وامتعاضه من عدم انتباه الناس إلى رذائله. حسنٌ إذاً، ألم يكون أسلوبه عديم الانضباط كملبسه؟ ألم تكن مفرداته مبهرجةً كعاداته وحاشيته وبيته وزوجته؟ لوصلَ إلى العبقرية لو أنه اختار طريقاً أكثر مباشرة من تعمده الاستعصاء على الفهم، لو أنه لم يكن رخواً في مسائل الأسلوب كما هو في كل شيء آخر. وعلى ذلك ستلاحظ أنَّ بلاغته تشبه بلاغة السكران، متشعبة وقليلة الترابط وبليغة الغرابة. هل يمكن إيجاد تعبير أسوأ من «ضفةٌ ذات لبدةٍ من الجداولِ والأشجار»؟ وانظر أيضاً: «رجال يحرثون القناةَ بالقوارب، دافعين بالحدائق خلفهم بينما يقلبون زَبَدَ المياه السطحية». ماذا عن شخصٍ «يلوي شعرَ امرأةٍ، بشفاهٍ تلتوي وتغازل، وبالتنهيدة يفتتح خُطبته، وعُنقه تتلوى كما عملاق الغابة في صلاته»؟

«فريق اللاتائبين يفتشون الناس في الاحتفالات، ويغيرون على البيوت بكأس الشراب، وباستعمال الأمل، ينفذون الموت». «ولكن بالكاد أُشهِدُ على يومي المقدس روحي الحارسة». «الأمهات أو الزوجات يُلبسْنَ الموقد».

عندما تقرأ هذا النوع من الكلام، ألا يخطر في بالك فوراً أن هذا هو الشخص نفسه الذي كان يتجول بلا اكتراث بملابس رثة في العاصمة؟ (حتى عندما كان ماكيناس ينفذ واجبات الإمبراطور خلال غياب أوجستوس، كان الضابط الذي يأتي ليأخذ توقيعه يجده في ملابس غير رسمية)، وكان يظهر على المقعد مرتدياً عباءةً تنسدل على رأسه تاركة أذنيه مكشوفتين، فيبدو مثل العبد الذي هرب من الرجل الثري في مسرحية هزلية؟ الرجل نفسه الذي كانت مرافقته في الأماكن العامة – وذلك إبان تألُّبِ الدولة بالصراع الأهلي وتسليح العاصمة والتأهب – تتألف من زوج من الخصيان؟ والذي أقام ألف احتفال زواجٍ لزوجته الواحدة؟

إن تعابيره هذه، المنسوجة بهذه الطريقة الفظيعة، المرمية بلا اكتراث، والمبنية من دون أي اعتبار للاستعمال المعروف، تُظهر شخصية ثوريةً وشاذةً وفريدة على نحوٍ متساوٍ. أعظم الأمجاد التي قد تنسب لماكيناس هي رحمته: كان ينبذُ السيف ويمتنع عن إراقة الدماء، ولا يظهر قوته إلا في تحدِّيه للأعراف. ولكنه أفسد هذا المجد بهذه الصبيانيات الأسلوبية الفظيعة. إذ يصبح واضحاً أنه ليس رجلاً معتدلاً بل رخواً. ترتيبُ كلماته مربك، وانتقال الكلمات والأفكار المربكة (والتي فيها فعلاً صفة العظمة

لكنها تخسر كل تأثيرها في التعبير) يوضحُ جلياً كم كان عقله فاسداً بالرخاء.

هذه صفة تكون في الرجل أحياناً، وأحياناً في العصر. عندما ينتشرُ الرخاء والرفاهية بشكل واسع في المجتمع يزيدُ اعتناءُ الناس بحضورهم الشخصي. والشيء التالي الذي يشغل طاقات الناس هو الأثاث. ومن ثم تكرس مشقاتٌ للبيوت أنفسها، كي تمتد على مساحات واسعة من الأرض، وتلمع جدرانها بالرخام المستورد من وراء البحر، وتُنقش السقوف بالذهب، وتلمع الأرض بألقٍ يحاكي الألواح التي على السقف. ومن ثم تنتقل الفخامة إلى الطاولة، حيث يبحثون عن المديح في غرابة توالي الأطباق ومخالفته للمعتاد، فيجعلون ما هو في العادة آخر الوجبة أولَ طبقٍ منها، ويقدمون للناس وهم ذاهبون ما اعتادوا أخذه عند الوصول. ما إن تعتاد روح الشخص على ازدراء المعتاد واعتبار العادي ممجوجاً فهي تبدأ بالبحث عن الجِدَّة في طرق تعبيرها أيضاً. ففي لحظة تراه ينبشُ قبر اللغة ليحيي تعابير قديمة بائدة، وفي لحظة أخرى ينحت تعابير جديدة غير مسبوقة ويعطي كلمةً ما تهجئة جديدة، وفي أخرى – وهذا أصبح شائعاً جداً في الآونة الأخيرة – يستعمل التشابيه بتكرار وقح ويرى فيها أسلوباً أدبياً جيداً. بعضهم يقصِّرون أفكارهم ويأملون في التقدير عبر جعل معناهم بعيد المنال، فلا يعطون جمهورهم إلا لمحةً عنه، وآخرون غيرهم يمطّونها ولا يتركونها إلا مُكرهين. وآخرون أيضاً لا يقعون في عيبٍ أسلوبي وحسب (وهو شيءٌ لا مفرَّ منه إذا ما حاول المرء جعل الكلام فخماً) بل لديهم شغفٌ بالعيب من أجل العيب ذاته.

ولذلك، فحيثما تلحظ أن أسلوباً فاسداً يحظى بالتفضيل العام تيقّن من أن شخصيات الناس في المجتمع منحرفةٌ أيضاً عن الطريق الحقيقي. بالطريقة نفسها التي يشير فيها البذخ في اللبس والترفيه إلى مجتمعٍ مريض، كذلك الأسلوب الأدبي المشوه، إن كان واسع الانتشار، يدلّ على أن الروح (التي تشتق منها كلمات الناس) باتت تعاني. وفي الواقع يجب ألا تتفاجأ بأن الأعمال الفاسدة تلقى شعبيةً، لا بين عوام المارة وحسب، بل أيضاً بين الجماهير المثقفة نسبياً: فالفرق بين طبقتي النقاد هاتين فرقٌ في اللباس أكثر منه في البصيرة. ما قد يفاجئك أكثر أنهم لا يتوقفون عند الإعجاب بمقاطعٍ تحتوي عيوباً، بل يعجبون بالعيوب نفسها أيضاً. والأولى من هاتين هي الحالة الثابتة على مر التاريخ، إذْ لم يفُز عبقريٌ بالتقدير من دون قدر من التساهل مع كتابته. سمِّ لي رجلاً يعجبك، ذائع الصيت، وسأقول لك ما الذي سامحه أهلُ عصره فيه، ما غضوا بصرهم عنه ضمن عمله. سأريك الكثير من الكتبة الذين لم تؤذهم أخطاؤهم، بل أريك بعض من ساعدتهم. بل أقول لك هذا: أستطيع أن أذكر لك رجالاً أشهر من نارٍ على علم، رجالاً يُعتَبرون موضع الإعجاب والتقدير، وإن أصلحتَ أخطاءَ هؤلاء فإنك تدمرهم، لأن أخطاءهم وثيقة الارتباط بفضائلهم.

من ثم ليس هنالك قواعد ثابتةٌ للأسلوب، فهي محكومة باستعمال المجتمع، والاستعمال لا يتوقف في مكانه لأي فترة من الزمان أبداً. الكثيرُ من الخطباء يعودون إلى قرونٍ خلت في مفرداتهم، متحدثين لغة الألواح

الاثني عشر"[175]. فهم يرون كتابات جراكوس وكراسوس وكيوريو [كُتّاب القرن الأول ق.م] حديثةً ومصقولةً وعادية، ولذلك يعودون إلى الوراء أكثر نحو أبيوس وكورنكانيوس [كُتّاب القرن الثالث ق.م]. وآخرون بالتضاد مع ذلك، ورغبةً في حد أنفسهم في المفردات المعروفة اليومية، يقعون في أسلوب بلا تميُّز. كلا هاتين الممارستين – وكلٌّ بطريقتها المختلفة – أسلوبٌ وضيع (فرفضُ أي تعبيرٍ ليس رناناً ومزخرفاً وشاعرياً يماثل في سوئه تجنّبَ التعابير العادية التي لا غنى عنها). كلتاهما على القدر نفسه من الخطأ، في رأيي، الأولى تنتبه زيادة عن اللزوم إلى نفسها والثانية تهملُ نفسها بلا سبب. الأولى تزيل الشعر من رجليها أيضاً والثانية لا تزيله حتى من تحت الإبطين.

دعنا ننقل انتباهنا إلى الصياغة. كم فصيلة من العيوب أستطيع أن أريك في موضوعها؟ بعضهم يحبونها مكسرةً وغير متوازنة، ويجتهدون في بعثرة أي مقطع يتدفق بسلاسة وانتظام. يريدون أن تأتي كل نقلة مع صدمة، ويظنون الفحولة والقوة في الأسلوب هي الشذوذات التي تهز الأذن. وبعض الشخصيات الأدبية الأخرى لا تكترث بترتيب الكلام، بل ترتبُ كلَّ الكلمات في ألحان حلوة تنسرح بلطف. ماذا أقول عن النوع الذي يؤخِّر الكلمات ويبقينا منتظرين حتى تظهر أخيراً في ذيل الجملة. ماذا عن النوع الذي يتحرك نحو هدفه بطريقة هادئة، بتؤدةٍ رائقةٍ وبطيئة، ويبقى ملتزماً دوماً بإيقاعه المعتاد (كحال سيسيرو)؟

175. مجموعة من الألواح تعود إلى 451–450 قبل الميلاد، تسجل نصوصاً قانونية مبكرة، وكانت أقدم نصوص لاتينية مكتوبة عرفها الرومان القدماء. ومن الممكن للملاحظة هنا أن سينيكا لا يرى، أو يضع، فرقاً بين القواعد التي تنطبق على الأدب وتلك التي تنطبق على الخطابة.

وفي مجال الإبيجرام[176] أيضاً تتضمن الأخطاء الجُبنَ والطفوليةَ، أو الوقاحة والجرأة التي تتخطى حدود النزاهة، أو الإثراء المفرط الرتيب، أو الخلو من النتيجة وانعدام التأثير: النبرة الرنانة ولا شيء غيرها.

هذه الأخطاء يسنُّها فردٌ يهيمنُ على مجال الآداب في عصره، وينسخها الباقون من شخصٍ إلى آخر. ولذلك في عصر سالوست[177] كانت الجمل التي تنتهي فجأة، والنهايات غير المتوقعة والاختصار حد الغموض، تعتبر أسلوباً محكماً. لوسيوس أرونتيوس[178]، مؤرخ الحروب البونية ورجل ذو شخصية غير معهودة في بساطتها، كان يتبع سالوست ويقلد ذلك الأسلوب: «مستعملاً المال تحصّلَ على جيش» أي اشترى مرتزقة بكلمات أخرى، وهو تعبيرٌ تجده عند سالوست. أرونتيوس أُعجب بهذا التعبير «تحصَّل» ووجد له مكاناً في كل صفحة، فيقول في مقطع: «تحصّلوا على هزيمتنا»، وفي آخر: «هيرو ملك سيراكوز تحصَّلَ على حرب»، وفي آخر:«هذه الأخبار تحصَّلت على استسلام أهل بانورموس للرومان». هذه ليست أمثلة أجمعها لك، فالكتاب كله يعجُّ بها. ما كان عارضاً عند سالوست أصبح تكراراً لا ينقطع لدى أرونتيوس، ومن السهل فهمُ السبب، فحيث تطرّقَ سالوست لهذه التعابير عندما تخطر له، كان أرونتيوس يبحثُ عن مكانٍ يحشرها فيه. يمكنك أن ترى ما يحصل عندما يُتَّخَذُ خطأُ كاتبٍ أنموذجاً. سالوست تحدث عن «أمطارٍ شتوية». أرونتيوس في الكتاب الأول من (الحرب البونية) يقول: «فجأة صار

---

176. [القصيدة القصيرة التي تتألف من بضعة أبيات تحتوي لمحةً ذكية أو غريبة، أو حكمةً، أو فكاهة]
177. Gaius Sallustius Crispus سياسي روماني وكاتب تاريخي بليغ من القرن الأول قبل الميلاد.
178. Lucius Arruntius سناتور في عهد أوكتافيان، ومؤرخ، وقنصلٌ في عام 22 ق.م.

الطقس شتوياً». وفي مقطع آخر يكتب: «من هناك أرسل ستين قارب نقل، غير محملة بالكثير سوى الجنود والطاقم الأساسي، على الرغم من الرياح الشمالية الشتوية». يجترُّ الكلمة باستمرار وفي كل مكان ممكن. سالوست يكتب في موضع: «في أثناء الحرب الأهلية، أخذ يبحث عن تذكرات السداد والاستقامة». وأرونتيوس لم يستطع أن يمنع نفسه من أن يضع في بداية كتابه عن الكثير من التذكرات بخصوص ريجولوس.

وهذه الأخطاء، كغيرها، تنطبعُ على أسلوب الكاتب بالتقليد، وهي ليست بحد ذاتها دليلاً على طباعٍ بذخة أو توجهات فاسدة، لأن أحكامك على طباع المرء يجب أن تبنى على ما يخصه، على الأشياء النابعة من طبيعته الخاصة. الرجل ذو الطبع الحاد سيكون أسلوبه حاداً، والعاطفي سيكون أسلوبه مفرطاً في الانفعال، والذي يتبع هواه يكون أسلوبه رخواً وليناً، وهلم جراً. والأخيرُ أسلوبٌ يتبعه نوع الأشخاص الذي ينتف أو يشذب ذقنه، فيحافظ على نفسه حليقاً وناعماً حول شفتيه ولكن يترك باقي الذقن تنمو، الذي يلبس عباءات ذات ألوانٍ فاقعة، والذي يرتدي ثياباً تشفُّ ما تحتها، والذي يمتعض من فعل أي شيء إذا غفل الناس عن الاهتمام به، والذي يَستفزُّ ويغازل هذا الاهتمام، فلا يكترثُ باستهجان نظراتهم ما دام النظرُ موجهاً إليه. كذلك أسلوب ماكيناس، وكلُّ كاتب آخر ليست أخطاؤه الأسلوبية عارضة، بل متعمدة ومحسوبة. وهو شيءٌ ينبع من مرض جدي في الروح. لا يبدأ لسان المرء بالتلعثم بسبب الشرب إلا بعد أن تستسلم قدراته الفكرية أو تتهاوى وتنهار، والشيءُ نفسه ينطبق على هذا السُكر الأسلوبي، فأي شيءٍ آخر يمكنُ أن يسميه المرء؟ لا أحد يعاني منه إلا إذا كانت روحه غير مستقرة.

احرص إذاً على الاعتناء بالروح جيداً. أفكارنا وكلماتنا تنبع منها. ونشتق أسلوبنا وتعبيرنا وحتى طريقة مشينا منها. إذا كانت الروح سليمةً وصحية فإن أسلوبنا سيكون ثابتاً وقوياً وخصباً، ولكن إذا تداعت الروح فإن كل شيء آخر في شخصيتنا ينهار معها.

إذا سلمت الملكة، يعيش النحلُ بانسجام

وما إن تموت، تثور الخلية."[179]

الروح ملكتنا. وما دامت غير متأذية سيظل الباقي حولها مطيعاً وخاضعاً. وإن ارتعشت لحظةً، ففي اللحظة نفسها يتداعى كل الباقي."[180]

---

179. Virgil. Georgics. IV:212-213.

180. حُذف هنا 34 سطراً من للقاطع 23-27.

الرسالة (XLI)

«الحياة في الليل»

بدأ نور الشمس يقل. تقلص كثيراً، ولكن لما يزل عنده كرمٌ لكل من يباشر يومه مع نور الشمس نفسه، إن صح التعبير. والشخص الذي ينتظر نور النهار ويتلقى أشعة الشمس الأولى أكثر نشاطاً ويستحق ثناءً أكبر أيضاً. عارٌ على الذي يستلقي في السرير نائماً بينما الشمس عالية في السماء، ذلك الذي تبدأ ساعات استيقاظه مع انتصاف النهار، وحتى هذا الوقت يراه بعضهم مبكراً. هناك من يعكس أدوار الليل والنهار فلا يفتحُ جفنيه المرهقين من عربدة اليوم السابق قبل أن يحط الليل. طريقة حياتهم تشابه من وصفهم فرجيل:

الذين زرعتهم الطبيعة تحت أقدامنا على الجانب المعاكس من العالم

وحين تلقي جياد الفجر اللاهثة أولى أنفاسها علينا

يبدأ عندهم المساء المحمر بقوة، ليشعلوا مصابيحهم.»[181]

---

181. Virgil, Georgics, I:250-252.

ليست بلادهم تحت بلادنا بل حياتهم هي التي تناقضنا، فبعض هؤلاء الأضداد يعيشون في المدينة نفسها التي نعيش فيها، كما قال ماركوس كاتو، ولم يروا الشمس تطلع أو تحط قط. هل تظنُّ هؤلاء الناسِ يعرفون كيف على المرء أن يعيش حين هم لا يعرفون متى عليه أن يعيش؟ هل يخافون الموت كبقية الناس إن كانت هذه عزلتهم في حياتهم؟ إنهم كشؤم طيور الليل. لربما يعيشون ساعاتهم في الظلام في جوٍ من الخمر والعطور، ويقضون وقتهم في أكل الطعام المترف، وكلُ صنفٍ منه مطبوخ وحده أيضاً كي تتسلسل الأطباق، ولكن هذه ليست مأدبة، بل شعائر موتهم، بل الأموات على الأقل يحظون بشعائرهم في النهار. ولكن يا للسماء! ليس ثمة يوم طويل كفاية للرجل المستيقظ والنشيط! دعنا نُطيل حياتنا: العملُ هو إثباتها وواجبها. علينا أن نُبقي الليل ضمن حدود، وأن نحول جزءاً منه إلى النهار. الدواجنُ التي تربى للمائدة تُحبسُ في الظلام كيلا تستطيع الحركة فتسمن بسهولة. هناك تعاني، إذ لا تحظى بتدريب، والتورّم يستحوذ على أجسادها الخاملة ويسري الدهن الهامد في عزلتها الخانعة. وأجسادُ من كرسوا أنفسهم للظلام فيها ما يُزعج العين أيضاً، فبشرتهم تبدو أقل صحة من المرضى الشاحبين.

وأجسادهم أشبه بالأموات: هزيلةٌ وضعيفةٌ وشاحبة. ولكن هذا أقل أمراضهم بالتأكيد، فكم هو أعمق الظلام في أرواحهم! أرواحهم دائخةٌ ومحاطة بالضباب، تحسدُ العميان! أي إنسان مُنح عينين من أجل الظلام؟

أتسألُ كيف تصل الروح إلى هذا النفور المشوه من نور النهار فتحول كل حياتها إلى الليل؟ الرذائل كلها متضادةٌ مع الطبيعة، كلها تتخلى عن

النظام الصحيح للأمور. هدف الحياة الفاخرة ليس إلا التمتع بالأفعال غير الاعتيادية، وبما هو أكثر من مجرد مفارقة الطريق الصحيح: بالذهاب إلى النقطة الأبعد عنه، وفي النهاية يصل إلى اتخاذ موقف متعارضٍ معه بالكامل. ألا ترى أنه من غير الطبيعي أن تشرب دون أن تأكل؟ فتدخل الخمر إلى نظامٍ فارغٍ وتذهب إلى العشاء في حالة سكر؟ ولكنها رذيلةٌ شائعة بين الشباب، الذين يمرنون قدراتهم على الشرب - الابتلاع وصفٌ أدق لما يفعلونه - في مجموعات عارية ما إن يصبحوا داخل أبواب حمامٍ عمومي، ويحظون بين الفينة والأخرى بتدليك لجسدهم كي يتخلصوا من التعرق الذي يسببه شرب الخمر الساخن. الشربُ بعد الغداء أو العشاء عندهم عادةٌ عادية: شيءٌ لا يليق إلا بوجهاء القُرى والناس الذين لا يعرفون أين تكمنُ المتعة الحقيقية: الخمر يمنح صاحبه المتعة النقية، كما يقولون، عندما يجد طريقه إلى النظام بلا عوائق بدلاً من أن يعوم في الطعام. السكر على معدة فارغة يأتيهم باللذة.

ألا تظن أنه من العيش غير الطبيعي أن يبدل المرء بثيابه ثيابَ النساء؟[182] أليس من العيش غير الطبيعي محاولة نقل ريعان الشباب إلى فترة مختلفة من الحياة؟ أهنالك ممارسة أكثر إيلاماً أو قسوةً من ولدٍ لا يُسمح له أبداً بأن ينمو ليصير مظهره مظهر رجل؟ لكي يتحمل اهتمامات رجلٍ أطولَ ما يمكن؟ ألن تنقذه حتى سنواته من الإهانة التي كان يُفترَض بجنسه أن يتفاداها؟

أليس من العيش غير الطبيعي اللهاثُ خلف الورود في الشتاء؟ وإجبار الزنبق على التفتح في غير الربيع عبر تغيير بيئته وتدفئته بالماء

182. الأقمشة الفخمة مثل الحرير المذكور في الرسالة XC، أو الثوب الشفاف (perlucentem togam) الذي يدينه سينيكا في الرسالة CXIV.

الساخن؟ أليس من العيش غير الطبيعي زرع البساتين على قمم البروج، أو وضع غابة تتموج في الريح على سطوح البيوت؟ فتنمو جذورها من ارتفاع لا تصل إليه قممها على الأرض؟ أليس من العيش غير الطبيعي وضع أساسات الحمامات الساخنة في البحر واعتبار أن المرء لا يسبح بطريقة رفيعة إلا إذا كانت مياه المرء الساخنة تهدرُ كأمواج البحر؟ بعد أن بدؤوا بالتدرب على رغبة ما يناقضُ الطبيعة، ينتهون في آخر المطاف إلى قطع العلاقات معها بالكامل. 'طلع نور النهار: حان وقت النوم! كل شيءٍ هادئ: الآن وقت التدريبات، الآن وقت رحلات الركوب، الآن وقت الوجبة! نور النهار يقترب: حان وقت العشاء! لا حاجة لفعل ما يفعله العامة: اتباع الطريق المعهود المعروف جيداً سلوكٌ بائس. فلنترك نور النهار لعامة الناس. وليكن لنا صباحنا الخاص بنا'.

مثل هذا الشخص عندي بحكم الميت. ففي آخر المطاف، كم يمكن أن يبتعد المرء عن القبر إن كان يعيش في نور الفتائل والشعل؟ وقبرٌ مبكر فوق ذلك! «[183]» أستطيع أن أذكر كثيراً من الناس الذين عاشوا هذا النوع من الحياة في وقتٍ ما، ومن بينهم بريتور سابق أيضاً، أكيليوس بوتا، الرجل الذي بذَّر ميراثاً عملاقاً، وعندما اعترف بحالته الفقيرة للإمبراطور تيبيريوس لقي منه قوله: 'لقد استيقظت متأخراً'. مونتانوس جوليوس، وهو شاعر جيد متوسط ومشهور بقربه من تيبيريوس ومن ثم سقوطه من حظوته، كان يقدم قراءات عامة لشعره، ويستمتع بملء قصائده بوصف شروق الشمس وغروبها. ولذلك عندما عبَّر أحدهم عن ملله من استمرار القراءة يوماً كاملاً ردَّ عليه ناتا بيناريوس: «إنني

183. تُحمل الشعل حسب الطقوس في جنازات الأطفال.

مستعدٌ لأن أستمع إليه من الفجر وحتى الغروب، هل أستطيع أن أقول ما هو أفضل؟» عندما كان مونتانوس قد قرأ تواً الأبيات:

إله الشمس أضرم شعله الملتهبة لتمتد،

والفجر الوردي ينثر ضوءها، والآن

الطائر الحزين، السنونو، يبدأ بدفع

فتاته في حُلوق فراخه الصاخبة.

بمنقارٍ لطيف يعطي كلاً حصته

من الرحلات التي لم تأتِ بعد.

أحدهم، يدعى فاروس، لما سمع الأبيات نادى قائلاً «وبوتا بدأ بالنوم». فاروس هذا كان فارساً رومانياً صديقاً لماركوس فينيكيوس، وكان دوماً حاضراً في حفلات العشاء الجيدة التي يتأهل لحضورها بسلاطة لسانه. وهو أيضاً الذي قال عندما سمع مونتانوس يقرأ الأبيات التالية:

الراعي الآن في الحظائر يربط قطيعه،

والليل الآن يبدأ بجلب هدوء حالمٍ

للعالم النعس.

«ما هذا الذي تقوله؟ الليل، الآن؟ سأذهب وألقي تحية الصباح على بوتا».

طريقة حياة بوتا المقلوبة رأساً على عقب كانت مضرب مثل، وعلى الرغم من ذلك، كما قلت، فقد عاش كثير من الناس هذه الحياة في وقت معين. السبب الذي يجعل بعض الناس يعيشون بهذه الطريقة ليس أنهم يرون في الليل جاذبية خاصة، بل أنهم لا يجدون متعة في أي شيء معتاد. إلى جانب أن نور الشمس عدو التفكير السيئ، فإن الشخص الذي يشتهي الأشياء ويحتقرها بناء على غلائها أو رخصها ينظرُ شذراً إلى الإنارة التي لا تكلفه شيئاً. أكثر من ذلك، الرجل الذي يعيش ببذخٍ يريد أن تبقى حياته على كل لسان ما بقيَ حياً. فهو يظن أنه يضيع وقته إن لم يكن موضع حديث الناس. ولذلك بين الحين والآخر يفعل شيئاً محسوباً ليدفع الناس للحديث عنه. الكثير من الناس ينفقون ثروات، والكثير من الناس يحتفظون بعشيقات. حتى تفوز بسمعة بين هذه الصحبة عليك أن تقدم على شيء ليس بذخاً وحسب، بل خارجاً عن الاعتيادي بالمرة. في مجتمع محمومٍ كهذا، يحتاج المرء إلى ما هو أكثر من الخلاعة العادية ليتحدث عنه الناس.

سمعت راوي الحكايات الممتع، **ألبينوفانوس** بيدو، يصف كيف عاش فوق سيكستوس بابينيوس. بابينيوس كان من معشر الحاقدين على نور الشمس. «في الساعة التاسعة ليلاً كنت أسمع قرقعة السياط. فأسأل ماذا يفعل، فيقال لي أنه يدقق حسابات المنزل. وحوالى الثانية عشرة أسمع صراخاً حاداً، فأسأل ما هذا، فيقال لي أنه يدربُ صوته. وفي الساعة الثانية أسأل ماذا يعني صوت العجلات، فيقال لي أنه ذاهب في جولته. وعند الفجر أسمع صراخاً للصبيان وفوضى من النشاط بين العاملين وطاقم المطبخ فأسأل ما الأمر، فيقال لي أنه خرج من حمامه ويطلب مقبلات ما

قبل العشاء. "عشاؤه إذاً لا يتجاوز أبداً وقت يومه"[184]. بل الأمر بعيد عن ذلك، فهو يعيش بطريقة اقتصادية جداً، إذْ لا ينفق إلا من الليل». ولذلك عندما كان الناس يقولون عن بابينيوس أنه لئيم وبخيل كان يبدو يردُ: «أظنكم أيضاً تصفونه بأنه مدمنٌ على المصباح».

لا يجب أن تُفاجأ من كم الفردية الموجود في الرذائل. الرذائل متعددة، وتأخذ أشكالاً لا تحصى وغير قابلة للتصنيف. الإخلاص لما هو سليمٌ مسألة بسيطة، الإخلاص لما هو خطأ معقدٌ ويتخذُ تنويعات لا نهائية. والأمر نفسه في شخصيات البشر. الذين يتبعون الطبيعة تلقائيون وغير معقدين، ولا يختلفون إلا بدرجة قليلة، بينما أولئك المشوهون مختلفون بلا حدود عن الباقين ومختلفون بنفس القدر في ما بينهم. ولكن السبب الرئيسي لهذا المرض، في رأيي، هو رأيٌ يزدري الوجود العادي.

هؤلاء الناس يسعون لتميز أنفسهم عن باقي العالم حتى في تنظيم وقتهم، بالضبط كما يميزون أنفسهم عن غيرهم بأسلوب لباسهم، وأناقة أساليب ترفيههم، وفخامة عرباتهم. الناس الذين يعتبرون سوء السمعة جائزةً لسوء السلوك ليس عندهم رغبة في الأنماط الاعتيادية من سوء السلوك. وسوءُ السمعة هدف كل هؤلاء الذين يعيشون بالمقلوب، إن صح التعبير. علينا إذاً، يا لوكيليوس، أن نحافظ على الطريق الذي رسمته لنا الطبيعة ولا ننحرف عنه أبداً. من يتبعون الطبيعة يجدون كل شيء سهلاً وواضحاً، بينما من يصارعونها فحياتهم ليست إلا تجذيفاً عكس التيار.

---

184. [العرف المعتاد لدى الرومان ألا يتجاوز العشاء فترة مغيب الشمس، ويبدو يسخر من أن عشاء بابينيوس لا يتجاوز الليل.]

الرسالة (XLII)

«صراع الفضيلة والمتعة»

لقد وصلت أخيراً إلى بيتي في ألبا[185] متعباً من الرحلة (التي لم تكن طويلةً بقدر ما كانت عديمة الراحة) فلم أجد شيئاً جاهزاً لقدومي سوى نفسي. فأنا في السرير، أتعافى من تعبي، وأستغل بأفضل ما أستطيع بُطء طباخي وخبازي بالحديث مع نفسي عن هذه الفكرة نفسها: كيف لا شيء مرهقٌ إن أخذناه بخفة، وكيف لا شيءَ يثير انزعاج المرء بالضرورة ما دام الإنسان لا يجعله أكبر مما هو عليه عبر الانزعاج. خبازي قد لا يكون عنده خبز، ولكن مدير المزرعة سيكون عنده شيء منه، أو المُضيف، أو أحد الساكنين. «عنده خبزٌ سيئ أجل!» ستقول لي. انتظر إذاً: سرعان ما سيصبح خبزاً جيداً. الجوع سيجعلك تجد حتى ذلك الخبز طرياً ولذيذاً. بناء على ذلك على المرء ألا يأكل حتى يطالبه الجوع. سأنتظر إذاً ولا آكل حتى أحصل على خبزٍ جيد أو أتوقف عن كوني انتقائياً في شأن الخبز. من الجوهري أن يعوِّدَ المرء نفسه على الاكتفاء بالقليل. حتى الأثرياء

185. ألبا Alba Longa، مكان عتيق امتلك سينيكا فيه بيتاً ريفياً، على بعد حوالي 12 ميلاً من روما.

والمخدومون جيداً يواجهون باستمرار، وتؤرقهم، أوقاتٌ وأحوال صعبة. ليس في قدرة إنسان أن يحصل على أي شيء يرغبه، ولكن في قدرته ألا يرغب في ما لا يملك، وأن يستغل الأشياء التي تأتي في طريقه على أحسن ما يستطيع. والمعدة الخاضعة للسيطرة المحكمة، التي تتحمل الاستعمال الخشن، تدل على خطوة مهمة نحو الاستقلال.

إني لأجد رضاً لا يقاس في الطريقة التي يتصالح فيها تعبي مع نفسه. أنا لا أطلب المدلكين، ولا حماماً ساخناً، أو أي علاجٍ سوى الوقت. ما فعله الجهدُ ستذهب به الراحة. وأي وجبة سوف تجد طريقها إلي ستكون مأدبةً من المتعة. إنني في الواقع وضعت روحي في نوع من الاختبار، والاختبار مفاجئ أيضاً، ومثل هذا الاختبار أكثر صدقاً ومكاشفة بكثير. عندما تكون الروح قد استعدّت مسبقاً وحضَّرت نفسها لإظهار التحمل، لا يكون واضحاً كم من القوة فعلاً تمتلك. الدلائل الأقوى هي التي تظهر في لحظة عارضة، عندما تنظر إلى الإزعاج بطريقة ليست غير متضايقة وحسب، بل بسكينة، عندما تمتنع عن الانفجار في نوبة غضبٍ أو افتعال شجار مع أحد، عندما تحقق كل ما تحتاجه عبر عدم اللهاث خلف هذا وذاك، فتظهرُ الروح أن عاداتها قد ينقصها شيء، ولكن ذاتها الحقيقية لن ينقصها شيء أبداً. قبل أن نبدأ بالعيشِ من دون بعض الأشياء لا نستوعب كم هي غير ضرورية. لأننا كنا نستعملها، لا لأننا نحتاجها، بل لأننا نملكها. انظر إلى عدد الأشياء التي نشتريها لأن الآخرين اشتروها أو لأنها موجودة في بيوت معظم الناس. إحدى الطرق التي تحاصرنا بها المتاعب هي الاقتداء بالآخرين في حياتنا. بدلاً من أن ننظم أنفسنا بالعقل يغوينا العُرف. هنالك أشياء ما كنا لنتمنى تقليدها لو أن قلة

يفعلونها، ولكن ما إن يفعلها الكثيرون نتبعهم، كما لو أن الشيء يصبح أكثر احتراماً إذا أصبح أكثر شيوعاً. تحصلُ الممارسات الخطأ في عقولنا على صفة الصحة ما إن تصبح عامةً. لا أحد الآن يسافر من دون خيالة نوميدية أمامه وجماعة من الراكبين تسبق عربته. ويشعر المرء بالخزي إن لم يكن معه رجالٌ يزيحون المسافرين عن الطريق ليوضحوا للجميع أن هنالك محترماً يمرُّ في الطريق عبر إثارة عجاجة من الغبار. الكل هذه الأيام عنده بغالٌ تحمل أوانيه الكريستالية، وأوعيته الرخامية الثمينة وأغراضاً أخرى منحوتة بأيدي صناع مهرة. يخجل المرء أن يراه الناسُ لا يحمل إلا نوع الأمتعة التي يمكن أن ترتج من دون أذى. وغلمان المرء يركبون طالين وجوههم بالمراهم كي لا تُفسد الشمس أو الريح بشرتهم الناعمة، ويشعر المرء بالخجل إن لم يكن بين حاشيته غلامٌ تدعو صحة وجنتيه إلى الحماية بالمساحيق.

كل هؤلاء الناس يجب أن تتجنب معاشرتهم. هؤلاء هم الناس الذين يُعْدونك بجرثوم الرذائل، فينقلونها من شخص إلى آخر. كان المرء يعتقد أن من ينشر الشائعات هو أسوأ ما يمكن: لكن هؤلاء ينشرون الرذائل. ومصاحبتهم تؤذي كثيراً. وحتى إن لم تنجح فوراً، فهي تترك بذرتها في العقل، ويلحق الشر بنا حتى بعد أن نودعهم، ليطل برأسه في وقت أو آخر في المستقبل. بنفس الطريقة التي يعود بها الناس من حفلة حاملين معهم الألحان وسحر الموسيقى التي سمعوها، فتتدخل في تفكيرهم وتمنعهم من التركيز في أي شيء جدي، كذلك الحديث مع المُتعالين والمتطفلين: يلتصق بآذاننا فترةً طويلة بعد أن نسمعهم. وليس من السهل طردُ الكلمات الموسوسة من ذاكرتنا. إنها تبقى معنا، وتدوم وتدوم، وتعود

إلينا بين الحين والآخر. ولذلك علينا أن نغلق آذاننا عن الكلام المؤذي، وبمجرد أن يبدأ أيضاً. فما إن يُفتح الباب له ويدخل حتى يصبح أكثر وقاحةً بكثير. ويصل في النهاية إلى المرحلة التي يقول فيها: «الفضيلة والفلسفة والعدالة ليست إلا ثرثرة مبهرجة تستجدي التصفيق. هنالك طريقةٌ واحدةٌ للسعادة وهي أن تستغل الحياة بقدر استطاعتك. الأكل والشرب وإنفاق المال الذي تُرك لك، هذا ما أدعوه الحياة، وهذا ما أدعوه ألا تنسى أنك فانٍ. الأيامُ تضيعُ من يدك، والحياة تهرب منا، ولا ترجع أبداً. لماذا يجب أن نتردد؟ ما فائدة أن تكون حكيماً؟ سنواتنا لن تسمح لنا دوماً بحياة من المتعة، وفي الوقت الحالي بينما هي قادرة عليها وتطلبها، ما نفع إرغامها على الزهد؟ اسبق الموت بخطوة وتخلص هنا والآن مما سوف يأخذه منك. انظر إلى نفسك: لا عشيقة عندك ولا غلام يجعلُ عشيقتك تغار. تقضي كل أيامك في الصحو. تأكل كما لو أن عليك أن تقدم دفتر حسابات لأبيك ليوافق عليه. هذه ليست حياةً، بل أنت مجرد جزءٍ من الحياة التي يستمتع بها الآخرون. وأي جنونٍ أن تمنع نفسك من كل شيء كي تبني ثروة لوريثك، وهي سياسة تجعل صديقك في الواقع عدواً لك! عبر كمية المال التي ستتركها له، فكلما كان ما سيرثه أكبر كان سعيداً أكثر بموتك. أما تلك الشخصيات الحامضة: أولئك النقاد لحيوات الآخرين - والمفسدون لحيواتهم - الذين يعتبرون أنفسهم معلمين أخلاقيين للمجتمع كله، فلست مضطراً لأن تستمع لهم بقرش، ليس عليك أبداً أن تردد من وضع الحياة الجيدة قبل السمعة الجيدة».

هنالك أصواتٌ يجب الابتعاد عنها مثل التي رفض عوليس أن يبحر عبرها من دون ربطه بالصاري. إذ لها القوة نفسها: إنها تغوي الرجال

بعيداً عن الوطن والأهل والأصدقاء والقيم الأخلاقية، وتخلق فيهم آمالاً، ومن ثم تتسلى ببؤس حيوات الانحطاط التي يعيشونها.[186] كم من الأفضل اتخاذ طريق مستقيم والوصول إلى حيث تصبح الأشياء الممتعة والأشياء المشرفة بالنسبة إليك، أخيراً، هي الشيء نفسه. وإننا قادرون على الوصول إذا أدركنا أن هنالك نوعين من الأشياء التي تجذبنا وتنفرنا. نحن نتجذب إلى الثروة والمتع والجمال والنفوذ السياسي ومجالات أخرى متعددة ومغرية، ونحن ننفرُ من الكدِّ والموت والألم والخزي والقدرات المحدودة. يتبع ذلك أننا نحتاج لأن ندرِّب أنفسنا على ألا نشتهي الأولى وألا نخاف من الثانية. بل دعنا نخوض معركتنا بالعكس: ننسحب من الأشياء التي تجذبنا ونؤهب أنفسنا لملاقاة الأشياء التي تهاجمنا. أنت تعرف الفرق يا لوكيليوس بين وقوف الناس خلال صعودهم الجبل وهبوطهم إياه: النازلون على المنحدر يميلون بثقلهم إلى الخلف، والمتحركون نحو الأعلى يميلون نحو الأمام، لأن دفع وزن المرء نحو الأمام خلال الهبوط، وإلى الوراء خلال الصعود يعني أن تتحالف مع ما عليك مواجهته. الطريق نحو المتع هابطٌ: والتسلق نحو الأعلى هو الذي يأخذنا إلى أرض وعرة وصعبة. هنا دعنا نرمي بأجسادنا نحو الأمام، وفي الاتجاه المعاكس، نحو الخلف.

هل تظنُّ أن الناس الوحيدين الذين أراهم خطراً على آذاننا هم من يمجدون المتع ويغرسون فينا رعباً (وهو بحد ذاته أمر مخيف) من الموت؟ لا، بل أرانا نتضرر أيضاً من الذين يحثوننا تحت غطاء المعتقدات الرواقية

186. النص هنا فاسد.

على ما هو خطأ. فهؤلاء يجعلون جلّ ميلتنا أن رجل الحكمة والخبرة هو وحده من يعرف كيف يُحِبّ. "هو الرجل الوحيد الذي يملك الموهبة الطبيعية لفن صناعة الحب، إذاً" كما يقولون "هو أيضاً العارف بأشرب الحفلات. وهذا سؤال يستحق نقاشنا: حتى أي عمرٍ يبقى لائقاً بالرجل أن يحب رجالاً يافعين؟»

مثل هذا الشيء قد يكون حسناً عند اليونان، ولكن نوع الكلام الذي يستحسن أن نصيخ له السمع هو هذا: «لا رجلَ جيدٌ بالصدفة. الفضيلة يجب أن تُتعلم. المتعة أمر فقير وسخيف. يجب ألا نضع عليها قيمة: إنها شيءٌ نتشاركه مع أغبى الحيوانات، فأصغر المخلوقات وأوضعها تلهث خلف المتعة. المجد شيء فارغٌ متغيرٌ، متقلبٌ كالطقس. الفقر ليس شراً إن لم يركل المرء الأرض حنقاً على حظه. الموت ليس شراً. ما هو إذاً؟ القانون الوحيد الذي تملكه البشرية والمتحرر من التمييز. الخرافة هرطقةٌ غبية: إنها تجعلك تخاف من يجب أن تحبهم، وتُهينُ من تَعبُدُهم، فأي فرقٍ بين أن تُنكرَ الآهة وأن تجلب عليها سوء السمعة؟» هذه هي الأشياء التي يجب أن نتعلمها، وليس أن نعرفها وحسب بل أن نحفظها عن ظهر قلب. ليس للفلسفة أن تمنح أعذاراً للرذائل. لا أمل بشفاء الرجل المريض إذا شجعه طبيبه على الحياة المتهورة.

ملحق

«موت سينيكا برواية تاسيتوس»

(Annals, XV: 60-64)

سألَ نيرون إذا ما كان سينيكا يتحضر للانتحار. أجاب جافيوس سيلفانوس أنه لم يلحظ خوفاً أو حزناً في كلماته أو ملامحه. فأُمر سيلفانوس بالعودة والأمر بحكم الموت. حسب أحد المصادر لم يعد سيلفانوس من الطريق التي جاء منها بل التف ليزور قائد الحرس فانيوس روفوس، وأطلعه على أوامر الإمبراطور سائلاً هل يطيعها؟ فأمره فانيوس بإطاعتها، مظهراً ذلك الضعف الذي ظهر عليهم جميعاً في آخر المطاف، لأن سيلفانوس نفسه كان واحداً من المتآمرين[187]، والآن بات يشارك في جرائم من كان يتآمر لقتله. ولكنه تنصّلَ من رواية الفظاعة، ولم يرغب بأن يشهدها أيضاً، بل أرسلَ أحد ضباطه ليقول لسينيكا أن عليه الموت.

187. [من المتآمرين لاغتيال الإمبراطور، وهي المؤامرة التي يعدمُ بسببها سينيكا، ومن المحتمل جداً أنه لم يكن على علمٍ بها]

طلبَ سينيكا غيرَ منزعجٍ أن يكتب وصيته، ولكن الضابط رفض، فاستدار سينيكا إلى أصدقائه وقال: «لقد مُنعت من أن أظهر امتناني لكم على خدماتكم، أترك لكم الشيء الوحيد الذي بقي لي، وهو أفضل ممتلكاتي: طريقة حياتي. إذا تذكرتموها، فإن صداقتكم المخلصة ستكون من الإنجازات الفضيلة». وخلال حديثه، أحياناً بنبرة أقوى وأحياناً ألطف، كان ينهاهم عن دموعهم ويستعيد شجاعتهم. يسألهم أين ذهبت فلسفتهم، وتلك العزيمة التي طوروها خلال السنين لتحمل المصائب. أضاف: «هل كان أحدٌ يجهلُ أن نيرون متوحّش؟ بعد قتله أمه وأخيه لا بد وأن يقتل معلمه وأستاذه».

كانت هذه الكلمات على ما يبدو مقصودة لتصل إلى آذان العامة. عانق سينيكا زوجته، وطالبها بلطف مختلف عن صرامته الفلسفية بأن تعتدل وتُقصِّر من فترة حدادها، وأن تتعزى في مصابها بحياته التي قضاها جيداً. ولكنها أصرت على أن تموت معه، وطالبت بالإعدام. لم يعارض سينيكا قرارها الشجاع، بل إنه، لمحبته إياها من كل قلبه، كان كارهاً تركها للمعاملة السيئة. قال سينيكا: «ما أردته لك كان العزاء في الحياة، ولكنك تفضلين الموت والمجد. لن أمنعك من ضرب مثالٍ عظيمٍ كهذا. لنا أن نموت بعزيمة متساوية، ولكن هدفك هو الأنبل».

ومن ثم بجرح واحد من النصل شقَّ كل منهما عروق ذراعه. لكن جسد سينيكا الهرم، والضعيف من العيش الزاهد، لم يلفظ سوى القليل من الدم. فقطع أيضاً عروق رجليه وخلف ركبته. وبعد أن أرهقه الألم الشديد، كان خائفاً من أن يوهِن عزيمة زوجته بإظهار الألم أو أن يخسر

قوته لرؤية معاناتها، فطلب منها الذهاب إلى غرفة أخرى. ولكن بلاغته استمرت حتى اللحظة الأخيرة. فأرسل لأمنائه وأملى عليهم أطروحة. (وقد نُشرت بكلماته فلن أعيد صياغتها هنا).

لم يكن نيرون يكره باولينا شخصياً. ولذلك، وليتجنب ازدياد سمعته الوحشية، أمرَ بإيقاف انتحارها. فقام العبيد والعبيد السابقون بتضميد ذراعيها وإيقاف النزيف. لربما كانت غير واعية، ولكن الروايات المشينة شائعة دوماً، وبعضهم قال أنها رغبت بمجدِ الموت مع زوجها لأنها ظنت بأن نيرون لن يتركها تعيش، ولكنها عندما رأت احتمالات جديدة عاودتها جاذبية الحياة، وتمكنت منها. عاشت بضع سنوات، مخلصة لذكرى زوجها على نحوٍ مشرف، بملامح شاحبة، وجسدٍ يُظهر كم فقدت من الدماء.

في أثناء ذلك، كان موت سينيكا بطيئاً ومستمراً. السم كان محضَّراً، كالمستعمل لإعدام المجرمين في أثينا، وطلب سينيكا الآن من طبيبه، وهو صديقه القديم أيضاً، أن يأتي بالسم. ولكنه عندما حضر شربه سينيكا فلم يؤثر فيه، لأن أعضاءه كانت أصلاً باردة وخدرة ضد انتشار السم. وُضِعَ أخيراً في حمامٍ من الماء الدافئ. ورش بعضاً منه على عبيده الحاضرين. معلقاً أن هذه إراقته [تحيّته أو صلاته] لجوبيتر. ومن ثم حُمِل إلى حمام بخار حيثُ اختنق. تم حرقه بلا شعائر، كما طلب في تعليماته عن موته التي كتبها في ذروة ثروته وقوته.